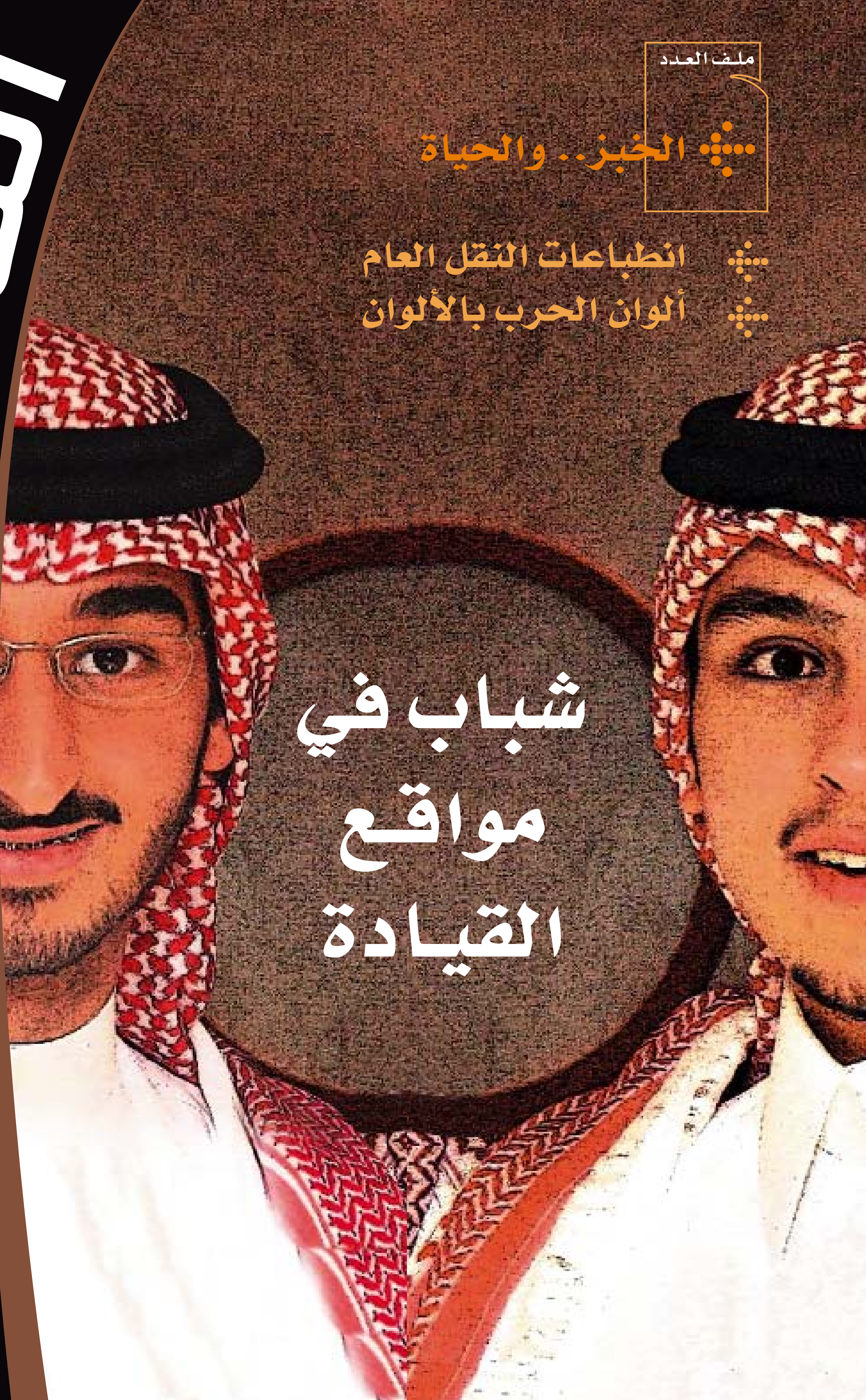
القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • يناير - فبراير 2006



ملف العدد

الخبز.. والحياة

انطباعات النقل العام

ألوان الحرب بالألوان

شباب في مواقع القيادة

العدد 1
المجلد 55

معارض ومؤتمرات

يناير 2006

- معرض المياه وتكنولوجيا الطاقة والبيئة
  دبي: 14-16
  www.wetex.ae
- معرض القاهرة الدولي للكتاب
  القاهرة: 17-29
  www.cibf.org
- المؤتمر العربي الثاني للمجالس العربية التشريعية
  المنامة: 21-23
  www.arado.org.eg
  h-afifi@arado.org.eg
- ندوة استراتيجية زيادة فعاليات كليات العلوم الإدارية في الوطن العربي
  قطر: 21-25
  www.arado.org.eg
  mkenawy@arado.org.eg
- معرض وسائل الاتصالات السعودية
  الرياض: 22-24
  info@expo-centre.ae

فبراير 2006

- مؤتمر ومعرض كهرباء الشرق الأوسط
  دبي: 5-8
  www.middleeaelectricity.com
  meelectricity@iirme.com
- معرض الرياض الدولي للكتاب
  الرياض: 5-9
  www.recexpo.com
  esales@recexpo.com
- معرض الشرق الأوسط للوحات والتصوير الجرافيكي
  دبي: 6-8
  www.iecdubai.com
  iec@emirates.net.sa
- مؤتمر الشباب الرابع
  عمان: 10-17
  www.ayamm.org
  suzan@ayam.org
- المؤتمر الدولي الثالث لاستخدام المناظير في جراحات العظام
  جدة: 14-16
  add.jed@sghgroup.net
- المعرض الدولي لتكنولوجيا الغذاء
  دبي : 19-21
  www.expo-centre.ae
  info@expo-centre.ae

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية
(أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
فاطمة الجفري
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
محمد الفوز
رولان قطّان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

يناير - فبراير 2006
ذو الحجة 1426 - محرم 1427

توزع مجاناً للمشتركين
العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

الهواتف: رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 طاقة واقتصاد

تبدأ «القافلة» رحلتها لهذا العدد بتناول ظاهرتين عالميتين بينهما نوع من التشابه والتضاد. يتناول الموضوع الأول في مناخ الطاقة والاقتصاد **صناعة تكرير الزيت**، بعد ما دخلت المصافي وقلة ما ينشأ منها في صلب الحديث عن أسباب ارتفاع أسعار الزيت ومشتقاته في العالم. ويتطرق هذا الموضوع لمشروعات أرامكو السعودية الحالية والمستقبلية في هذا المجال.


أرامكو السعودية

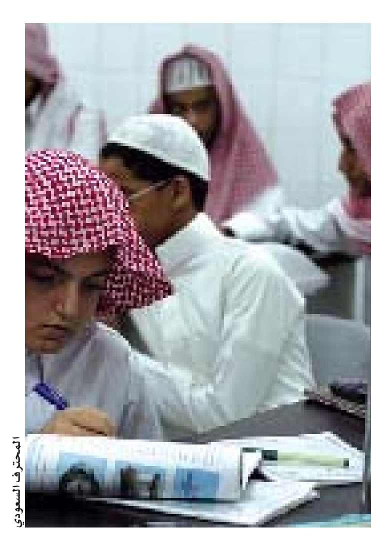


إلى ذلك، تتناول «القافلة» ظاهرة محيرة تكمن في لجوء عدد كبير من **شركات الطيران إلى إعلان إفلاسها** أو اندماجها مع شركات أخرى تلافياً للإفلاس، وذلك على الرغم من الأرقام التي تتحدث عن ارتفاع عدد الرحلات الجوية وأعداد المسافرين في العالم.



2 قضايا

وفي الوقت الذي عقد فيه «**منتدى القيادات العربية الشابة**» في ديسمبر الماضي، كنا نتابع هذه الظاهرة الجديدة التي بدأ العالم بتلمسها، مما شجعنا على إلقاء الضوء عليها ومحاولة الإجابة عن تساؤلات حول حقيقتها على الصعيدين العالمي والعربي.

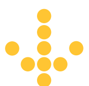

المحترف السعودي

أما باب قول في مقال فيتضمن قراءة لما سبق أن كتبه رئيس التحرير حول **التواصل الثقافي المفقود** ما بين الجزيرة العربية ومصر وبلاد الشام.



3 بيئة وعلوم

ويتناول مناخ البيئة والعلوم موضوعين أولهما **التنوع البيئي** الذي يبدو على جانب من الأهمية أكبر بكثير مما نتوهم.



ويطرح الثاني مواكبة العلم لاحتياجات اجتماعية أوجدها العلم، فحاجة المجتمع إلى **إسكات الجوال**، والتي يجري التكيف مع متطلباتها، ما كانت لتوجد لو لم يصنع العلم نفسه الهاتف الجوال.

الفاصل المصور



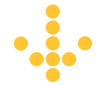
قدمت «القافلة» على مدى السنوات الثلاث الماضية صوراً فوتوغرافية مميزة لكفاءات سعودية شابة في الفاصل المصور، ولكن يوماً بعد يوم تزداد كفاءة الشباب السعودي في فن التصوير تألقاً، وفي هذا العدد يقدم لنا المصور عبدالسلام التويجري مجموعة من أعماله المتميزة.



4 الحياة اليومية

وتنتقل «القافلة»، ضمن مناخ حياتنا اليومية، نقلة نوعية.. فبينما كانت مواضيع الحياة اليومية تمس الطقوس الدائمة التي يمارسها الناس في حياتهم بتفاصيلها البسيطة، نقدم في هذا العدد تجارب يعبر عنها كتّابها بقرب وتلقائية.





أما في الشأن الصحي، فنتناول موضوع التهوية في المنازل خلال الشتاء.

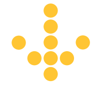


5 الثقافة والأدب



وبعد موضوعات مختلفة عن الفن التشكيلي نقترب من الحرب، نتناول في مناخ الثقافة والأدب **موضوع الحرب في الفن التشكيلي**.

ديوانِ الأمس في هذا العدد يحكي **قيماً إدارية تعرَّض لها الشعر العربي**، أما ديوان اليوم، فيحكي عن **حديث المرآة**، ملمحاً إلى أن القصيدة التي يحتويها هي أول قصيدة تلقيها فيه شاعرة سعودية.





6 ملف العدد



وختامها خبز.. في اقتراب حميم من القارئ في أبسط ملامح حياته وأكثرها أهمية. فالخبز رمز للحياة، والحياة على تنوعها واختلاف ألوانها، قد نستطيع أن نختصر همومها في عبارة من كلمتين: أكل العيش.

المحرر

الرحلة معاً

غياب أدب الحج!!

ظل الحج على مر العصور ملهماً للأدباء والشعراء والرحّالة، إلى أن أصبح له مكتبة كبرى ليس من السهل أن يحيط بها الباحث في أدب أو ثقافة الحج. وربما وقع غيري في إشكالية التفريق بين ما هو أدبي وما هو ثقافي إذا تم تناول الحج كمُلهم لكثير ممن كتبوا عن هذه الشعيرة وموسمها ومكانها. وقد نصل في النهاية إلى ما وصلتُ إليه وهو أن الحج وعاء ثقافي هائل يستوعب الأدب بألوانه كما يستوعب تقاليد الحجاج وعادات الشعوب الخاصة به وبشعبياته من أهازيج وأناشيد وأدعية منظومة في قوالب محببة وقريبة إلى النفس.

وإذا تجاوزنا هذه الإشكالية فإن ما يلفت نظري، وربما لفت نظر الكثير من المتابعين، غياب أدب الحج في زماننا هذا على خلاف ما كان يحدث في أزمنة سابقة، حيث كانت الأحبار تسيل في الطريق إلى مكة أو العودة منها. وحيث كانت رحلة حاج مثقف مثل ابن جبير الأندلسي أو ابن بطوطة المغربي أو ناصر خسرو الخراساني، تتحول إلى رائعة من روائعه النثرية واصفاً بدقة بالغة رحلته إلى الحج، ليترك لنا صوراً حية من صور ذاك الزمان الغابر، الذي لولا هذا الأدب الرفيع والدقيق ما بلغنا شيئاً عنه ولاندثرت صورته مع صور عديدة بفعل عوادي الزمن.

ولربما نجد تفسيراً لتراجع أدب الحج المعاصر في مقابل ذلك الأدب التاريخي الرائع؛ بغياب الشوق إلى موسم الحج في زماننا وتراجع اللذة في الطريق إلى أماكنه المقدسة، التي هي شرط من شروط إثارة الأديب أو الشاعر ليكتب نصه النثري أو الشعري. فما هيء لابن جبير من معاناة الطريق ولهفة الشوق وبعد الشقة في رحلته البحرية من الأندلس (578هـ) إلى البقاع المقدسة، لا يهيأ لأحد الآن عبر رحلة في الطائرة لا تتجاوز في أقصى حدودها اثنتي عشرة ساعة. وما ركبه من أشرعة في عرض البحر وبغال وحمير في طول البر حلت محله طائرة أو سيارة مزودة بكل وسائل الراحة. فمن سيستثار ليستل محبرته وهو



يحج في حملة توافرت فيها كل مستلزماته من الأطباق الفاخرة إلى المئزر وحذاء دخول الحرم.

أظن أن المعاناة، أو المتعة على الأقل، شرط من شروط استثارة الأدباء والشعراء، وغياب الاثنتين سبب مؤكد في التراجع الواضح لأدب الحج. وإذا كانت مكة المكرمة في أدب الرحلات صورة كبرى وواضحة عن بلدان العالم الإسلامي، نَهَلَ منها الباحثون في الثقافة الإسلامية على مر العصور فإن هؤلاء الباحثين لن يجدوا كتباً معاصرة في هذا الموضوع لا عن مكة ولا عن غيرها من مدن العالم الإسلامي؛ لأن أدب الرحلات نفسه أصيب بالضمور وما عاد يستهوي الكتاب الساعين خلف التوثيق والمستمتعين بالتدوين.

ونجد هذا الغياب، بالمناسبة، حتى على صعيد الصحافة العربية التي تراجع فيها بشكل واضح أدب الرحلات الصحفي، في الوقت الذي تنامى فيه هذا الاهتمام في صحف ومجلات أجنبية تغدق الكثير من ميزانياتها على محررين ومصورين يجوبون الأرض العربية والإسلامية، يوثقون بالكلمة والصورة الكثير من مشاهدها التاريخية وملامح حاضرها، حتى باتت بعض هذه المجلات مرجعاً يعتد به للبحث في شؤون عالمنا.

لكن إذا عدنا إلى الحج فإن أدبه القديم المشهود له بالثراء والتنوع بقي هو الأدب الذي يشار إليه بالبنان، مع أن زميلنا العزيز الأديب حسين بافقيه يرى من إحاطته بمكتبة الحج ومتابعته الدقيقة لها، أن المصريين في العصر الحديث غلبوا غيرهم كماً وكيفاً في الكتابة عن الحج كموسم ومكان أو أمكنة. وهو التقط من جملة مطالعاته عند الشهير محمد أسد ومالك بن نبي ومالكوم إكس وغيرهم من المعاصرين فكرة واحدة تجمعهم عن الحج وهي فكرة الأخوّة الإنسانية التي لا تبدو أكثر سطوعاً في أي موسم مثلها أثناء موسم الحج إلى البيت الحرام. بينما سجل الشيخ حمد الجاسر -رحمه الله- في وصفه لرحلة الحج دهشة القادم من صحراء نجد إلى فضاء الحرم ومكتسباته الحضارية وقناديله المعلقة في المآذن والأسقف.

كذلك لم تخل المكتبة الحديثة عن الحج رغم ندرتها من فكرة الكتاب القائم على التأمل. من ذلك كتاب الدكتور محمد حسين هيكل: «في منزل الوحي»، الذي اختلطت فيه المشاهدة العيانية والبحث التاريخي والرؤية العاطفية، ثم كتاب شهير آخر لجمال الغيطاني هو «حَمَام الحمى، يوميات الحج»، الذي قام على فكرة التأمل نفسها المشتركة بين كثيرين من المتصدين لأدب الحج وثقافة الاتصال بأماكنه ومناسكه.

وفكرة التأمل هذه هناك من يرى أنها تعيد تأهيل المثقف الحاج، بصورة ما، في زماننا الحديث الشديد الاضطراب .وذلك من جانب أنها تعيده إلى شيء من نفسه التائهة أو مألوفه الديني والاجتماعي المغيب بفعل الحالة الثقافية السائدة، فيكون في حالة امتزاج مع النص الذي يكتبه كحاج على صورة مغايرة لتلك التي تعود أن يكون عليها عند كتابة أي نص أدبي أو شعري آخر. أي أن حالة توازن تحدث عنده أثناء حجه وبعد عودته من الديار المقدسة.

وما دمت قد خرجت كل هذا الخروج عن موضوعي الأصلي وهو أدب الحج، بحثاً عن تحليل مناسب لمتغيرات هذا الأدب في زماننا وانتقاله من فكرة الوصف والرصد في قديمه الكثير إلى فكرة التأمل في جديده القليل، فلربما يكون لدي سبب لدعوة من تصدوا لهذا الأدب، قديمه وحديثه، لأن يمدوننا بما توافر لديهم من الرؤى والنتائج والخلاصات لعلنا نخرج بموضوع متكامل يتحقق فيه شرطا الجدة والرصانة ليمكن تعميم الفائدة حول هذا الموضوع.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

من «قاضي عنيزة»

استلمت العدد الأخير من مجلتكم الغرّاء والذي يحمل الرقم الخامس من المجلد 54 لشهري سبتمبر وأكتوبر لعام 2005م وقد تصفحته وسررت بما تضمنه من مواضيع ثقافية وأدبية واجتماعية مفيدة لكل من اطلع عليها.
وقد رجعت بي الذكريات إلى العام 1372هـ عندما صدر أول عدد من تلكم المجلة الحافلة «القافلة»، وزودتني إدارة المجلة بعدد رسمي يأتي إليّ في البريد على عنواني «قاضي عنيزة» واستمرت تأتي إليّ بانتظام حتى بعد أن انتقلت إلى دار الإفتاء بالرياض ثم إلى هيئة التمييز ثم إلى مجلس القضاء الأعلى، وأنا أتابعها في كل عدد، وأستفيد منها ومن في مجلسنا من الأساتذة والطلاب طيلة 54 سنة، فما أزال دارة المجلة وفاءها ومواصلتها واستمرارها بشكل منتظم.

عبدالله بن عبدالعزيز العقيل
رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقاً

الزيتون والزراعة

اطلعت على عدد يوليو/أغسطس 2005م من «القافلة»، وكان ملف العدد عن الزيتون. وإذ أشكركم على اهتمامكم وإعادة نشر جزء من مقالي عن الزيتون ومطالبتي المسؤولين في وزارة الزراعة بإقامة مركز خاص لأبحاث الزيتون. عليه، فقد سبق وأن أرسلت لكم نسخة من كتابي الموسوم «النحل ونباتات العسل في المملكة العربية السعودية». وتلقيت جواب الرد في 21 مايو 2001م حينذاك. ولذا أتقدم بالشكر والعرفان لما تبذلونه في مجلتكم من إشباع نهم القارئ العاشق لمجلة «القافلة».
وفي الختام أود إحاطتكم علماً بأنني على أتم الاستعداد للتعاون معكم في مجموعة مواضيع تختص بالشأن الزراعي، متمنياً لكم دائماً التوفيق والسداد.

ناصر بن إبراهيم الغصن
جامعة الملك سعود - الرياض

القافلة: نرحب بك صديقاً، ولكي يكون التعاون مثمراً نرجو أن يتم التنسيق مسبقاً بشأن المواضيع المقترحة.

من الأستاذ إلى التلامذة

ليس بوسعي أن أنتقي لغة تناسب احتفائي بمجلتكم على الصعيد الإعلامي والعلمي وعلى كافة المستويات. فلقد جاءت ثمرة جهودكم كماء نهر زلال ليروينا من منابع العلوم الصافية.
ولا أخفي عليكم أنني استفدت من إصداركم في حياتي العملية الذي أثرى مكتبتي، بل إن سعادتي لا توصف عندما أهدي طلابي نسخاً منها أو أفتح لهم أبواب مكتبتي الصغيرة ليتذوقوا ثمار العلوم. وإنني ألتمس منكم أن تمنحوني وسام الشرف بأن أكون شرياناً بين قلب مجلتكم النابض وبين عقولهم المتوقدة من خلال إدراج اسمي من ضمن الاشتراكات المجانية وجزاكم الله خيراً.

ضيف الله صالح الظاهري
مدرسة طارق بن زياد - الخرج

القافلة: تعتز القافلة بأن تلقى مثل هذا الصدى عند المدرسين والطلاب، وقد تم إضافة المدرسة كمشترك بعدد كاف من النسخ لتصبح في متناولِ الجميع.

إلى مزيد من التطور

تسلمت هذا اليوم هديتكم، المجلد 53 من مجلة القافلة لعام 2004م مصحوبة برسالتكم المؤرخة في 5 رمضان 1426هـ الموافق 8 أكتوبر 2005م، ولا يسعني إلا أن أشكر لكم هذه البادرة الكريمة. وإن دل على شيء فإنما يدل على أصالتكم وسمو خلقكم. أرجو من الله العزيز الكريم، أن يوفقكم لما يحبه ويرضاه وأن يأخذ بيدكم إلى تقدم هذه المجلة للمستوى الراقي الذي تتطلع إليه كل نفس تواقة إلى التقدم الفكري والفني. ومما لا شك فيه أن المجلة قد خرجت عن الأسلوب التقليدي الذي عايشته فترة طويلة من الزمن، ولعلنا نرى المزيد من التطور في السنين القادمة -إن شاء الله- شكلاً ومضموناً.

عبدالله بن حسين الغامدي
رئيس تحرير القافلة سابقاً

لمكتبة البلدة

تسعد إدارة مكتبة الإرشاد الخيرية بإفادتكم أنها افتتحت مكتبة إسلامية في سايند مارودو في منطقة شرق سريلانكا، وذلك نظراً لحاجات المسلمين البالغ عددهم أربعين ألف مسلم. وهذه المكتبة تعتبر الأولى من نوعها في هذه المنطقة التي تبذل جهوداً لإنشاء أجيال مثقفة ولتربية أبناء المجتمع تربية سليمة، حتى يواجهوا التحديات الهدامة السائدة، وهي تستضيف المثقفين والمفكرين لإلقاء الدروس والمحاضرات أسبوعياً. وإننا في حاجة ماسة إلى مجلتكم «القافلة» لرفع مستوى مكتبتنا ولتأهيل القرّاء الوافدين إليها. وتقبلوا منّا أجزل التحية والشكر.

محمد أشرف

سريلانكا

القافلة: وفقكم الله في مساعيكم، وستصلكم «القافلة» بانتظام، إن شاء الله.

المنفعة بلا حدود

تتوجه إدارة مركز دار الأرقم الإسلامي بكاغوما - أوغندا، بأطيب تحياتها إلى هيئة تحرير «القافلة» ودوريات أرامكو السعودية. فقد اكتشف أحد أعضاء لجنة متابعة البحوث العلمية في المركز مجلة القافلة صدفة خلال زيارة أحد المكاتب الإسلامية في العاصمة كمبالا، واطلعنا عليها، ووجدنا فيها كل المنفعة التي نتوخاها فيما لو تم إرسالها إلى مركزنا مباشرة.

ولهذا، نرجو وضع اسم المركز على قائمة المشتركين.

محمود عبدالصمد كاسيري

كمبالا، أوغندا

القافلة: تم وضع اسم مركزكم على لائحة المشتركين، شاكرين لكم عواطفكم.

سبب العشق

يشرفني ويسرني أن أكون أحد قرّاء مجلة «القافلة»، هذه المجلة العزيزة على ثقافتي وعلمي.

لقد عرفت مجلة «القافلة» منذ أكثر من خمس عشرة سنة مضت، حينها كنت طالباً في الثانوية العامة بالطائف، وكنت وقتها أعشق المجلة. لا أعرف لماذا.

ومضت السنون بعدها وانقطعت عني المجلة لأسباب غير واضحة لي، وما أن رأيتها صدفة بحلتها الجديدة وما تحتويه من مواضيع شيقة وملفات ساخنة متكاملة، وصور زاهية ومتكاملة حتى اعتبرتها في مصاف المجلات العالمية.

وهكذا عرفت سبب العشق!!

حسن طاش نيازي

تلفزيون جدة

بلا أدنى مواعيد ولارغبة

وكان هوانا منسياً
كأعشاب من الفوضى
وأحلام بلا معنى
وأيام بلا أدنى مواعيد
ولا رغبة
وكان هوانا منسياً
كأصداء من الذكرى
نُمنْتِجُها على ورق
ونرشفها
كما القهوة
نجر الليل من ليلٍ
ومن حزنٍ
ومن بهجه
فهل كنا كموج البحر
لاحولَ.. ولاقوه
وهل كنا صباحاتٍ
بلا صبحٍ
بلا شمعة
نرص الحزن جنب الحزن
نقطف صهوةَ اللحظة
أما زلنا صغيرين
نواجه هذه الدنيا
بما نهوى
أما زلنا نواجهها
بلا أدنى مواعيدٍ
ولا رغبة؟

محمود سليمان

مصر

الأصدقاء الجدد

الأخوة: عبدالله جاسم الزوادي، البحرين - محمد عبدالله البلالي، الدمام - فدوى وأنس وسراج عمر كرداوي، مكة المكرمة - عبدالناصر علي الطواش، الخبر - سلطان ابن عمر الحصين، المدينة المنورة - ناصر مبارك الدوسري، الدمام - خاتون الصفار، البحرين - حسين الحسيني، الدمام - علي حسين الموسى، الاحساء - مراد بوخناف، الجزائر - عبدالله بكاري، الجزائر - سامي حسين أحمد، الهفوف - حمي حمو، الجزائر - فهد بن صالح الهليل، الدلم - عبدالله بن محمد البراك، الدلم - عبدالله زقزوق، جدة - عبدالرحمن زقزوق، جدة - عبدالعزيز راشد الزهراني وعبدالرحمن الزهراني وابراهيم يحيى الزهراني وابراهيم عبدالله الحربي وبركة حسن الزهراني، المندق - عايض ابن فهيد، أبها - دل أرام هادي محمد، العراق - بشير بن عبدالله الفريح، جامعة أم القرى - أسامة رشاد الدباغ، أبها - عبدالله سليمان القصابي، سلطنة عمان - سليمان زيتون ابن إبراهيم، الجزائر - بن سعيد سبخة، الجزائر - علي الشاوي، المنيزلة - محمد بلقربيني، الجزائر - سعد عبدالرحمن الدريبي، الأحساء - شفيق المطر، تاروت - علي الحضري، الأحساء - عبدالله محمد يوسف الميمني، المدينة المنورة - أحمد الحجي، الهفوف - مالك ناصر درار، جدة - سعيد محمد الصادق، صفوى - فائز حامد الأحمري، جدة

القافلة: وصلتنا رسائلكم وقد أحلنا عناوينكم إلى قسم الاشتراكات لتصلكم المجلة بانتظام إن شاء الله.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش مواضيع طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قراء القافلة مدعوون للمساهمة في هذه المناقشات على أن تكون كلمات المشاركة ما بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة لذلك.



فأما المشيبُ فصُبحٌ بدا

قرأت للسيد عماد بوخمسين مقالة طريفة في العدد الخامس المجلد 54 من «القافلة» الغرّاء، أورد فيها شواهد شعرية لعدد من الشعراء العرب الذين كانوا بين مرحّب وذامّ للشيب. وأرى أن الموضوع بحاجة إلى إشباع بشواهد أخرى؛ فالقريحة الشعرية العربية متدفقة في هذا الشلال. فهذا أعشى قيس يشق عليه فراق شبابه وغزو الشيب رأسه، يقول:

قليلاً ثم زجرت الصبا
وعاد عليّ عزائي وقارا
فأصبحت لا أقرب الغانيات
مزدجراً عن هواي ازدجارا
وإنّ أخاك الذي تعلمين
لياليْنا إذ نحلّ الجفارا
تبدّل بعد الصبا حكمة
وقنّعهُ الشيب منه خمارا

أما أبو العتاهية، فكان يرجو الله عودة الشباب بعد أن صنع به المشيب ما صنع:

ألا ليتَ الشبابُ يعودُ يوماً
فأخبرهُ بما فعَلَ المشيبُ!

وقد كان البحتري يتمنى لو كان بياض السيف أصابه بدلاً من بياض المشيب:

وددتُ بياض السيف يوم لقينني
مكان بياض الشيب حلّ بعارضي

ويخاطب دعبل الخزاعي محبوبته «سلمى» في هذا البيت الفريد من نوعه في دقّة التعبير:

لا تعجبي يا «سُلْمُ» من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى!

وقال الشعبي: الشيب علة لا يعاد منها ومصيبة لا يعزى عليها.

وقال الفرزدق:

ويقول كيف يميل مثلك للظبا
وعليك من عظَم المشيب عِذارُ
والشيب ينقص في الشباب كأنّهُ
ليلٌ يصيحُ بعارضيهِ نهارُ

وقال أبو دلف في الشيب:

أرى شيبَ الرجال من الغواني
بمبلغ شيبهنَ من الرجال

وقال ابن المعتز

فظللتُ أطلبُ وصلها بتذلّل
والشيبُ يغمزها بأن لا تفعلي

ومر رجل أشمط بامرأة عجيبة في الجمال فقال: ياهذه، إنْ كان لك زوج فبارك الله لك فيه وإلاّ فأعلمينا. فقالت: كأنك تخطبني! فقال: نعم. فقالت: إنّ فيَّ عيباً. قال:وما هو؟ قالت: في رأسي شيب. فثنّى الرجل عنان دابته. فقالت له: على رسلك، فلا والله مابلغتُ عشرين سنة، ولا رأيتُ في رأسي شعرة بيضاء، ولكني أحببت أن أعلمك أني أكره منك مثل ما تكره مني، فأنشد لابن المعتز:

رأين الغواني الشيبَ لاح بمفرقي
فأعرضنَ عني بالخدودِ النواضرِ

وقال آخر:

سألتها قبلةً يوماً وقد نَظَرَت
شيبي، وقد كنت ذا مالٍ وذا نِعَمِ
فأعرضت وتولّت وهي قائلةٌ
لا والذي أوجدَ الأشياءَ من عَدَمِ
ماكان لي في بياض الشيبِ من إرَبِ
أفي الحياة يكونُ القطن حشو فمي؟!

وقال آخر:

قالت أراكَ خضبتَ الشيبَ! قلت لها:
سترته عنك، ياسمعي ويا بَصَري
فقهقهت ثم قالت من تعجّبها:
تكاثرَ الغِشّ حتى صارَ في الشَّعَرِ!

وقال ابن نباته:

تبسُّمُ الشيبُ بوجهِ الفتى
يُوجب سحَّ الدمع من جفنهِ
وكيف لا يبكي على نفسه
من ضَحكِ الشبابِ على ذقنه!

وقال ابن المعتّز:

با
فكيف به والشيب في الرأسِ شامل؟!

وكان المأمون يتمثّل بقول الشاعر:

رأت وضحاء في الرأس مني فراعها
فريقان: مبيّضٌ به وبهيمُ
تفاريق شيب في السواد لوامع
فيا حسن ليل لاح فيه نجومُ

ويقال في الرجل إذا شاب ليله عسعس وصبحه تنفّس:

إذا نازع الشيبُ الشبابَ فاصلتا
بسيفهما، فالشيبُ لاشكّ غالبُ

وقال ابن النقيب:

وكم كان من عين عليَّ وحافظ
وكم كان من واشٍ لها ورقيبِ
فلما بدا شيبي اطمأنّت قلوبهم
ولم يحفظوني، واكتفوا بمشيبي

ومم جاء في الخِضاب قول الشاعر:

ياخاضب الشيب الذي
في كل ثالثةٍ يعودُ
إن الخِضابَ إذا نضا
فكأنّه شيبٌ جديدُ
فدع المشيب وما يريد
فلن يعودَ كما تريد!

وقال محمود الورّاق:

فما منك الشباب ولستَ منه
إذا سامتك لحيتكَ الخِضابا

عبدالجبار محمود السامرائي

بغداد

حول موضوع «أما المشيب فصبح بدا» القافلة عدد سبتمبر-أكتوبر 2005

حول

الهيبة الأسرية كلمة السر: الجدية

قرأت باهتمام شديد موضوع الهيبة الأسرية المنشور في العدد الأخير من «القافلة». وحقيقة الأمر أن هذا المقال وإن لم يقدم الحل لمعضلتنا مع أولادنا، فقد كان حافزاً على التفكير والتأمل في هذه القضية، وأود أن أضيف على ما ورد ما يأتي: قبل سفري إلى كندا حيث أقمت سنة كاملة، كنت أتصور أن علاقة «الصداقة» و«التفاهم» التي تسود البيت الأمريكي هي صورة روجتها ت أذهاننا بصور

العائلات المحطمة، والأولاد المتمردون في المجتمع الغربي. ولكن الواقع غير ذلك. هناك في البيت الغربي توجد هيبة أسرية حقيقية، لاتسلط ولاقهر ولاصفاقة من الأولاد. فالتشدد في ضبط الأولاد كما هو الحال عند الكثيرين منا في البلاد العربية غير موجود. كما أنه ليس هناك دلع ولاتنازل للأولاد إرضاءً لهم أو تلافياً لتعب النقاش معهم. لاقسوة، لاضرب، ولاتنازلات في غير محلها، بل حوار دائم مع الأولاد يدهشنا في صراحته وعمقه. وسلطة بيت لاتتزعزع قبل بلوغ الأبناء سن النضوج ومغادرته. ولو كان علي أن أختصر كل ميزات هذه العلاقة التي تحفظ للأسرة هيبتها في نظر الأولاد، لقلت بكلمة واحدة: الجدية. وأعني بها جدية اليقظة من قبل الأهل، وجدية الحوار، وحمل الأولاد على التفكير في كل شأن من شؤونهم الحياتية.

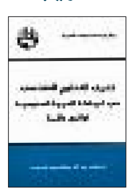
ناريمان ملّا

دمشق

حول موضوع «الهيبة الأسرية» القافلة عدد نوفمبر-ديسمبر 2005

وردنا

• **تعريب التعليم الهندسي في المملكة**



كتاب صادر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بعنوان «تعريب التعليم الهندسي في المملكة العربية السعودية، الواقع والآمال»، للدكتور عبدالله بن إبراهيم المحيدب. يتألف الكتاب من سبعة فصول وخاتمة، ومن أهم نتائجه اقتراح إنشاء مركز وطني لتعريب التعليم الجامعي، إذ أن تعريب التعليم الهندسي يبدو من خلال هذا الكتاب، وخاصة في آراء الأساتذة والطلاب التي جمعها المؤلف، عملية متشعبة الجوانب تحتاج إلى مزيد من الدراسة المتأنية، ووضع الخطط العامة والتفصيلية وتوفير الإمكانيات البشرية والمادية، وبذل الجهد والعمل لفترات متصلة وبصفة دائمة.

• **العمارة والثقافة**



في إطار سلسلة «كتاب الرياض» الذي يصدر شهرياً عن مؤسسة اليمامة الصحفية بالرياض، صدر مؤخراً كتاب «العمارة والثقافة-دراسات نقدية في العمارة العربية». للمعماري السعودي الدكتور مشاري بن عبدالله النعيم. يقع الكتاب في 384 صفحة، ويتكون من مجموعة دراسات متفرقة يجمع بينها خيط واحد، وهو التطلع إلى العمارة في قالبها الثقافي، مع التركيز على نقد العمارة العربية في العمق. ومن أبرز المواضيع التي يتناولها الكتاب نذكر: العمارة والسياسة في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر، ثنائية الثقافة والتاريخ في العمارة الخليجية المعاصرة، والمقاومة الثقافية في البيئة السكنية السعودية.

• **البيئي الصغير**



مجلة دورية تصدر عن إدارة العلاقات العامة في دائرة البلديات والزراعة في بلدية أبوظبي، وتُعنى بالشأن البيئي دون غيره، وتتوجه إلى طفال. واللافت أن المجلة التي تقع في 24 صفحة، يحرر موضوعاتها الأطفال بأنفسهم. فإضافة إلى الرسوم العديدة. تنشر المجلة «المقالات» مكتوبة بخط يد صاحبها على شكل رسائل صغيرة ولطيفة، إضافة إلى احتوائها على بعض أخبار النشاطات البيئية الرسمية الموجهة إلى الأطفال.

• **العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي**



صدر هذا الكتاب مؤخراً في طبعة ثانية عن دار الكتاب الجديد في بيروت، بعد أن كان قد صدر في طبعته الأولى عام 1999م. وهو يتضمن مجموعة أبحاث ندوة سبق أن أعدها مركز البحوث العربية والجمعية العربية لعلم الاجتماع في القاهرة. تكمن أهمية الكتاب الذي يتضمن 430 صفحة في تنوع المواضيع التي يتناولها والمتصلة بشكل أو بآخر بموضوع العولمة، مثل العولمة والنظام الإقليمي العربي، المرأة والاقتصاد والعولمة، العولمة والدولة القومية.. وأيضاً في تعدد أسماء المشاركين في هذه البحوث، وهم: د. حيدر إبراهيم، د. حسين معلوم، د. سمير أمين، د. شريف حتاتة، د. صلاح أبو نار، د. عروس الزبير، د. فهيمة شرف الدين، ماهر الشريف، د. محمد عبدالشفيع، د. محمد محمود الإمام، د. نوال السعداوي، د. نيكولاس هوبكنز، هاني شكرالله، د. ماهر الطاهر، ود. عصام الخفاجي.

مصافي النفط..

أوان التحديـات للحاق بالنمو



بارتفاع أسعار النفط الذي شهده العالم العام الماضي، بـرز الحديث عن مصافي الزيت ومحدودية قدراتها مقارنة مع الطلب العالمي المتنامي، من ضمن أبرز الأسباب التي أدت إلى ارتفاع الأسـعـار. مصافي الزيت وأعمال التكرير، هذه الحلقة التي لا بد منها بين البئر والمستهلك يستعرضها ريك سنيدكر ويتناول إضافة إليها المنشآت القائمة ومشروعات أرامكو السعودية محلياً وعالمياً وشبكة الشراكات التي نسجتها لتطوير وتنمية قطاع التكرير.

مع تنامي الطلب بشدة على المنتجات المكررة بسبب تصاعد معدلات التنمية الصناعية في أنحاء العالم، وخاصة في الدولتين الأكثر تعداداً في العالم وهما الصين والهند، لا تكاد الطاقة التكريرية في العالم أجمع تفي بالطلب.

وحتى لو وجد الزيت الخام والغاز بوفرة من دون أن تكون هناك طاقة تكرير كافية، فسيظل هناك نقص في المنتجات النهائية. وقد بلغت طاقة استغلال المصافي في الوقت الراهن 90 في المئة أو أكثر، ما يعني أنه لا يوجد الكثير مما يمكن التعويل عليه من هذه الناحية. وعليه، فإن طاقة التكرير العالمية تبرز فجأة كموضوع ساخن.

استشراف المستقبل تلافياً للمأزق

في هذا المجال، قال الأستاذ عبدالله صالح جمعة، رئيس أرامكو السعودية وكبير إدارييها التنفيذيين، في كلمة ألقاها قبل فترة أمام مؤتمر جمعية كمبريدج لأبحاث الطاقة بهيوستن، تكساس تحت عنوان «الارتفاع إلى مستوى التحدي: تأمين مستقبل الطاقة»، «إن التحدي أمامنا لا ينتهي بمجرد خروج الزيت من الأرض، فمع أنه يتعين زيادة إنتاج الزيت الخام بحوالي 40 مليون برميل في اليوم على مدى العقدين المقبلين لمواجهة الطلب، يتعين في المقابل التوسع في طاقة التكرير العالمية. وبالنظر إلى طبيعة الكثير من هذه الزيادة الإنتاجية، فإن جزءاً كبيراً من طاقة التكرير يجب أن يصمم بحيث يستوعب الزيت الثقيل وأنواع الزيت المرة مع تزايد الطلب على المنتجات الأخف وتشدد المواصفات الخاصة بهذه المنتجات».

وفي كلمته في شهر مايو، حذر ألن جريسبان، رئيس مجلس إدارة مجلس الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي، قائلاً «إلى جانب المخاوف من نقص الطاقة الإنتاجية للزيت الخام، نجد أن الوضع بالنسبة لطاقة العالم التكريرية يدعو للقلق كذلك».

وفي مقابلة معه مؤخراً، قال معالي الأستاذ علي إبراهيم النعيمي، وزير البترول والثروة المعدنية السعودي إن هناك نقصاً في الطاقة التكريرية العالمية، وأشار إلى أنه ما لم يتم سد هذا النقص، فسوف يستمر الطلب على المنتجات المكررة يمثل ضغطاً باتجاه زيادة أسعار الزيت.

أما الأستاذ خالد جاسم البوعينين، نائب رئيس أرامكو السعودية للتكرير فقال في كلمة له أمام مؤتمر التكرير المنعقد في دبي بدولة الإمارات المتحدة في شهر إبريل «إنه لو تحققت جميع المشروعات المعلنة لزيادة الطاقة التكريرية مع استمرار الطلب على الزيت في الارتفاع بمعدل 2 في المئة سنوياً، كما هو متوقع، فسوف نشهد نقصاً في الطاقة التكريرية يقدر بنحو 10 ملايين برميل



المحترف السعودي - ع.ص

في اليوم بحلول عام 2015م. وسوف يتم تعويض هذا النقص جزئياً من خلال زيادة إنتاج الزيوت الثقيلة والمرة، ولكن سيكون على مرافق التكرير الجديدة استيعاب هذه الأنواع من الزيت».

ومع أن المملكة العربية السعودية ودولاً أخرى تقوم ببناء المزيد من المصافي، فسوف يستغرق الأمر سنوات لزيادة الطاقة التكريرية الحالية، كما سيحتاج وقتاً أطول لبناء مصافٍ جديدة. وعليه يتوقع المسؤولون والمحللون في أوبك أن يؤدي نقص الطاقة التكريرية إلى مواصلة ارتفاع أسعار المنتجات حتى عام 2008م على أقل تقدير.

ويؤكد الأستاذ عبدالله جمعة «إن موقع المصافي المستقبلية سيكون بأهمية مواصفاتها، فحتى اليوم، كان بناء المصافي يتم بصورة أساسية في الدول المستهلكة، وإن كنت أعتقد أننا سنشهد بناء بعض المصافي الجديدة في الدول المنتجة. ويعود ذلك إلى حد ما إلى القيود المفروضة على الترخيص بإنشاء مصافٍ جديدة أو توسعة المصافي القديمة في الدول المستهلكة. غير أن زيادة المصافي في الدول المنتجة سوف يدفع إليه بصورة أساسية قرب هذه المصافي من احتياطات الزيت، والمرونة التي تأتي من تصدير المنتجات إلى أسواق عديدة من موقع مركزي، والرغبة في إضافة القيمة إلى إمدادات الزيت قبل تصديرها. كما أن مثل هذه المصافي والمجمّعات التصنيعية الكبيرة المندمجة مع المصافي ومرافق البتروكيميائيات والصناعات التحويلية وصناعة الخدمات تسهم أيضاً في دعم وتنويع الاقتصاديات مع دعم الزيادة في الوظائف.

وانطلاقاً من التزامها الطويل بعمل كل ما هو ممكن للمساعدة في توافر كميات كافية من إمدادات المنتجات الهيدروكربونية للعالم، لا تألو أرامكو السعودية جهداً في السعي إلى ضمان كفاية الطاقة التكريرية لإنتاج المنتجات النهائية القيمة التي يحتاج إليها الاقتصاد العالمي. ولذا، فقد بدأت الشركة برنامجاً شاملاً وطموحاً لزيادة الطاقة التكريرية داخل البلاد وخارجها. ويشمل البرنامج إنشاء مصافٍ جديد وتوسعة المصافي القائمة في المملكة مع الاستثمار في امتلاك حصص جديدة في مصافي ومرافق تكرير في الخارج، والدخول في مشروعات مشتركة جديدة في مجال التكرير، وخاصة في آسيا».

المشروعات المخططة

وفيما يلي موجز بالمشروعات التي تخطط لها الشركة في مجال التكرير، بدءاً بما هو محلي منها:

- **مصفاة رابغ:** وقّعت أرامكو السعودية مذكرة تفاهم مع سوميتومو كيمكال كومباني اليابانية لتحويل مصفاة القطف الحالية في رابغ على ساحل البحر الأحمر إلى مصفاة متكاملة للزيت الخام ومجمع للبتروكيميائيات. وسوف يتم من خلال المشروع تحويل المصفاة الحالية إلى مصفاة للتجزئة بطاقة 400 ألف برميل في اليوم، قادرة على إنتاج الأوليفينات بطاقة قدرها 2.2 مليون طن سنوياً تقريباً. وقد بدئت الأعمال الأولية لتنفيذ المشروع بالكامل.
- **مصفاة ينبع الثانية:** تخطط الشركة لإنشاء مصفاة تصديرية جديدة في ينبع بطاقة قدرها 400 ألف برميل في اليوم. وتبحث الشركة عن مستثمرين لإقامة المشروع الذي يهدف إلى تزويد الأسواق الرئيسة في الولايات المتحدة وأوروبا والشرق الأقصى بمنتجات عالية الجودة.
- **دمج معمل التكرير في رأس تنورة مع معمل الغاز في الجعيمة:** تدرس الشركة الجدوى الاقتصادية لدمج وحدات وخطوط إنتاج مختلفة من معمل التكرير في رأس تنورة ومعمل الغاز في الجعيمة، وكلاهما في المنطقة الشرقية، لإنشاء مصفاة متكاملة ومجمع للبتروكيميائيات. وتجري الدراسات حالياً لتحديد أفضل المواصفات.



أرامكو السعودية

مصفاة رأس تنورة: 550 ألف برميل يوميا

المشروعات الدولية

• **مشروع فوجيان في الصين:** تدخل أرامكو السعودية في مشروع مشترك مع إكسون موبيل وتشينا بتروليم آند كيمكال كوربوريشن (سينوبك)، وحكومة مقاطعة فوجيان لتوسعة المصفاة الحالية وإنشاء مجمع متكامل للبتروكيميائيات. وقد تم توقيع عقد الأعمال الأولية للمشروع الذي يهدف إلى زيادة الطاقة التكريرية للمصفاة الحالية من 80 ألف برميل في اليوم إلى 240 ألف برميل في اليوم مع تحسين جودة المنتجات.

• **مشروع مقاطعة قينقداو في الصين:** تجري أرامكو السعودية مباحثات للمشاركة في إنشاء مصفاة تحويلية جديدة في هذه المقاطعة.

قوة الاقتصاد العالمي وتباطؤ إنشاء مصافٍ جديدة ساعدا على زيادة أرباح التكرير بشكل عام

إلى ذلك، تدرس أرامكو السعودية إمكانية الدخول في مشروعات مشتركة مع الهند لإنشاء مصافٍ جديدة، مع إمكانية الاستثمار لإقامة مرافق تخزين تجارية للزيت الخام في الهند. كما تدرس أرامكو السعودية إمكانية زيادة الطاقة التكريرية في الولايات المتحدة من أجل تخفيف اختناقات الطاقة التكريرية في هذا البلد. وتملك أرامكو السعودية حالياً حصصاً جزئية أو كاملة في العديد من المصافي المحلية والدولية القائمة تبلغ طاقتها التكريرية الإجمالية نحو 4.2 مليون برميل في اليوم.

المشروعات المشتركة الدولية

• **إس- أويل:** في كوريا الجنوبية وهو مشروع مشترك بنسبة 28 في المئة لكوريا الجنوبية، و35 في المئة لأرامكو السعودية و37 في المئة للجمهور، وتبلغ طاقتها التكريرية 565 ألف برميل في اليوم.

• **بترون في الفلبين:** شركة الزيت الوطنية الفلبينية، وهي مملوكة لحكومة الفلبين بنسبة 40 في المئة، ولأرامكو السعودية بنسبة 40 في المئة، ولمستثمرين آخرين بنسبة 20 في المئة، وتبلغ طاقتها التكريرية 180 ألف برميل في اليوم.

• **موتور أويل (هيلاس):** وهو مشروع مشترك بين عائلة رئيس مجلس الإدارة فارديس فاردينويانيس اليونانية بنسبة 58.1 في المئة، وأرامكو السعودية بنسبة 41.9 في المئة، وتبلغ طاقتها التكريرية 100 ألف برميل في اليوم.

• **موتيفا إنتربرايزز ل.ل.سي:** وهو مشروع مشترك بين شل الأمريكية وشركة التكرير السعودية بنسبة 50 في المئة لكل منهما، وتبلغ طاقتها التكريرية 725 ألف برميل في اليوم.

• **شوا شل سكيو ك. ك:** وهو مشروع مشترك بين مساهمين يابانيين عديدين، وتبلغ حصة أرامكو فيها 9.96 في المئة، مع إمكانية زيادة هذه الحصة، وتبلغ طاقتها التكريرية 515 ألف برميل في اليوم.

المشروعات المشتركة المحلية

• **شركة مصفاة أرامكو السعودية موبيل المحدودة (سامرف) في ينبع:** وهو مشروع مشترك بين أرامكو السعودية وإكسون موبيل بنسبة 50 في المئة لكل منهما، وتبلغ طاقتها التكريرية 400 ألف برميل في اليوم.

• **شركة مصفاة أرامكو السعودية شل المحدودة (ساسرف) في الجبيل:** وهو مشروع مشترك بين أرامكو السعودية وشل بنسبة 50 في المئة لكل منهما، وتبلغ طاقتها التكريرية 320 ألف برميل في اليوم.

حصص الملكية لأرامكو السعودية في المصافي المحلية:

• **معمل التكرير في رأس تنورة:** مملوك بالكامل لأرامكو السعودية، وتبلغ طاقته التكريرية 550 ألف برميل في اليوم.

• **مصفاة الرياض:** مملوكة بالكامل لأرامكو السعودية، وتبلغ طاقتها التكريرية 120 ألف برميل في اليوم.

• **مصفاة رابغ:** مملوكة بالكامل لأرامكو السعودية، وتبلغ طاقتها التكريرية 400 ألف برميل في اليوم.

• **مصفاة جدة:** مملوكة لأرامكو السعودية بنسبة 75 في المئة، وتبلغ طاقتها التكريرية 85 ألف برميل في اليوم.

• **مصفاة ينبع:** امتلكتها أرامكو السعودية بالكامل من الشركة العربية السعودية للتسويق والتكرير (سمارك)، وتبلغ طاقتها التكريرية 235 ألف برميل في اليوم.

كما تمتلك أرامكو السعودية مصفاتين لزيوت التشحيم في المملكة العربية السعودية، وهما:

• **شركة أرامكو السعودية لتكرير زيوت التشحيم (لوبريف):** وقد أنشئت في عام 1968م كمشروع مشترك بين بترومين، المؤسسة العربية السعودية للبترول والمعادن، بنسبة 70 في المئة وإكسون (حالياً إكسون موبيل) بنسبة 30 في المئة. وقد امتلكت أرامكو السعودية حصة بترومين في عام 1996م. وتعالج لوبريف - 1 الواقعة بجانب مصفاة جدة، 1.8 مليون برميل في اليوم من الزيت الخام وتنتج أربعة أنواع من زيوت الأساس من لقيم زيت الوقود القادم من مصفاة جدة حيث يتم مزجه وتحويله إلى زيوت تشحيم. كما أنشئت لوبريف - 2 في ينبع عام 1997م، ويمكنها معالجة مليوني برميل في اليوم، وهي تكتفي ذاتياً من زيوت الأساس.

• **الشركة العربية السعودية لزيوت التشحيم (بترولوب):** أنشئت في عام 1968م كمشروع مشترك بين بترومين بنسبة 71 في المئة وإكسون بنسبة 29 في المئة. وقد امتلكت أرامكو السعودية حصة بترومين في وقت لاحق. وتنتج بترولوب 130 نوعاً من زيوت التشحيم ولديها معامل مزج في جدة والرياض والجبيل بطاقة إجمالية قدرها 6 ملايين برميل في اليوم. كما تملك مصنعاً لتصنيع الشحوم في الجبيل.

وقت التحديات الكبرى

وقد صرح نائب الرئيس للتكرير في أرامكو السعودية، الأستاذ خالد البوعينين في مؤتمر دبي قائلاً «إننا نعيش وقت التحديات الكبرى في صناعة التكرير، ونحن عازمون على مواجهة هذه التحديات. وندعو المستثمرين على الصعيدين الدولي والمحلي للانضمام إلينا في هذه المرحلة، حيث الفرص الواعدة التي تعود بالنفع على الجميع».

وأضاف البوعينين «إن قوة الاقتصاد العالمي وتباطؤ إنشاء مصافٍ جديدة أدَّيا إلى استهلاك الطاقة الاحتياطية الحالية بشكل كبير، وإلى زيادة معدلات الاستهلاك إلى مستويات تربو على 90 في المئة مما ساعد على زيادة أرباح التكرير بشكل عام. كما أن الأنظمة البيئية العالمية الأكثر تشدداً ستكون أحد العوامل الرئيسة في تشكيل صناعة التكرير. ومع توقع المزيد من هذه الأنظمة في المستقبل، يتوقع أن تطرأ تغييرات في أنماط الإنتاج، وقد لا يكون بوسع بعض المنتجين التقليديين توفير الجودة المطلوبة. ونتيجة لذلك ستنكمش الحصة السوقية لشركات المصافي المصدرة إذا لم تقم ببذل الاستثمارات المطلوبة في هذا المجال».

ويتوقع البوعينين أن يزيد الطلب على الوقود في المملكة بنحو 10 في المئة سنوياً في السنوات الخمس القادمة، ليتعدى بذلك حاجز الأربعة ملايين برميل في اليوم في عام 2010م. وسيكون الدافعان الرئيسان لهذا النمو هما التوسع المستمر في صناعة البتروكيميائيات والكثافة السكانية المتزايدة. لذلك ستظل أعمال التكرير جزءً من الاستراتيجية الشاملة لأرامكو السعودية. وتخطط أرامكو السعودية لإجراء تغييرات كبرى في مرافقها الحالية للوفاء بالطلب المحلي وإنتاج منتجات أنظف تتماشى مع القوانين البيئية الأكثر تشدداً في المملكة والخارج. وذكر البوعينين أن التركيز سينصب على الحصول على قيمة أكبر من الأصول الحالية، وذلك عن طريق زيادة القدرة الإنتاجية للمرافق التحويلية ذات

عمل المصافي ومهمتها

صالح با جحلان وصلاح المقيم*

تعمل المصافي بشكل رئيس على تحويل النفط إلى منتجات أخرى متنوعة، إذ تفرز معامل التكرير الزيت إلى مجموعات، أو مكونات مختلفة من الهيدروكربونات. ثم تغير المكونات كيميائياً، حيث تعالج بمواد أخرى إضافية. ويمكن القول إن البحث في طرق وكيفية تكرير هذا النفط ما زال مستمراً، فما زال باب المعرفة والبحث والاختراع مفتوحاً على مصراعيه للوصول إلى أكبر قدر ممكن من الاستفادة منه في تكرير الذهب الأسود.

أقدم مصفاة للزيت الخام

يعود الفضل في استكشاف عملية فرز الغاز من الزيت إلى العالم الكيميائي الإنجليزي «جيمس يونق» الذي قام عام 1850م بأول عملية فرز بتسخين الفحم إلى درجة معينة في وعاء مغلق ليحصل على أول إنتاج من الزيت. وفي عام 1859م استطاع الأمريكي «صموئيل كير» بناء برج تقطير (فرز) بطاقة خمسة براميل من الزيت الخام، والذي يعد بمثابة أول مصفاة بترولية في العالم. وقد تمت المحافظة على هذه المصفاة إلى اليوم ونقلت إلى صالة عرض عالمية. ثم توالت مراحل تطور تكرير البترول عبر ثلاث مراحل أساسية هي: الفرز، ثم التحويل، ثم المعالجة الكيميائية.

* مهندسا تشغيل في مصفاة رأس تنورة

المرحلة الأولى: فرز مكونات الزيت الخام

يعد الفرز أول مرحلة في تكرير الزيت حيث يتم في البداية إجراء التقطير الجزئي له، وهو عملية فرز الزيت الخام إلى بعض مكوناته. ويمكن فرز مواد إضافية من هذه المكونات لاحقاً. ويعتمد التقطير الجزئي على مبدأ تبخير المكونات المختلفة للزيت عند درجات حرارة مختلفة. فيتبخر البنزين مثلا عند نحو 50 درجة مئوية، بينما تتبخر بعض أنواع الزيت الأخرى كزيوت الوقود الثقيلة عند درجات غليان أعلى من 400 درجة مئوية. كما تتكثف مثل هذه المكونات وهي أبخرة، عند درجات حرارة مختلفة، حتى تبرد وتصبح سائلة. ويضخ الزيت في برج التقطير الجزئي من المعمل عبر أنابيب داخل فرن ليسخن إلى درجات حرارة قد تبلغ 400 درجة مئوية. بعد ذلك، يدخل الخليط الناتج والمكونات من غازات وسوائل حارة في أسطوانة فولاذية رأسية تدعى برج أو عمود التجزئة. وأثناء صعود المكونات المبخرة داخل البرج تتكثف عند ارتفاعات مختلفة. فتتكثف زيوت الوقود الثقيلة في القسم السفلي من البرج، بينما تتكثف المكونات الخفيفة كالبنزين والكيروسين في الأقسام الوسطى والعليا. وتتجمع السوائل في أماكن خاصة داخل البرج ومن ثم تنساب إلى الخارج عبر أنابيب على جوانب البرج. ولا تبرد بعض المنتجات بصورة كافية. لذا تمر عبر قمة برج التجزئة إلى وحدة استرداد الأبخرة. وبالمقابل، تبقى منتجات أخرى أسفل البرج، تتبخر عند درجات حرارة أعلى من تلك التي في الفرن. وتسترد هذه البقايا من قاع البرج وتكرر إلى منتجات مثل الأسفلت وزيوت التشحيم. والجدير بالذكر أن جميع هذه المكونات

القيمة المضافة العالية وزيادة طاقة التقطير وتطبيق تقنيات متقدمة وتحسين أداء الوسائط الكيميائية ودمج المصافي مع المرافق القريبة منها. كما يمتد التركيز على المدى البعيد إلى قطاعي التكرير والتسويق. فعلى سبيل المثال، تتوقع الشركة أن يكون مشروع توسعة رابغ نواة لمنطقة صناعية جديدة تجذب الصناعات التحويلية البتروكيميائية ذات القيمة المضافة للتكرير والتسويق. كما يزداد زخم الفرص الاستثمارية مع وجود خارطة طريق شاملة للتوسع. وبالإضافة إلى المشروعات الرئيسة، فإن البنية التحتية المرتبطة بالمتطلبات المتعلقة بهذه المشروعات كتوليد الكهرباء وتوافر الخدمات ومد خطوط الأنابيب تمثل أيضاً فرصاً استثمارية مربحة للمستثمرين.

> **لدى كثير من الدول المنتجة إمكانيات تكرير وتسويق عالية، إلا أنه بإمكانها الاستفادة من الشراكات في أنشطة عديدة**

وقد أبدى الأستاذ عبدالله جمعة تفاؤله إزاء إمكانيات التكرير والتسويق حيث أعرب عن اعتقاده بأن الطريقة الجديدة للتكرير والتسويق تمثل فرصة جديدة للمستثمرين الدوليين الراغبين في إعادة النظر في نماذج استثماراتهم وتوحيدها بشكل أفضل مع حاجات البلاد المضيفة. فلدى كثير من الدول المنتجة إمكانيات تكرير وتسويق عالية إلا أنه بإمكانها الاستفادة من عمل شراكات في أنشطة التكرير والتسويق وفي قطاعات الهندسة والتقنية وفي بعض مجالات الخدمات.

كما ذكر أن الاستثمار الدولي في المملكة قد عاد بالفائدة على المملكة العربية السعودية وعلى الشركاء المستثمرين، وأن للتعاون المتبادل وجهين مشرقين، مشيراً إلى أهمية المشروعات المشتركة في مجال التكرير والتسويق في الولايات المتحدة وأوروبا وآسيا وفي منطقة المحيط الهادي. كما أعرب عن تطلعه إلى توطيد العلاقات مع القطاع البترولي في كل من الهند والصين والمساعدة في تلبية احتياجات الطاقة المتزايدة في أسواقهما.



تقريباً الناتجة عن التقطير التجزيئي يجب أن تخضع إلى التحويل والمعالجة الكيميائية قبل استخدامها لتطابق المواصفات العالمية.

المرحلة الثانية: تحويل المكونات الثقيلة إلى مكونات أقل كثافة وأكثر فائدة

وعلى الرغم من أن إمكانية تكرير كل النفط تقريباً إلى منتجات مفيدة، إلا أن لبعض المكونات قيمة أكبر من بعضها الآخر. ويشكل البترول، الذي يشمل مختلف أشكال الوقود كالبنزين والديزل والكيروسين وغير ذلك، نصف المنتجات النفطية المستخدمة في معظم البلدان تقريباً، ويمثل نحو 50 في المئة من المنتجات الخارجة من عمود التجزئة. أما النصف الآخر المتبقي من عمود التجزئة وهو عبارة عن مكونات نفطية قليلة الطلب والقيمة، فتخضع إلى عمليات كيميائية لتحويلها إلى منتجات أخرى ذات فائدة اقتصادية، وتندرج هذه الطرق تحت مجموعتين رئيستين، هما: عمليات التكسير والدمج. ونتيجة لهاتين العمليتين يمكن إنتاج 25 في المئة من المنتجات عالية القيمة من النصف المتبقي، وبذلك يمكن القول إن كل برميل من الزيت الخام ينتج 75 في المئة من المواد عالية القيمة.

التكسير إحدى طرق التحويل

تحول عمليات التكسير المكونات الثقيلة للزيت الخام إلى منتجات أقل كثافة، مثل البنزين بصورة رئيسة، وذلك بعد خروجها من برج التجزئة. ولا تزيد هذه العمليات كمية البنزين الناتج من الزيت فحسب، وإنما تحسن نوعيته أيضاً. فالبنزين الخارج من برج التجزئة والمعالج بعد ذلك بالتكسير يحتوي على عدد «أوكتان» أكبر من البنزين المكتفى بمعالجته في برج التجزئة فقط. و «عدد الأوكتان» هو مقياس لمدى سلاسة احتراق الوقود داخل المحرك.

إنتاج البوليمرات لاستخدامها في مصانع البلاستيك ووقود الطيران والعطريات

تخضع الغازات الناتجة عن عملية تقطير الزيت الخام في عمود التجزئة إلى عملية تكثيف وضغط وإضافة بعض المواد الكيميائية إليها، لإنتاج البوليمرات التي تستخدم في صناعة البلاستيك. كما يتم من خلال تكثيف الغازات مع خلطها بمواد كيميائية محفزة إنتاج أنواع الوقود عالية الأوكتان إضافة إلى العطريات، وهي مواد كيميائية تستخدم في إنتاج المطاط الصناعي، وحافظات الطعام، ومنتجات أخرى كثيرة.

المرحلة الثالثة: إزالة الكبريت وتحسين مواصفات زيوت التشحيم

تعالج جميع المنتجات تقريباً كيميائياً قبل أن ترسل إلى المستهلكين. كما يعالج كثير من المنتجات لإزالة الشوائب. وأكثر الشوائب شيوعاً هي مركبات الكبريت التي تلحق الضرر بالمعدات وتلوث الهواء عند حرقها. والمعالجة بالهيدروجين طريقة شائعة الاستعمال لإزالة مركبات الكبريت، حيث تخلط المكونات بالهيدروجين، وتسخن ثم تعرّض لعامل محفز، حيث يتحد الكبريت بالهيدروجين مكوناً كبريتيد الهيدروجين. ويُزال كبريتيد الهيدروجين بتحويله إلى الكبريت السائل. ويتحسن أداء بعض الأجزاء عند مزجها أو دمجها مع مواد أخرى. فتمزج المصافي مثلاً زيوت تشحيم متنوعة للحصول على درجات مختلفة من اللزوجة. ويُمزج البترول بكيميائيات تُدعى المضافات تساعده على الاحتراق بسلاسة أكثر، كما تعطيه مواصفات خاصة أخرى يراعى فيها المقاييس الدولية.

أرامكو السعودية

الطيران في تحوّلات أسواقه الكبرى..

مفارج النجـاة من.. الإفـــــلاس

لماذا تلجأ اليوم بعض شركات الطيران الكبرى إلى قانون الإفلاس لإعادة ترتيب أوضاعها؟ ولماذا تضطر شركات أخرى إلى التصفية وإعادة تشكيل نفسها كما فعلت البلجيكية والسويسرية، فيما تنتظر اليوم اليونانية قراراً حكومياً بشأن مصيرها؟ أي بكلام آخر، ماذا يجري لقطاع الطيران ضمن أكبر سوقين عالميين، الأمريكي والأوروبي، وربما في غيرها أيضاً. «القافلة» تلقي الضوء على حال القطاع في أسواق لها تأثيرات أوسع وأبعد.

لا يفوت المتابع لأحوال شركات الطيران في السوقين الأمريكي والأوروبي في السنوات الأخيرة أنه نادراً ما تنقل الصحف الاقتصادية أخباراً مشجعة. فمسيرة تعافي القطاع منذ عام 2001م تبدو ثقيلة في الولايات المتحدة.

إذ أن أربعاً من أصل ست شركات رئيسة لا تزال في حماية قانون الإفلاس لإعادة ترتيب أوضاعها. والتحسن في موجودات الشركات في الفترة الأخيرة، حسب مجلة «بيزنس نيوز» الأمريكية، «لا يعني أن الأسوأ قد انتهى». فقد قدرت جمعية النقل الجوي الأمريكية خسائر الشركات بـ 32.1 مليار دولار للفترة ما بين 2001 و 2004م وتتوقع لها أن تكون بحدود 10 مليارات دولار هذه السنة مع ارتفاع أسعار النفط. ويدور كلام حول أن الزيادة في عدد الركاب التي تحصل لا تترجم إلى إيرادات بسبب تنافسية الأسعار. وفي أوروبا نسمع أكثر عن المتاعب المالية لبعض الشركات المتوسطة، مثل «أليتاليا» و «أولمبيك إيرويز»، وقبلها «سويس إير» و «سابينا»، مما نسمع عن أرباح الشركات الأخرى.

يربط المحلّلون هذا الوضع بتحديّات تفرضها المنافسة بالنسبة للشركات التقليدية في أسواق عرفت تحولات مهمة مع إلغاء الأنظمة التي تحكمت بقطاع الطيران. لقد قضت المنافسة في وقت سابق على شركات الطيران الخارجي المعروفة مثل «بان ام» و «تي دبليو إي» لصالح هيمنة ست شركات طيران داخلي، أخذت الأسواق العالمية من الشركات المندثرة وربطتها بشبكة مواصلاتها الداخلية. هذه الشركات الرئيسة، التي ولدت في ظل حماية الأنظمة السابقة في مستوى خدماتها المتقدم وتشعّب طرقاتها وأجور عامليها ونقاباتهم القوية، تجد أسواقها الداخلية تضيق نسبياً مع نمو شركات «الكلفة المنخفضة» التي باتت تحتل 30 في المئة من السوق.

التحدي الذي رافق هذه التحولات بالنسبة للشركات وحكوماتها هو كيفية المحافظة على صحّة الطيران كقطاع استراتيجي. وفي إطار هذا التحدّي تطورت أنماط عمل للشركات التقليدية، وهي ترسو اليوم على معالم باتت نسبياً واضحة في تحالفات نشأت بين الشركات التقليدية الكبرى على جانبي الأطلسي وما بعده. هذه «العولمة» للمواصلات الجوية تؤسس لشبكات مواصلات متشعبة وواسعة وتقود في طريقها القطاع إلى التركز.

إلغاء الأنظمة وبقاء السياسات

الطيران، كاي قطاع مواصلات، يصنّف كمنفعة عامة، ولذلك خضع منذ نشوئه الفعلي لأنظمة صارمة تحت إشراف هيئة طيران مدني، تتحكم بطريقة عمله وبتسعيره وبنيته. هذا الوضع عرف تغييراً أساسياً في منعطفين.

الأول في عام 1978م حين تم إقرار قانون في الولايات المتحدة بإلغاء جميع الأنظمة، باستثناء تلك المتعلقة بسلامة الطيران، وفتح القطاع على حرية السوق الداخلي كأي قطاع أعمال آخر. والثاني في عام 1997م، حين استكملت الوحدة الأوروبية التحوّل نفسه وسمحت لأية شركة أوروبية بحرية الحركة من أي بلد أوروبي آخر.

هذا التغيير حصل في ظل أوضاع متمايزة وسياسات حكومية مختلفة، أسهمت إلى جانب السوق في رسم معالم البيئة الجديدة والمتحولة. السياسة الأمريكية أملتها مصالح شركاتها واندفاعها. والوحدة الأوروبية أصبحت بعد عام 1997م قادرة على فرض قانون المنافسة الأوروبية، ومنع الحكومات من تقديم دعم مالي لشركاتها. ولأن المواصلات الجوية هي صناعة ذات أهمية استراتيجية، يقول تقرير أوروبي مشترك إن جميع الحكومات حريصة على الحفاظ على مستويات الخدمات الجوية ووضع صناعاتها الوطنية في وضع صحّي قوي. خدمت الحكومات شركاتها بطرق مختلفة. وفي بريطانيا، لم تؤد خصخصة «بريتش إيرويز» في 1987م إلى إلغاء كامل للأنظمة، بل جرى إدخال أنظمة جديدة لدعم مواقع الشركة في مطارات لندن الرئيسة ومناطق أخرى، دافعة الشركات الجديدة المنخفضة التكاليف إلى استخدام مطارات فرعية نائية. وفي ألمانيا، جرى تفادي وقوع شركة «لوفتانزا» في أيدٍ أجنبية، وتم العمل عند بيع الحصة المتبقية للحكومة (35.7 في المئة) في البورصة عام 1997م إلى جعل النسبة الأكبر من الشركة (51 في المئة) في حيازة مستثمرين صغار وأفراد عبر التحكم بمبيعات الأسهم. وأبقت الحكومة الفرنسية على حصتها الأكبر من «إير فرانس» (ولو أنها تقلصت إلى 44 في المئة ضمن اتفاق الاندماج مع «ك ل م»).

مصاعب الطيران في أوروبا هي أكثر لدى الشركات الوسطى، التي احتاج بعضها إلى إنقاذ بدعم مشترك من الحكومة والبنوك والمصالح الخاصة، كما حصل مع «سويس إير» و «سابينا» عام 2001م وعودتهما باسمي «سويس» و «س ن بروكسل». وتنتظر «أولمبيك إير ويز» ربما مصيراً مشابهاً. يقال في عمليات الإنقاذ تلك إنها الفرصة الأخيرة، والبحث عن حلول للأمد الطويل قد يطرح التقليص أمام البعض، أو شكل من أشكال الاندماج للبعض الآخر يحافظ على محورية المطارات وعلى اسم الشركة وعلمها الوطني – كالذي حصل بين «إير فرانس» و «ك ل م» في عام 2004م و «لوفتانزا» و «سويس» في عام 2005م.

وقد ظلت أشكال من الحماية تعمل في تلك الأسواق ولو لأسباب تعتبر اضطرارية. في الولايات المتحدة هناك

المحترف السعودي - ع.ف

الفصل 11 من قانون الإفلاس يمكن أن تلجأ إليه الشركات للحماية من دائنيها ومساعدتها على ترتيب أوضاعها. وفي أوروبا، حيث لا يوجد قانون مماثل، يصبح التدخل الحكومي متوقعاً لتجنب الفوضى. كما أن دعم الحكومة الأمريكية لشركاتها كان مباشراً أيضاً أثناء تعطّل المواصلات الجوية في أحداث 2001م، حين طالبت الشركات وحصلت على 5 مليارات دولار دعماً و10 مليارات قرضاً. ومن المفترض بعد إلغاء الأنظمة أن تكون أشكال الدعم هذه مؤقتة وظرفية، وواقع المنافسة يفرض على الشركات استراتيجيات بقاء للأمد الأطول.

أكثر من 200 شركة «كلفة منخفضة» تأسست في أمريكا وتلاشت غير أن نجاح بعضها تحوّل إلى مثال

بين القديم والجديد: استراتيجية «للمنافسة» طرقها التشبيك

وهناك نموذج من الشركات الجديدة، شركات «الكلفة المنخفضة» أو ما يسمى أيضاً شركات «الميزانية» التي كانت إحدى الظواهر التي نشأت في البيئة الجديدة في الولايات المتحدة وجرى تقليدها في أماكن أخرى. طريق هذا النموذج لم يكن سهلاً، أعداد كبيرة من الشركات (أكثر من مائتين في الولايات المتحدة) تأسست وتلاشت، لكن النجاح الخاص للشركة الأمريكية «ساوث وست إيرلاينز»، التي وصلت عام 1997م إلى أن تكون السابعة من حيث الحجم، وضعتها كمثال سارت عليه شركات أخرى في أوروبا وآسيا.

يقدم هذا النموذج صورة عن الأسعار الأدنى بالتكاليف الأدنى: استغناء عن حجز المقاعد، عن الوجبات المكلفة، عن الدرجات المختلفة، والاعتماد على أجور منخفضة وعمالة غير منظمة نقابياً. لكن تلك الأمور ليست ميزاتها الوحيدة، إذ يعتبر البعض أن تخفيض التكاليف يأتي أيضاً من اعتمادها على أمور عملياتية كبيع تذاكرها عبر الإنترنت من دون وسائط واستخدامها لطائراتها ساعات أكثر في اليوم. تشغل شركات كهذه رحلات مباشرة من نقطة إلى نقطة أخرى على مدى قصير وفي أوقات كثافة المواصلات التي تسمح لها بملء طائراتها بالركاب، وتعتمد على أسطول طائرات متجانسة من نوع وصنف واحد لتقليل كلفة الخدمة، وتستخدم مطارات فرعية أقل كلفة وأقل ازدحاماً.

وقبل ظهور شركات الكلفة المنخفضة في أوروبا التي سارت في اتجاه تقليد النموذج الأمريكي، مثل «إيزي جت» و «ريان إير» في منتصف التسعينيات، كان السفر الجوي الرخيص في غالبيته محصوراً في الرحلات السياحية المنظّمة (تشارتر فلايتس)، التي شكلت نصف الرحلات داخل أوروبا، وباتت تلك أيضاً تتحول إلى رحلات عادية موجهة للسياحة تساعد السائح على تصميم رحلته بنفسه.

لا شك أن هذه الشركات القادرة على تقليص تكاليفها أحياناً إلى أكثر من الثلث بالمقارنة مع الشركات التقليدية،

أسماء غادرت السماء!

قادرة أيضاً على تخفيض الأسعار ومنافسة هذه الأخيرة في أسواقها القائمة. لكن تأثير هذه الظاهرة لا يزال متفاوتاً. في السوق الأمريكية شركات التكاليف المنخفضة تحتل 30 في المئة من السوق الداخلي وتنافس الشركات التقليدية على 70 في المئة من الخطوط الجوية، ويقول بعض المحللين فيها إنها أصبحت أيضاً أكثر نضجاً بحيث تقدم نفسها كماركة تجارية قوية وتوفّر خدمات أفضل وتجذب مسافرين من فئة رجال الأعمال. أما السوق الأوروبية، حيث لا تزال حصة شركات الكلفة المنخفضة في السوق الداخلية قليلة (ما بين 7 و 10 في المئة) وكذلك السوق الآسيوية، التي تعج بالشركات الناشئة التي يظهر منها العشرات ويتلاشى معظمها – في ظل أوضاع باتت تسمح بكلفة رأسمال لا تزيد على 10 ملايين دولار لإنشاء شركة جديدة، مع توافر طائرات وطيارين بأسعار رخيصة نتيجة الصرف الذي يتعرض له القطاع التقليدي.

سياسة تخفيض التكاليف تفسر اللجوء إلى إعلان الإفلاس والأوروبيون يعتبرونه شكلاً من أشكال الدعم

الهاجس الجديد: تخفيض التكاليف

لقد عملت الشركات الأمريكية التقليدية على بناء استراتيجيات للمدى البعيد، والتمايز عن الشركات المنخفضة الكلفة باتباع أنظمة شبكات قائمة على مطارات محورية، تمتص حركة الركاب من الأسواق الصغيرة، وتغذيها في رحلات كبيرة بين المطارات المحورية. ويساعد هذا النظام على زيادة ركاب الطائرة، واختيار طائرات بأحجام مختلفة لرحلات مختلفة، ولو أن وقتاً مهماً يصرف في الانتظار على المدرجات. إلا أن أهميته تكمن في أنه نظام دفاعي. إذ بنت كل شركة مطاراتها المحورية في مناطق مختلفة، وحولتها إلى ما يشبه الحصون الخاصة بها. بات هذا التمايز من أهم صفات الشركات التقليدية التي أطلق عليها أيضاً اسم «شركات الشبكات»، والمسافرون باستطاعتهم أن يختاروا بين ستة طرق مختلفة، عبر الشركات الست الكبار، للوصول إلى مكانهم المقصود. واتخذت طريقة الدفاع عن تلك المطارات (الحصون) أشكالاً متعددة. يتحدث البعض مثلاً عن العلاقات التجارية القائمة بين شركات الطيران والسلطات المحلية، وعن دور الشركات في وضع عقبات أمام توسيع البنية التحتية وخلق سعة أكبر وذلك لعدم فتح المجال أمام الشركات المنافسة. وقد ظهرت أزمة ازدحام وتأخير فعلية في العديد من المطارات لأن البنية التحتية لم تتطور بشكل ملائم لنمو المواصلات الجوية.

كان من السهل في السوق الأوروبية، عندما جرى إلغاء الأنظمة، استنساخ النموذج الأمريكي للمطارات المحورية والشبكات. فالمطارات الرئيسة لبعض الدول الأوروبية تشكل محاور مهمة في إطار السفر العالمي، وليس أدل على تمسك الدول بها من الصراع العنيد التي تخوضه بريطانيا لبقاء مطارها هيثرو قلعة مهمة لشركة طيرانها وتحالفاتها. محورية عدد من المطارات الأوروبية هي في قدرتها على امتصاص حركة الطيران من الأسواق الأوروبية في رحلات عالمية، وأهمها تلك العابرة للأطلسي نحو السوق الأمريكي. وكمثيلتها الأمريكية، أبقت بعض الدول الأوروبية مطاراتها الرئيسة محاور لشركتها التقليدية، بينما انكفأت الشركات الجديدة المنخفضة التكاليف إلى استخدام مطارات فرعية في رحلات مباشرة من نقطة إلى أخرى بين العواصم الأوروبية.

لقد خدمت هذه الاستراتيجية الشركات الأمريكية التقليدية منذ عقدين في مواجهة تخفيض الأسعار وأمنت لها السيطرة. وعوّضت الشركات عن الأسعار المخفضة باعتمادها على درجات السفر التفضيلية لرجال الأعمال (التي شكّلت ثلثي إيراداتها) خاصة في فترة النمو ما بين 1995 و 2000م وقبل أن تتعرض لنكسة مع الركود الاقتصادي أواخر عام 2000م. وتبدو فرصها اليوم في السوق الداخلي أقل مما كانت، وتضطرها إلى القيام بعمليات تخفيض كبيرة للتكاليف، ذهب في طريقها أكثر من 100 ألف وظيفة منذ عام 2001م، ويتوقع الخبراء تخفيضات مماثلة في السنوات المقبلة، فالطريق، حسبما يرون، لا يزال طويلاً من أجل وضع تكاليف تلك الشركات على خط المنافسين من الشركات المنخفضة الكلفة. والأمر نفسه يحصل بالنسبة للشركات الأوروبية التي خسرت آلاف الوظائف وتستمر في سياسة تخفيض التكاليف بطرق مختلفة. ويفسّر المنحى لتخفيض التكاليف قصة اللجوء الطويل للشركات الأمريكية (حوالي السنتين للبعض) إلى الفصل 11 من قانون الإفلاس، الأمر الذي بات يثير امتعاضاً، خاصة في أوروبا، لاعتباره من أشكال الدعم المستمر لتلك الشركات.

والمستقبل قد يكون مفتوحاً على تحديات جديدة بالنسبة لأنظمة الشبكات. فالتطور التكنولوجي – كظهور طائرات المدى البعيد من إنتاج بوينغ وإيرباص وطائرات المسافات القصيرة القليلة التكلفة – من الممكن أن يقلّل من الاعتماد على الشبكات لصالح السفر المباشر. والسوق الأمريكي يشهد بداية لشركات منخفضة الكلفة تعمل على نظام المحاور والشبكات.

لكن وجهة المرحلة تسير من الشبكات المحلية إلى التشبيك العالمي. هذا المنحى بدأ يتطور منذ أوائل التسعينيات وتقوّى في بداية القرن، وهو يتشكّل على قاعدة تحالفات عالمية – هي عبارة عن ترتيبات في التسويق. بهذا المعنى

يتجه القطاع إلى التركز العالمي، لكن بطريقة يشق فيها تنافس القارات ولا يكتلّها.

نظام التحالفات العالمية و «الأجواء المفتوحة»

«ستار» و «ون ورلد» و «سكاي تيم» ثلاث تحالفات تحتكر 80 في المئة من الرحلات الجوية في العالم

نشأت أنظمة التحالفات العالمية على قاعدة تحالفات عابرة للأطلسي بين الشركات الأمريكية والأوروبية. وتظهر دراسة أعدت من الوجهة الأوروبية أن الشركات الأمريكية شكلت الحركة الدافعة في هذا المجال، تقودها منافعها الواضحة بعد عام 1978م في رحلاتها العابرة للأطلسي. بينما وجدت الشركات الأوروبية في التحالفات حلاً لمعضلة وجود مصالح قوية لها في الأسواق العالمية ومحدودية الفرص في أسواقها الداخلية.

لقد طوّرت الشركات الأمريكية في البداية تحالفات مع شركات أوروبية صغيرة تولي اهتماماً خاصاً بالرحلات الأطلسية، كالتحالف الذي نشأ بين «نورث وست» والشركة الهولندية «ك ل م» عام 1992م، تبعتها «سويس إير» و «سابينا» مع شركة «دلتا» عام 1993م. وتحتل اليوم السوق العالمي بنسبة 80 في المئة من رحلاته ثلاثة تحالفات رئيسة، وهي: تحالف «ستار» (يضم «يونايتد» و «لوفتانزا»، و «سنغافورة» و... وغيرها)، وتحالف «ون ورلد» («بريتش إيرويز» و «أميركان إيرلاينز» و «كاثي باسيفيك» و...غيرها) وتحالف «سكاي تيم» («دلتا» و «إيرفرانس» و «كوريان إير» و... آخرين). كما دخلت «ك ل م» والشركتان الأمريكيتان «كونتيننتال» و «نورث وست» في تحالف «سكاي تيم» في 2004م بعد اتفاق اندماج «ك ل م» و «إير فرانس»، ودخلت «سويس» في تحالف «ستار» في 2005م بعد الاتفاق على اندماجها مع «لوفتانزا».

اقتصرت هذه التحالفات على الشراكة في التسويق، وذلك نتيجة الخضوع لقيود الأنظمة العالمية للطيران والقائمة على اتفاقات ثنائية بين بلدين تقرر أين يمكن للطيران أن يحلّق وعدد رحلاته وتسعيره... وهو نظام يعود إلى مؤتمر شيكاغو عام 1944م الذي تأسس على قاعدة احترام السيادة الوطنية والاعتراف بسيطرة الدولة على جميع أجوائها البرية والبحرية والجوية وضمن حدود معرّفة بشكل واضح بحيث يشكل دخولها من دون إذن تجاوزاً أو انتهاكاً.

وتأخذ الاتفاقات الثنائية التي تتحكم بحركة الطيران العالمي اليوم أشكالاً مختلفة، والأكثر انفتاحاً فيها يطلق عليها تعبير اتفاقيات «الأجواء المفتوحة»، أو «أوبن سكايز». «الأجواء المفتوحة» تعبير أطلقته الولايات المتحدة على اتفاقات ثنائية، أو تعددية، سعت إليها منذ عام 1979م مع دول أخرى لإلغاء بعض الأنظمة المقيّدة للسفر بينها وتلك الدول. والاتفاق النموذجي يسمح للطائرات الأمريكية بالطيران من الولايات المتحدة إلى أية نقطة في البلد الآخر، ومن دون تقييدات على الأسعار أو على



حالما أصل إلى القائمة المالية ستهبط عليكم أقنعة الأكسجين من السقف.



أستطيع تأكيد حجزك الآن.. أنا أتأكد الآن من قوائم شركات الطيران للإقــلاع والهبوط.. والإفلاس

تواتر الخدمات. وبالمقابل، تقدم حقوق شبيهة لطائرات البلد الآخر. ورغم أن مثل هذا الاتفاق يبقي على قيود تمنع التملك الأجنبي (سقفه في الولايات المتحدة 25.9 في المئة وفي أوروبا 49 في المئة) وتمنع حرية الطيران الأجنبي في المواصلات الداخلية، إلا أنه يؤدي إلى تحرير نسبي لأسواق البلد المعني تجاه حركة الطيران الخارجي. ولذلك، فإن الاتفاق النموذجي لم يحصل في البداية إلا مع بعض الدول الصغيرة، وواجه ممانعة من الدول الأكبر، خاصة اليابان وبريطانيا.

حالياً: مزيد من الأعباء المالية وصرف للموظفين، وتدني الخدمات، مقابل تخفيض الأسعار وزيادة الإنتاجية

وقد وقّع عدد من الدول الأوروبية في تسعينيات القرن الفائت اتفاقيات «أجواء مفتوحة» مع الولايات المتحدة، والبادئة كانت هولندا عام 1992م وتدريجياً أصبحت الاتفاقيات تشمل 15 من أصل 25 دولة (من بينها ألمانيا في 1996م وفرنسا في 2002م). ومن الوجهة الأوروبية قد تدفع هذه التحالفات شركاتها إلى زيادة تنافسيتها كي لا تخسر رحلاتها الأطلسية للطيران الأمريكي، إلا أنها أيضاً تحتاج إلى إعادة ترتيب على أساس التعامل مع الوحدة الأوروبية ككتلة واحدة وليس مع دولها بشكل ثنائي. وكانت المحكمة الأوروبية في 2002م قد اعتبرت الاتفاقات الثنائية غير شرعية، لأنها تميّز بين الشركات الأوروبية.

واليوم، تسعى المفوضية الأوروبية عبر مفاوضات مع الولايات المتحدة إلى وضع يسمح للشركات الأوروبية بالانطلاق من أية نقطة في أوروبا باتجاه رحلات عابرة للأطلسي إلى أمريكا (وليس فقط من مطارات بلادها حسب الاتفاقات الثنائية)، وإلى حل بعض الأمور العالقة بالنسبة لحقوق هبوط الطائرات (كالوضع الحقوقي للشركات الأوروبية التي اتفقت على الاندماج مؤخراً والمطلب الأمريكي بفتح مطار هيثرو أمام شركات جديدة).

ويسمي البعض ما يجري «عولمة» للمواصلات الجوية. فالتحالفات تؤسس لشبكة واسعة من المواصلات الجوية، مذهلة في مداها، مبنية على قاعدة المطارات المحورية والشبكات التي تغذّيها وتوّفر آلاف الترتيبات المختلفة لربط الرحلات بين المدن وما دونها عبر الأطلسي وما بعدها، وربما تؤسس لأن تكون البلدان الصغيرة في المستقبل متصلة من خلال خدمات عالمية ببلدان صغيرة أخرى في أي مكان في العالم. وهي تتجه بالقطاع إلى التركّز على مستويين، على مستوى حركة النقل عالمياً، وعلى مستوى الملكية. ورغم أن إطار التحالفات قد عزّز مكانة الشركة الوطنية على حساب المشروع الاندماجي الأوروبي، فقد بدأت تظهر في أوروبا أشكال من التركز عبر اتفاقات للاندماج بين شركات كبيرة ومتوسطة («ك ل م» و «إيرفرانس» أو «سويس» و «لوفتانزا») تصب في خانة التحالفات وتعطي الشركات الكبيرة الحقوق المهمة التي لدى الصغيرة في السوق الأمريكي، وتوفرّ للصغيرة فرصة الحفاظ على مطاراتها المحورية. كما يدفع التركز العالمي والمناطقي بشركات أخرى إلى وضع هامشي وإلى البحث عن موقع صغير في سوق عالمي يكبر ويترّكز.

جدل التحولات

تتعدد القراءات لنتائج التحولات التي حصلت وتحصل في إطار الجدل المستمر في حكمة هذا التغيير. الأضرار ليست قليلة: الأعباء المالية لعدد من الشركات كبيرة، وصرف العاملين وتخفيض أجورهم تحصيل حاصل لها، والخدمات تدنت بشكل عام. ويقابل جدل الأضرار جدل المنافع. ويذكر منه تخفيض الأسعار وزيادة إنتاجية الشركات. لكن بعض المنافع قد يكون أمام امتحان جديد على ضوء التركز الذي يحصل داخل القطاع ودرجة الاحتكار التي تتطور معه.

واحتساب النتائج يقاس أيضاً ضمن اعتبارات أهمية القطاع. الاعتبار الأول هو خدمته للمنفعة العامة، والأنظمة وجدت لتحديد الخطوط وتوجيه الأسعار بطريقة تخدم المنفعة العامة عبر دعم أسعار الخطوط غير المربحة لكن المطلوبة من الوجهة المجتمعية على حساب أسعار الطرق المزدحمة الأقل كلفة. ولجعل أجزاء كبيرة من البلد، خاصة المترامية الأطراف، متصلة ببعضها. والاعتبار الثاني يدخل في مفهوم المصلحة الوطنية، حيث يعتبر الطيران قطاعاً استراتيجياً يؤثر في قطاعات اقتصادية أخرى. ولا يمكن ترك مشكلاته المالية للفوضى تعبث به. وقد نبّهت أزمة 2001م إلى هذا الأمر في واقع الدعم الحكومي الواسع الذي حصل لإنقاذ الشركات حينها. وهناك اعتبار آخر ازداد الاهتمام به مؤخراً هو سلامة الطيران. ورغم ما يبدو من عدم تأثر السلامة لحينه بهذه التحولات في الأسواق الاقتصادية المتطورة (ويرجعه المحلّلون إلى بقاء أنظمة سلامة الطيران، والتطورات التقنية، وإدراك الشركات لأهمية التركيز على السلامة)، إلا أن الأمر قد يختلف بالنسبة لبلدان أخرى استبدلت طيرانها الوطني بشركات «قليلة الكلفة» دون معايير أمان قوية. وكوارث الطيران التي حصلت في الأشهر الأخيرة باتت تنبّه إلى هذا الوضع، على الأقل أوروبياً، حيث تضع الوحدة الأوروبية لائحة بأسماء شركات تمنع رحلاتها في الأجواء الأوروبية لاعتبارات السلامة.

وضمن هذا الاستعراض، يبدو وضع الطيران وأسواقه الكبرى في مخاض تحولات، تقود إلى توزيع جديد للمنافع بين الشركات التقليدية كما وبينها والشركات الناشئة. لكن السيرورة في حراك، وباب الاحتمالات مفتوح.

قول في مقال

تعقيباً على مقال «عرب عند أطراف أصابعكم»

فلتعبر البحر

بعدما تناول رئيس التحرير في عدد سابق قضية التواصل الثقافي ما بين الجزيرة العربية من جهة، وبلاد الشام ومصر من جهة أخرى، الكاتبة المصرية ليلى أمل تقدم قراءتها للقضية نفسها من زاوية المنتمي إلى الطرف الثاني من هذا الحوار، مستبشرة بتوافر المزيد من التحولات التي يمكنها أن ترقى بهذا التواصل إلى المستوى الصحيح والمطلوب.

على مدى السنوات التي شكلت علاقتي بعالم الثقافة والأدب، ظلت مفردات هذا العالم في قاموسي كلها مفردات مصرية. أسماء الأدباء وأعمالهم.. مدارسهم.. والمراحل التي مرت بها الحركة الثقافية، مرتبطةً بالحالة السياسية والاجتماعية المصرية. فطبيعة مجتمعي.. المجتمع الذي يعتز باكتفائه الثقافي، والذي يغنيه تنوعه الداخلي عن البحث عن تنوع خارجي يثري حركة الثقافة فيه، جعلتني لا أشعر بالحاجة إلى فتح نوافذ على عوالم أخرى من الأدب العربي، وجعلتني مثله مكتفية بثقافته. إلى أن طرقت أسماعي مؤخراً أسماء كتّاب غير مصريين أغلبهم من الخليج، دفعني ما قرأت عنهم، إلى أن أقرأ لهم، وأن أتعرف إلى مساحة جديدة من الأدب العربي المعاصر، لم تكن عينايا تراها من قبل. قراءتي لمقال «عرب عند أطراف أصابعكم» للأستاذ محمد العصيمي المنشور في عدد يوليو وأغسطس، أعادت إلى الحياة أفكاري حول هذا الأمر، وأضافت إليها أخرى جديدة.

انقسام الخريطة الثقافية

بالتأكيد هناك نوع من الانفصام الثقافي بين بلاد الشام ومصر، وبين دول الخليج، لكن هل هو تهميش متعمد للثقافة والأدب الخليجيين؟ لا أعتقد ذلك. حتى وإن كانت هناك أصوات تتحدث بنبرة تميل إلى التعصب، لكن هل تعبر هذه الأصوات عن الشريحة العريضة من المثقفين، أو تملك وحدها تغيير المشهد الثقافي؟ أيضاً، لا أعتقد ذلك.

لسنوات طويلة، كانت خريطة الإبداع الثقافي العربي، تنقسم بالفعل إلى مركز وأطراف. ومع تغير أوضاع الحياة سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً في العالم العربي، تغيرت معالم الخريطة القديمة، وتشكلت في شكل مختلف عن ذلك الذي عاشت عليه لأعوام مضت. لكن هل تبدلت الرؤى الثقافية للطرفين.. المركز والأطراف، تبعاً لتغير معالم الخريطة؟ المشكلة أن الجواب هو لا.

فبالنسبة لدولة من دول المركز كمصر، تشكل فكرة التمسك بفارق تفوق ثقافي كبير لصالحها، نوعاً من المكابح التي تحد من تقبل الثقافة

الخليجية المعاصرة كمنافس على درجة من القوة، أو تكتفي بالتقدير الفردي للأسماء الأكثر شهرة وثراءً في تجربتها الخاصة، وتتروى كثيراً في إعطاء هذا التقدير للتجربة العامة ككل.

التعامل مع الآخر.. أي آخر؟

هذا بالإضافة إلى بعد آخر تفرضه حقيقة أن منظومة التفكير العربية التي تعاني بوجه عام صعوبة في التعامل مع «الآخر»، تعاني كذلك مشقة وتخبطاً فوق الصعوبة، حين يكون هذا الآخر ليس آخراً بالكامل. وأنها ربما تتمكن من التعامل مع نقاط التشابه في إطار عام من الاختلاف، لكن يصعب عليها كثيراً أن تتعامل مع نقاط الاختلاف في إطار عام من التشابه، أو ربما التماثل. فبينما يستطيع الناقد أو المثقف بشكل عام حين يسلِّم بأن الإطار العام هو الاختلاف، أن يسترخي في مقعده وهو يتابع قراءته لكتاب ينتمي إلى الثقافة الغربية أو الأجنبية، ويبتسم، أو يتأمل في حياد، حين يرى فكرة أو ملمحاً من ملامح الحياة الاجتماعية يتشابه مع أفكاره وحياته، نجد أن الأمر يتحول لشعور بالغربة ونوع من التوتر، ربما يفضي إلى الرفض، حين يلمح ما يعاكس فكره أو يبدو شيئاً غريباً عن ملامح حياته، أو حتى لا يطابق توقعاته أو الصورة التي رسمها في مخيلته مسبقاً، في رواية عربية خليجية.

تقصير المؤسسات الثقافية والإعلام

أما على الجانب الآخر، فلا أرى أن المؤسسات الثقافية الخليجية، قد قامت بواجبها تجاه تعريف المثقف المصري بالثقافة والأدب الخليجيين.

فدوماً تقف عقبة الحصول على الأعمال الأدبية الخليجية، أمام المهتمين بالتعرف إلى هذه الثقافة سواء كان هذا على مستوى القارئ العادي، أو الناقد المتخصص الذي لن يستطيع أن يعد دراسة نقدية دقيقة إذا كانت مادة الدراسة غير متوافرة أصلاً بين يديه، ولا يحصل إلا على نماذج قليلة منها عن طريق الأصدقاء أو المعارف ممن يعيشون في دول الخليج!

كما أن الدعاية الإعلامية الفقيرة تظلم الإنتاج الأدبي الخليجي. فخلال الحدث الثقافي الأول في مصر «معرض القاهرة الدولي للكتاب»، لا تلمح من دور النشر، أى نوع من الجهد في التعريف بالأعمال الأدبية الخليجية، أو بالكتّاب الخليجيين المعروفين في بلدانهم. فلا يقبل على اقتناء الأعمال الأدبية الخليجية، إلا ناقد مطلع على الإنتاج الخليجي بحكم تخصصه، أو قارئ عرف بالصدفة باسم كاتب متميز، أو عمل لاقى استحساناً، أو أثار جدلاً.

عوامل التواصل متوافرة

كقارئة، أجد أن المجال الآن مفتوح لتكوين علاقة طيبة بين المثقف المصري، والثقافة العربية الخليجية، خاصة في الوقت الذي اختصر فيه عصر السماوات المفتوحة كثيراً من المسافات بين المجتمعات ذات الثقافات المختلفة، فلم تعد مفردات الحياة الخليجية غريبة على المجتمع المصري. ولا أعتقد أن هناك عقبات حقيقية أمام هذه العلاقة في هذ التوقيت.. ربما تتقدم ببطء بسبب حالة الركود الثقافي العام الذي تعيشه مجتمعاتنا العربية، لكن المجال بالتأكيد يتسع لها. والمثقف المصري في النهاية قادر على استيعاب وقبول منتج ثقافي غير مصري. ربما ليس بسهولة، لكن إن أثبت هذا المنتج جودته فسيقبل عليه. فأدب أمريكا اللاتينية وجد قبولاً كبيراً في مصر، مع أنه من «أدب الفقراء» الذي يحتاج جهداً لينتشر، وليس كالمنتجات الثقافية الأمريكية التي تسعى بنفسها لتنتشر، ولا الأوروبية التي تسعى إليها النخبة المثقفة انبهاراً، أو رغبة في التميز.

الأدب اللاتيني يحتاج لمترجم، ودار نشر في داخل البلد «المستوردة» له.. يحتاج لمن يتبنى المشروع ويبذل لأجله جهداً، كي يصلني كقارئة. الأدب الخليجي سيصلني إن عبر هو البحر إليَّ فقط.. فهل يفعل؟



زكي غواص



«الشباب على الباب»..
ظاهـرة القيـادات الشابـة في العالــم

في عالم العمل والمال، كما هو الحال في مجالات العلوم والإبداع، هناك كفاءات شابة تجتاح العالم، بدأت تثبت حضورها البارز والمفاجئ.

أسماء جديدة نتطلع إلى صور أصحابها فنراهم في الثلاثينيات، أو حتى في العشرينيات من العمر. فما هي ملامح هذه الظاهرة؟ وكيف تمكنت هذه الكفاءات الشابة من الوصول إلى مناصب قيادية لم تكن لتتاح لها سابقاً؟ وهل لهذه الظاهرة امتداد في وطننا العربي بمعزل عن أوضاعه السياسية والاجتماعية؟

فريق «القافلة» يقرأ هذه الظاهرة بحثاً عن الأجوبة.

الشباب اليوم لا يرون قيمتهم في قيمة الجهة التي يعملون بها، وإنما يرونها فيما يمتلكون من مهارات بالدرجة الأولى.

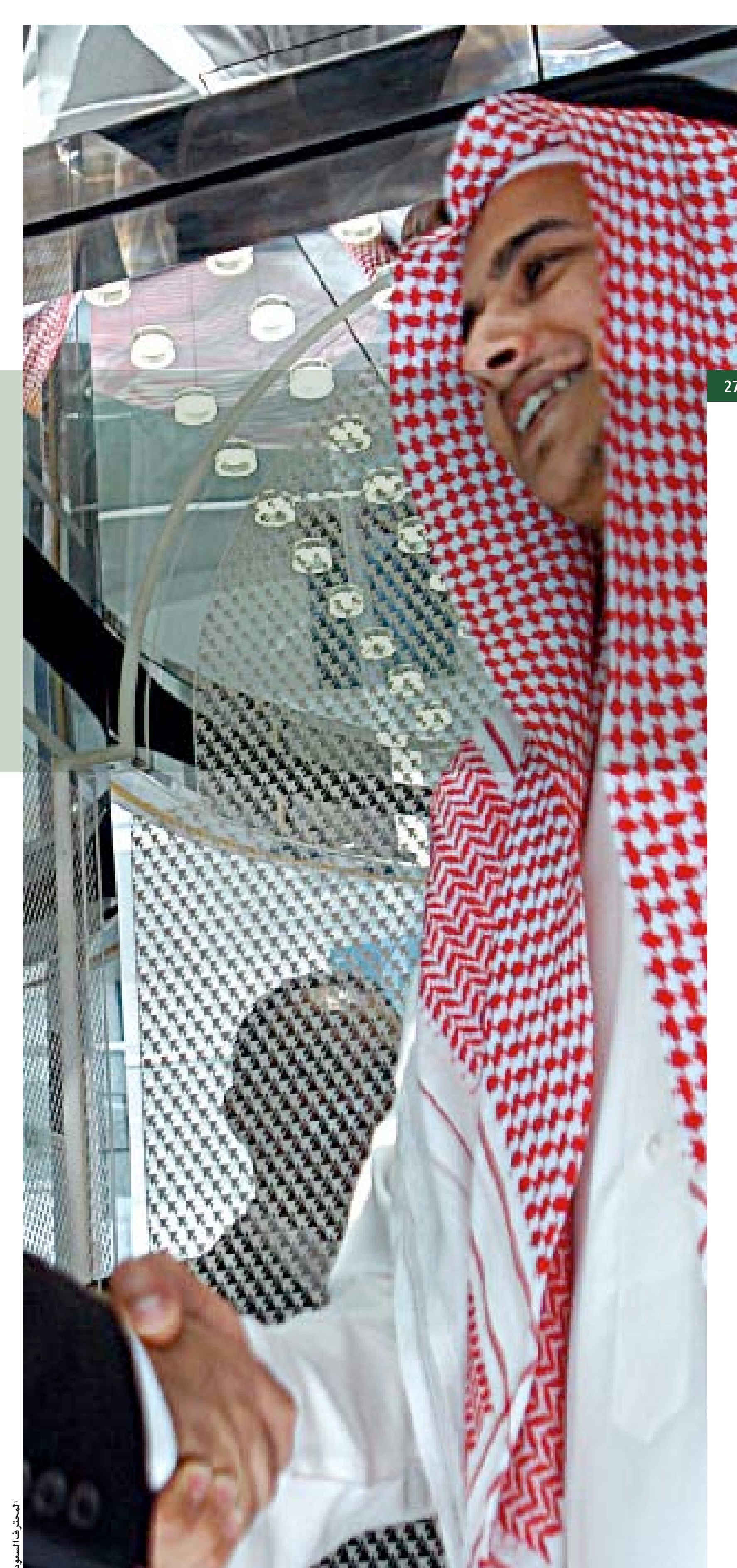
ماذا نعني بجيل الشباب؟ البعض يطلق عليه اسم «جيل الكمبيوتر»، وعلماء الاجتماع يعتبرونه شاملاً لكل من ولد بين العام 1981 إلى 1995م. إنه جيل «الدوت كوم»، جيل البشرية الأول الذي قضى سنوات صباه مع أدوات تكنولوجية غيّرت وجه العالم من كمبيوتر وإنترنت، وأصبحت هذه المقدرة جزءاً من تكوينه الداخلي مما أكسبه قدرات عالية في التعامل مع معطيات الحياة بكافة أشكالها، وحرية واسعة في التجديد والابتكار. ذكي، متمكن، كفؤ، قادر على إدارة التوازن الضروري بين عمله كأولوية، وبين حياته الاجتماعية كأولوية موازية.

هذا الجيل الفتي يعرف أنه يدخل عالماً متغيراً، وهو واثق من أن المهارات التي اكتسبها في طفولته وصباه لها قيمتها في ميدان العمل. وهكذا، فإن هذا الجيل ينتقل من الظل إلى الضوء في الميدان شاقاً طريقه بجرأة ومتسلحاً بهذه القدرات التي تمهد لها المتغيرات في المفاهيم الإدارية التي فتحت أمامهم طريق الصعود من دون عوائق التراتب الوظيفي المتوارثة.

ومن الواضح أن شباب اليوم بدأوا يصيغون المناخ الذي يتحركون ويعملون فيه، أو يساهمون في صياغته، متسلحين بهذه الخبرة التي تقدم لهم الفرصة والمسؤولية والأدوات التي كانت حكراً على الكبار في الماضي. إن جيل «الدوت كوم» يمثل ظاهرة أعمق وأوسع مما توحي به هذه الصفة، وقد بدأت آثار هذا الجيل تظهر في كل مكان من أعلى مراتب الشركات العملاقة حتى أصغر الشركات في أي مكان من العالم.

أكثر من مرحلة عمرية

ويواجه المجتمع هذا الصعود للظاهرة الشبابية بمزيج من الفرح والمفاجأة والاستسلام، ولكن أيضاً بمحاولة الاستفادة من الظاهرة بجعل «الشباب» سمة العصر، والصفة المرغوبة من الجميع.


المحترف السعودي

من هنا فقد أصبح الشباب هو العصر، والعصر هو الشباب. وأصبحت الشبابية أسلوب حياة أكثر من كونها مرحلة عمرية محدودة بسنوات. ولهذا يختارها ويقترب منها من يشاء، وبقدر المستطاع. لم يعد الشباب يعني فقط الجمال والجاذبية الجسمية، والروح النضرة التي ترى مستقبلها أمامها. وإنما يعني أيضاً القدرة على الحركة والتغيير والتعبير عن الذات بأكثر الطرق وضوحاً وواقعية. ولهذا نجد أن الفئات العمرية المختلفة، تلك التي كانت تزهو وتتباهى بتفردها، راغبة في أن تكون الحدود الفاصلة بينها وبين هذه المرحلة مختلطة ومبهمة، وأصبحنا نرى من جيل الكبار من يرتدي ويتصرف ويتحدث بمفردات كانت يوماً قاصرة على عالم الشباب، وينظر الآخرون إليها على أنها مفردات عالم الطيش والنزق.

اليوم، أصبح من يعيش مرحلة الشباب شخصاً حكيماً يختار روح التحدي والمغامرة، ويحافظ على روحه نضرة جذابة. وإدراك الشباب لهذا منحهم ثقة أكثر بالنفس، وقدرة على التعبير عن آرائهم بصراحة ومن دون رهبة، بالإضافة إلى دفعهم نحو المحافظة أكثر على خصوصيتهم وتفردهم، فنجد أن المفردات الجديدة الطارئة على اللغة اليومية التي يستخدمها الشباب هي وسيلة دفاع وهجوم في نفس الوقت، تجاه عالم أراد أن يستبيح خصوصية مرحلتهم ويجعلها ملكاً عاماً.

يذكر الكاتب سمير عطا الله في مقال له بعنوان «آباء وأبناء»: «... أسأل ابني ماذا يقرأ رفاقه من الشعر والأدب، فيقول بصراحة جيله: «لا شيء». وماذا يعملون؟ زينب في ميريل لينش. وقيصر في البنك البرازيلي. ورشيد في مورغان ستانلي. ولؤي في السيتي. وميشا في بنك الباري با. والشعر؟ وحديقة اللوكسمبور؟ والدافودل الأصفر في الهايد بارك؟ لا. لؤي يعمل 12 ساعة، لأنه سيتقاعد في الخامسة والثلاثين. وميشا تعمل 12 ساعة لتضمن معرفة حركة الأسواق في أمريكا وآسيا. ورشيد يعمل في عطلة الأسبوع لأنه يريد أن يغير شقته. ألا يحلمون بمصافحة نزار قباني في آخر الأمسية؟ ...» وما يلاحظه الكاتب دقيق إلى درجة كبيرة، فقد ترعرع هذا الجيل على انهيار كل المثاليات التي عاش لأجلها جيل آبائه.

فهو في نهاية الأمر جيل واقعي، ولم يعد سهلاً على من كان مثله أن يقع فريسة حلم لا يستطيع تحقيقه، ولهذا نجده يصوغ أهدافه بدقة، ويختار قيمه بدقة، ويشكك في أمور كان يعتبرها جيل آبائه مسلّمات لا تقبل الشكك.

دور التكنولوجيا

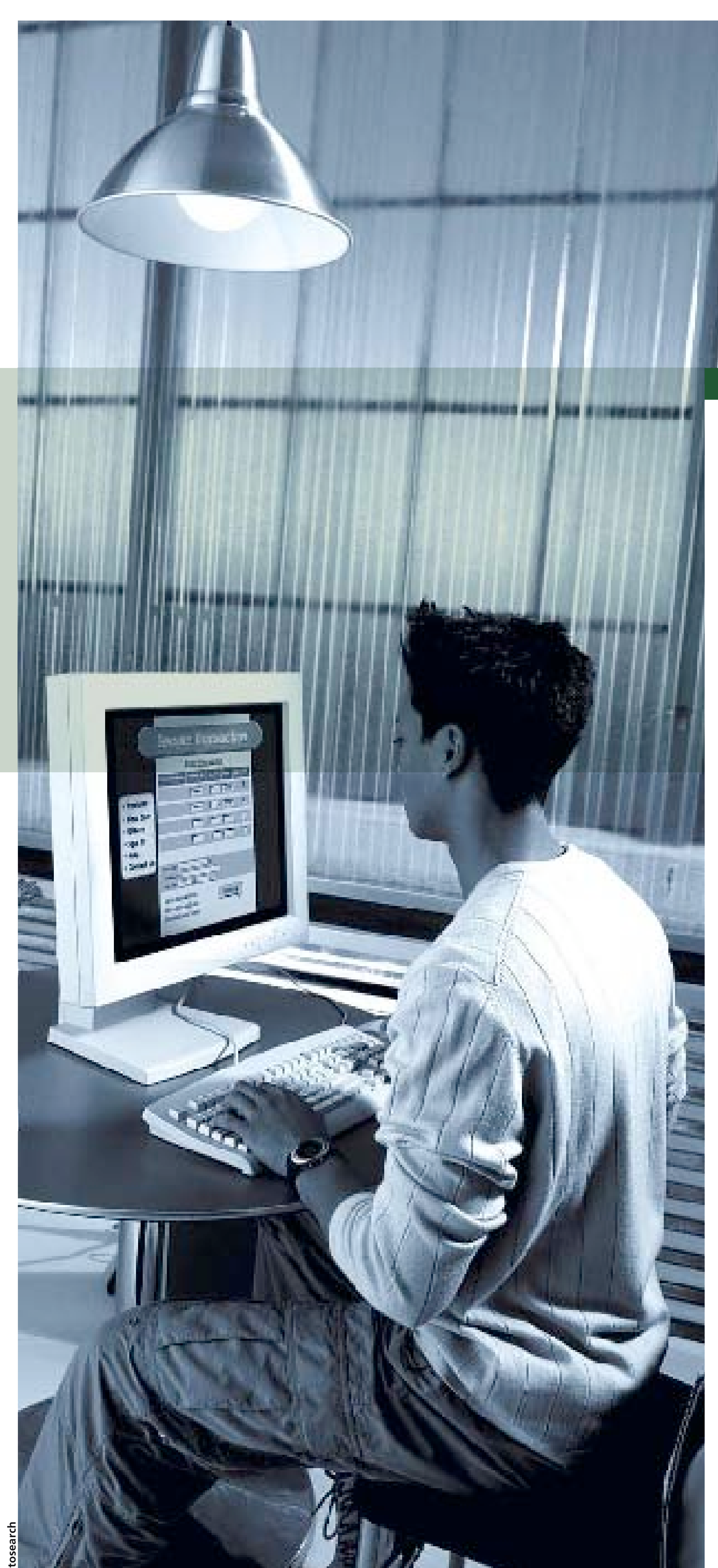
من أهم العوامل التي قلبت موازين النظر إلى الشباب هو كون التكنولوجيا جزءاً مدمجاً ضمن حياتهم اليومية. هذا الجيل يدرك ما يتميز به مقارنةً بمهارات الجيل الأكبر سناً، فهو يلاحظ العناء الذي يتعامل به الكبار مع الأدوات التكنولوجية، وحاجز الرهبة ما بينهم وبين استخدامها. إذ يتمتع جيل الدوت كوم بمزية اعتبار التكنولوجيا جزءاً من واقعه وكينونته، وهي جزء من وجدانه الذي لا يستطيع أن يفكر أو يتحرك بمعزل عنه. فلم يعد الأمر مجرد التعامل مع التكنولوجيا وأدواتها بثقة، وإنما أضيفت إليه القدرة على الابتكار، وعلى استخدام التكنولوجيا في ساحات جديدة ومستويات أخرى. نتيجة لهذا، نشأ هذا الجيل على قدر عالٍ من الكفاءة، ولكنه في الوقت نفسه على قدر أعلى من التطلب والرغبة في الحصول على الأفضل. ومع قدرة الشباب على التحرك بحرية وراحة في عالم «القرية الصغيرة»، نجد أننا أمام أشخاص يتمتعون بمصادر معلوماتية ومعرفية لا يستطيع الجيل الأكبر أن يتجاهلها أو يهضمها حقها. وبالتالي نجد أن الشاب الذي كان يتقدم ليشغل منصب ما في السابق متسلحاً بشهادة جامعية وحيدة، وبكم معرفي حصله عبر الكتب، متهيباً، متأملاً، يسعى للتلمذة على من سبقه في العمل من دون أن يفكر أن لديه ما يقدمه لهم سوى جهده وإخلاصه، قد تغير موقفه اليوم. فهو يدرك حقيقة أن الشهادة الجامعية لا تكفي، وأن ما لديه من مهارات ومصادر معلومات تعادل كفة الخبرة والحكمة التي يمتلكها الجيل الأكبر، ولهذا هو يطلب قدراً مساوياً من الاحترام والحقوق.

وفي الوقت نفسه، نجد أن نمط حياة هذا الجيل كان مليئاً بالأنشطة بدءاً من دراسته، ومروراً بهواياته المختلفة، وانتهاءً بحياته الاجتماعية الصاخبة، فلم يعرف نمط الحياة الهادئ الذي عرفه جده أو والده من قبله، بل كل ما يعرفه ويتكيف معه هو احتمالية حدوث التغيير في أي وقت. ونتيجة لأن التغيير هو العامل الوحيد الذي يثقون في استمراريته، نجد أن شباب اليوم قادرون على التكيف مع أي ظروف تستجد؛ ذلك لأنهم لا يتوقعون ثباتاً من أي نوع. وهم لذلك يستطيعون العمل بفاعلية وباتزان رغم التغيرات. ولديهم في الوقت نفسه القدرة على المجازفة بإحداث التغيير، دون أن يشكل هذا تهديداً حقيقياً لنظام حياتهم.

الكبار يعترفون

اكتشاف الشباب لكفاءتهم وقدرتهم على إحداث التغيير لم يكن ليكفي لولا إدراك الجيل الأكبر، من بيده سلطة اتخاذ القرار على نطاق واسع ، لقدرة هؤلاء الشباب على تولي القيادة، وكما يقول الكاتب أندريه موريس: «أكثر خصال القائد أهمية هي أن يكون معترفاً به كقائد»، والمتأمل في

شابٌ يختبئ في مربع تتكون زواياه من جسده ولوحة المفاتيح وشاشة الكمبيوتر، يتحول فكره من مثالي إلى واقعي، ومن ثوري إلى تنموي.



Fotosearch

مجريات الأمور، يجد أن مشاركة الشباب في تولي مناصب لم تكن متاحة بسهولة لهم فيما مضى، ليس شكلياً.

هذه الكفاءات الشابة تتمتع بأسلحة تحررية ومعلوماتية وتقنية تعطيها ميزة إضافية ليست لدى بقية المشاركين من الجيل الأكبر في فريق العمل. وبالتالي، فهي لديها حصانة نفسية ضد النقد وضد الإحباط أيضاً. وخلال السنوات الأخيرة تنبه الجيل المتقدم في السن إلى أن هؤلاء الشبان والشابات لديهم من الأفكار والاستنتاجات والخيارات الناضجة ما ليس لدى الكبار، أو على الأقل جديرة بأن تُحمل على محمل الجد، ولذلك تهيأ صاحب الخبرة أو الكفاءة من غير الشبان لكي يسمع أفكاراً مفاجئة في نضوجها وصوابها أحياناً، حتى وإن لم يستسغها كلياً أو لم يكن مستعداً لتقبلها لسبب أو لآخر. وتكونت لدى هذا الجيل عادات جديدة في معاملة الجيل الشاب، منها الاستعداد للموافقة على المقترحات الشابة بندية لم تكن معروفة فيما مضى.

شباب بدون إطار

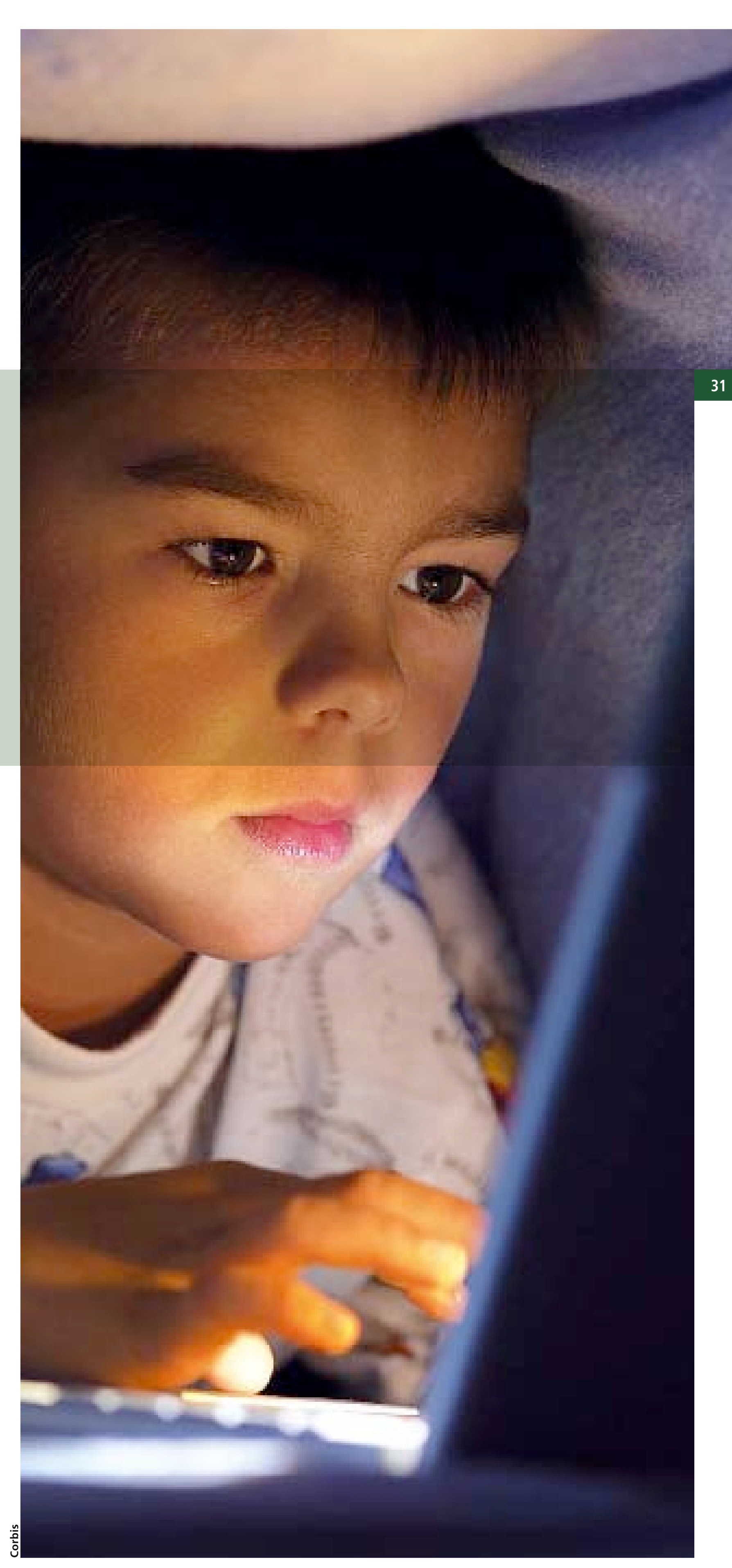
وبعد أن كانت الخبرة هي العامل الأول الذي قد يحدد كفاءة الشخص من عدمها، أصبح قطاع الأعمال بمختلف فروعه يتوجه إلى الشبان ذوي الخبرة الأقل، أو من دون خبرة على الإطلاق. وذلك لأسباب منها أن هؤلاء يرحبون بالتغيير بمرونة قد لا يمتلكها صاحب الخبرة الذي أمضى سنوات من حياته يعمل ضمن نظام معين لا يود تغييره. ونجد هذا واضحاً في مقال نشرته مجلة «Fast Company» المختصة بقطاع الأعمال. إذ يكتب المحرر مخاطباً رؤساء الشركات: «إن أردت أن تعمل شركتك خارج الإطار المعتاد، لم لا تتعلم العمل مع أشخاص لا يعرفون أساساً أن هناك إطاراً؟!». ونرى هذا الاتجاه لدى المراهقين الذين يعتمدون على التعلم الذاتي للحصول على مهارات تكنولوجية متقدمة، وتتكون لديهم أسئلة حول جدوى التعلم الجامعي في عالم تتغير فيه صناعة التكنولوجيا بسرعة ليصبح قضاء أربع سنوات من الدراسة الجامعية ضياعاً للوقت.

ونتيجة لإدراكهم أن العصر متغير، يتمتع الشبان الذين يلتحقون بسوق العمل اليوم بنوع من الذاتية إذا جاز التعبير. فهم لا يتوقعون من الشركات التي يعملون فيها إخلاصاً لهم، وهم بالتالي لا يتوقعون أن يكون هذا الإخلاص للشركة مطلوباً أيضاً، ليس بمعنى التصرف بقلة ولاء أو وفاء أو صدق في عملهم، فهم يتمتعون بأخلاقيات عمل سليمة ويعطون عملهم حقه، ولكنهم لا يرون قيمتهم في قيمة الجهة التي يعملون لأجلها، وإنما يرونها فيما يمتلكون من مهارات بالدرجة الأولى. غالبية هؤلاء لا يتوقعون أن تكون حياتهم المهنية مكرسة لوظيفة واحدة في شركة واحدة، وإنما يرونها كطريق متعرّج ينتقل من منصب إلى آخر، ومن مهارة إلى أخرى. وهذه الذاتية تدفعهم إلى رغبة محضة في إنشاء أعمالهم الخاصة، ففي استفتاء نشره مجلس أبحاث الرأي الأمريكي، دلت النتائج على أن 54 في المئة من الشبان ما بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين مصممين على تأسيس عمل خاص بهم، مقارنة بـ 36 في المئة من الجيل الأكبر ما بين الخامسة والثلاثين والرابعة والستين من العمر. وقدوة هؤلاء هو بيل جيتس الذي غادر مقاعد الدراسة الجامعية، ليتفرغ لإنشاء «مايكروسوفت». وفي الوقت نفسه، نجد أن هؤلاء الذين يمكن أن نطلق عليهم روّاد الأعمال الخلاقين، يصلون إلى مرحلة الدراسة الجامعية ولديهم خبرات عملية في عالم الأعمال تفوق تلك التي كانت لدى آبائهم أضعافاً مضاعفة. فمكتب العمل الأمريكي مثلاً يشير إلى أن نصف المراهقين ممن تجاوزوا الرابعة عشرة من العمر تقلدوا أعمالاً بسيطة مدفوعة الأجر، وتسعين في المئة من هؤلاء كانوا يعملون في إجازاتهم الصيفية، أما طلبة المدارس الثانوية، فيملك أكثر من خمسهم أسهماً يتاجرون بها.

ملمح آخر نراه في شباب اليوم، يختلفون فيه اختلافاً جذرياً عن جيل آبائهم، وأجدادهم. ففي الماضي، كانت الوظيفة تمثل أماناً من الفقر، ولهذا كان الجيل الأكبر سناً يحرص على الالتحاق بوظيفة وبالتالي الحصول على مرتب منتظم. أما جيل اليوم فلا تتحكم في اختياراته رغبته في الأمن المادي والوظيفي، بل إن الدافع الذي يحركه للالتحاق بوظيفة ما هو إجابة السؤال عما إذا كانت هذه الوظيفة ستتيح له فرصة الحصول على مسؤوليات حقيقية ومواجهة تحديات تنمو من خلالها مهاراته. ولطالما كانت القدرة على الصبر مرتبطة بسن النضج والحكمة، كما كان التململ مرتبطاً بسن الشباب والطيش. ولكن جيل الشباب اليوم هو أكثر تململاً من كل الأجيال السابقة. لم يكن لدى الأجيال السابقة قنوات تتيح لها التحرك بسرعة هائلة كما يفعل شبان اليوم. وما زلنا نتذكر انتظار النتائج الدراسية، أو البحث الطويل في المكتبة العامة عن معلومة ما. هذا الانتظار والترقب لم يعد شيئاً يستطيع الجيل الجديد فهمه أو هضمه، فالنتيجة الدراسية نستطيع الحصول عليها في دقائق عبر الإنترنت، والمعلومة التي نحتاج إلى معرفتها يتكفل «جوجل» بالبحث عنها في ثوانٍ، ثم يلقي إلينا بقائمة طويلة من المصادر التي نستطيع أن نرجع إليها من دون عناء. هذه القدرة على السرعة، ولدت لدى الجيل الشاب دافعاً لا يستطيع قهره لاستكشاف الجديد، والانتقال من تحدٍ إلى آخر من دون انتظار. وبينما كان الجيل الأكبر راضياً بقضاء ساعات طويلة في المكاتب، وسنوات أطول في شركة واحدة، أصبح الشاب اليوم يتطلع إلى موازنة الوقت في المكتب بحياته الاجتماعية ونشاطاته المختلفة خارج نطاق العمل. ونتيجة لهذا، تقدم الشركات الراغبة في توظيف الشباب خيارات مرنة مثل ساعات العمل القابلة للتغيير، والعمل عن بعد. ويتوقع المراقبون أن يصبح من النادر في المستقبل أن تجد موظفاً يقضي 20 سنة من حياته في شركة واحدة، وسنجد أن هذا المعدل سيتراوح ما بين الثلاث والخمس سنوات، وهذا لا يعني أن جودة العمل ستقل؛ إذ أن الشاب يدرك أن كل وظيفة هي درجة في سلم تقدمه العملي، ولهذا نجد أن التعلم المستمر هو أولوية بالنسبة له.

من الانتفاضات المثالية إلى الواقعية والتنمية

عندما انتفض شبان فرنسا عام 1968م، أُخذ على هذه الانتفاضة توجهها نحو شخص بمكانة شارل ديجول الرئيس الوطني الفرنسي وقتها. ولكنها كانت في الحقيقة جزءاً من ظاهرة أوسع، فأولئك الشبان قاموا غاضبين على نظام اجتماعي متيبس في مناهجه الجامعية ومواقفه السياسية وغيرها الكثير. الفرق بين ظاهرة الشباب الفرنسي في الستينيات أن هذه الظاهرة كانت انفجاراً أولياً ضد مجتمع محافظ وأدواته الصارمة، وكانت انتفاضة متأثرة بأفكار مثالية، علماً بأن هذه الظاهرة التي أدت إلى مناخ جامعي أكثر حرية وانطلاقاً، تعتبر ثمرة لجيل تأثر بالتلفزيون منذ مولده، وأسهم في ابتكار الكمبيوتر والإنترنت وانتشارهما. أما ظاهرة شباب اليوم، فقد استفادت من التطور التكنولوجي، وأصبحت انتفاضتها تتم عبر ممارسة يومية للتواصل مع أدوات التكنولوجيا، وهكذا وجدنا جيلاً ينشأ ببطء في أوكار بعيدة عن الأنظار. شابٌ يختبئ في مربع تتكون زواياه من جسمه ولوحة المفاتيح وشاشة الكمبيوتر المقابلة. يتحول فكره من مثالي إلى واقعي، ومن ثوري إلى تنموي عبر قناة أخرى صقلت قدرة الشباب على اكتشاف ذواتهم، هي ساحات الإنترنت، حيث إن الشاب يتقدم للميدان، دون أن يسمع من يصرخ به متحدياً مستفزاً:


Corbis

انتقل مركز السلطة الأسرية ولو جزئياً، من يد الأب والأم، إلى يد الطفل الذي يتعامل مع الكمبيوتر والأدوات التكنولوجية الأخرى كجزء طبيعي من واقعه.

هذا الميدان يا حميدان! لا رقابة ولا تصيّد للأخطاء أو الإيجابيات من قبل الأكبر سناً، وحتى من قبل الأقران. الساحة مفتوحة لاتخاذ القرارات، ولديه القدرة على اختيار ما يريد من مجموعة اختيارات. فإن مارس الحياة في الواقع الافتراضي بما فيه الكفاية، لم يرض أن يقبل بالخيارات المقدمة إليه على طبق من ذهب، بل أراد أن يصنع هو اختياراته، إما بمشروع، أو بموقع إلكتروني، أو بتأسيس جماعة افتراضية ما. هذه الحرية الهائلة التي تتيحها الإنترنت تسمح لأقل الطبائع جرأة بمساحة واسعة لأن تمارس المبادرة بأكمل صورها. هنا، تستطيع أن تدلي برأيك كما تريد، وهنا تستطيع أن تخطئ كما تريد.. وكل خطأ يجوز أن ترجع عنه، وليس من الحتمي أن يعرفه أحد من الأهل أو المعارف. ومن خطأ إلى نجاح ومن نجاح إلى خطأ إلى نجاح، تنمو ثقة الشاب في ذاته، ويكتشف الصواب من الخطأ، ويقدم على اتخاذ القرارات من دون رهبة معيقة لتنفيذه. في الوقت نفسه، نجد أن الساحة الافتراضية أعطت الشبان فرصة لاختبار الرأي قبل الخروج والمناداة به في الواقع الفعلي. يضع الشاب رأيه ضمن الجماعة التي تشاركه اهتماماته، فيشارك من يشارك في النقاش، ويمكن أن يتمخض عن هذا النقاش مشروع كامل ينفذ فعلياً. ليس لأن الفكرة فقط كانت جيدة، بل لأن التواصل بين المهتمين بها سمح بتشكيل فريق عمل منسجم قادر على الإنجاز. كان التلفزيون للجيل الأكبر نافذة جديدة يطل من خلالها على العالم أجمع، ولكن الإنترنت تقدمت خطوة إضافية، وسمحت للجيل الحالي بأن ينتقل من مقعد المشاهد، إلى تمثيل أي دور يريد، وعلى أي مسرح يختار.

للعملة وجهان

في مقال بعنوان «رِوِش طحن» يقول د. أحمد خالد توفيق: «الظروف القاسية التي يواجهها شبابنا، وعلامات الاستفهام التي تملأ المستقبل، ولَّدت فيهم تحدياً قد يتجاوز ما هو مطلوب أو صحي. إن لغتهم قد اتسعت لتحوي عوالم الميكروباص والكمبيوتر ومترو الأنفاق والإنترنت.. المعلومات كثيرة جداً.. الوجوه كثيرة جداً..

لا سبيل لاستيعاب هذا كله إلا بالسطحية والمزيد من السطحية.. كل شيء يجب أن يتم بسرعة وبلا تعمق... لقد تنبأ آندي وارهول - الفنان المجنون غريب الأطوار - بأنه في عام 2000م ستكون فرصة كل إنسان للشهرة ربع ساعة لا أكثر.. يمكن أن نقول أن نبوءته تحققت.. ويمكن أن نضيف إلى الشهرة أن كل معلومة.. كل رأي.. كل انفعال.. فرصته في البقاء ليختمر ربع ساعة لا أكثر..» ويبدو ما يقوله الكاتب منطقياً، ولكن علينا أيضاً ألا نغفل أن للعملة وجهين، وأننا نستطيع أن نجد من يتعامل مع كثرة المعلومات حولنا بسطحية تثير الدهشة بلا مبالاتها، في الوقت نفسه الذي نجد فيه من يتعامل معها بعمق يتجاوز مجرد المواكبة ليصل إلى القدرة على التصنيف والتحليل واتخاذ القرارات بسرعة تثير الدهشة.

ضمن تجربة رائدة أسسها ياسر مروة بعنوان «محترَف إبريق الزيت»، وهو عبارة عن مجموعة من الأطفال تتراوح أعمارهم ما بين 8 و 15 سنة، يلتقون ويرسمون، ويمثلون، ويقرأون الشعر، دعا المحترَف الأطفال إلى التأمل في الرسوم المنتجة من قبل أطفال المحترَف، والكتابة من خلال تأملهم هذا عن حكايات حول حقوقهم، وقد صدرت هذه القصص في كتاب بعنوان «نور». ومن أبرز ما يلفت الانتباه في هذا الكتاب، وهو ذاته ما علقت عليه السيدة سناء راضي رئيسة لجنة التحكيم في المشروع، هو مدى وعي الأطفال إلى واقعهم، بعيداً كان أم قريباً، وهذا الوعي المبكر هو نتيجة لقدرة الأطفال، الجيل الشاب بعد سنوات قليلة، على مواكبة المعلومات الهائلة التي تصلهم عبر وسائل الإعلام المختلفة.

أنتج وجه العملة الآخر، شباناً يتمتعون بمزايا يظهر تألقها في هذه المرحلة الانتقالية بالذات لأنها مرتبطة بنقيض لها هو الجيل الأكبر حيث إنه لم يعايش أدوات الاتصال الهائلة التي منحتها التكنولوجيا لأطفال الأمس شباب اليوم، بل اضطر إلى إدخالها على نسق حياته المعتاد، واستبدالها بما تعود عليه. لنتحدث مثلاً عن ولع الآباء بالحديث عن قدرات أبنائهم الخارقة في التعامل مع الكمبيوتر.. تأتي الأم إلى المربية «لتسر» لها بأن ابنتها البالغة من العمر تسع سنوات تجيد استخدام برامج مثل بوربوينت، وبالتالي هي موهوبة لا بد لها من عناية خاصة، ولا تلحظ هذه الأم المهتمة أن زميلات الصف كلهن يتعاملن مع الكمبيوتر بالقدرات نفسها وربما أفضل. لم؟! لأن هذه الفتاة تلعب في ميدان رياضتها المفضل، تعرفه وتحفظ ملامحه عن ظهر قلب، بالإضافة إلى أنها لا تحمل خلفيات الرهبة والهيبة من تعلم ما يجد من برامج الكمبيوتر، بينما لا تزال الأم تكافح لتتقن برنامجاً ما، وتنتقل إلى برنامجٍ آخر رغم استغراب فتاتها الصغيرة، ففي عرفها كل أدوات الكمبيوتر واحدة تقريباً، ومن يستطيع تعلم «الوورد»، يستطيع أن يتعلم «البوربوينت»، ولكن الأمر كما يقول مارشال ماكلوهان الجهل بكيفية استخدام المعارف الجديدة يتكدس فوق بعضه أضعافاً مضاعفة، وبهذا ينتقل مركز السلطة ولو جزئياً من يد الأب والأم إلى يد الطفل الذي يتعامل مع الكمبيوتر والأدوات التكنولوجية الأخرى كجزء طبيعي من واقعه، كما تفعل الأم أو الأب مع وسائل المواصلات مثلاً، بينما يظل الكمبيوتر بالنسبة لمركز السلطة المفترض في المنزل شيئاً لا بد من التعامل معه بحذر، خطوة بخطوة.

العمل التطوعي رغبة في التغيير

وهناك توجه آخر نشأ جيل العشرينيات فيه هو توجه العمل التطوعي، والمبادرة لأجل التغيير. وهذا التوجه بدا جلياً في تدافع الشباب على الالتحاق بالعمل التطوعي في الجمعيات والمؤسسات الخيرية، ثم إنشاء جماعات للعمل التطوعي لخدمة أغراض إنسانية تراها كل مجموعة هدفاً يستحق العمل لأجله، ومن تتبع برنامج مثل برنامج «صنّاع الحياة» الذي قدمه منذ فترة الداعية المصري عمرو خالد، رأى أن البرنامج لم ينجح فقط لطابعه الديني، ولكن لاستفادته من دافع مهم يحرك شباب اليوم، وهو العمل التطوعي وتمكينهم من التغيير. ونرى الأمر ذاته في تجاوب الشبان مع البرنامج التلفزيوني «يللا شباب» الذي قدم للشباب، عن طريق العنوان والمضمون، مفهوماً جديداً للعمل الحركي التنموي. وهذه الكثرة في ممارسة الشباب لعملية المبادرة واتخاذ القرار أهلتهم للحياة العملية وصقلت قدراتهم في الحكم على الأمور.

طاقية الإخفاء.. إلى السقوط
إذن، هل الشباب على الباب، فعلاً؟

بفضل العولمة، فإن ما يسري على دولة صانعة للثقافة العالمية كأمريكا، يسري على أية دولة أخرى ولو متأخراً. موجة الشباب الكفؤ الذي يتولى قطاع الأعمال هي موجة عالية بدأت بالفعل في غمر أمريكا، وبعض دول العالم الغربي، ولكننا في نطاق واقعنا الشخصي نراهم هنا وهناك على الباب، في تجارب صغيرة أو كبيرة على صفحات الإنترنت، ونراهم في عالم الصحافة في تجارب أخرى يحررون مادتها، ويخرجون شكلها الفني، ويقودون طريقها لتحقيق رؤاهم الخاصة، ونراهم في منصب قيادي، في هذه الشركة أو تلك، ونراهم في منظمات خيرية تطوعية تهدف إلى تغيير واقعي ترسمه نظرتهم المختلفة إلى الأمور. خطابنا عن شبابنا العربي خطابٌ متفائل لم يمتلك ثقةً كاملة فيما لديه، مستعجل فرح، مهتز.. يتلبس بلباس المعرفة والوقار أحياناً، ويرتدي طاقية الإخفاء خجلاً، أحياناً أخرى.

الشباب العربي.. من الظل إلى النور

نرى كفاءات عربية شابة ولا نراها. نتساءل عما إذا كانت النماذج التي نراها ضمن نطاقنا الشخصي الضيق هي نماذج معدودة لا تمثل شريحة حقيقية من شباب أنهكهم النقاد والتربويون بتهم السطحية والخواء أم أن هؤلاء هم طليعة مد قادم؟ ثم نرى منتدى عقدته منظمة القيادات العربية الشابة في ديسمبر الماضي، فنتوقف أمام الحدث، ونعرض نماذجاً تبشر بالخير.

«منظمة القيادات العربية الشابة» هي منظمة غير ربحية تأسست في دبي عام 2004م بمبادرة من الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، تتكون من قادة عرب في مختلف المجالات كقطاعات الأعمال والإعلام والرياضة والصحة، يجمعهم على اختلافهم إدراكهم عبر التجربة الشخصية ما يمكن أن تحققه كفاءة الأداء العملي، والمبادرة في سن مبكرة من نجاح وتميز. ولكي تكون عضواً في هذه المنظمة عليك أن تكون قائداً فعالاً في مجال تخصصك، وأن تكون مؤمناً بالعمل لتفعيل دور الشباب العربي وإعداده لتولي القيادة العربية المستقبلية في مختلف القطاعات.

منظمة أخرى تؤمن بالقيادات الشابة هي «شبكة دعم الأعمال العربية»، وهي مبادرة مشتركة بين شركة دبي القابضة ومنظمة القيادات العربية الشابة. تقوم هذه الشبكة بتشجيع رواد الأعمال الشباب، وتكميل المهارات الإدارية لديهم وتقديم الدعم المادي لمن تثبت قدرته على الاستثمار.

ننتقل لنتفحص عن قرب تجارب عربية شابة بدأت افتراضية واكتمل تأثيرها واقعياً.

وقد تكون تجربة عبدالله الشرهان، تجربة رائدة في هذا المجال.

عبدالله شاب إماراتي درس إدارة الأعمال، ويعمل حالياً في إحدى أكبر شركات التسويق الإماراتية. وبالإضافة إلى عمله يرسم عبدالله ويؤلف سلسلة كرتونية معنونة باسم بطلها سوكوول، وهدف هذه السلسلة هو إيصال الرسائل التربوية أو التوجيهية من نفس مستوى الناشئ في صورة صديق له، قريب منه في المظهر والتصرفات. أسست شركة سوكوول في بداية العام 2005م، وتبع ذلك إطلاق بوابة إلكترونية للسلسلة تتيح للشباب المساهمة في إنتاجها، وتحوي ضمن فروعها أكاديمية إلكترونية لتعلم الرسم الكرتوني.

تجربة أخرى تمثلها «عشرينات»، والكلمة لها مدلولها الواضح في واقع شبكة الإنترنت، فهي صحافة يفترض أن تهم شباب العشرينيات، ويحررها ويخرجها أيضاً شباب في العشرينيات. بدأت عشرينات كتجربة مؤلفة من فريق مصري شاب، هو ببساطة يرغب في أن ينتمي إلى صحافة يرى نفسه ممثلاً فيها بواقعية وصدق ويدعو الشباب من مختلف الدول العربية للمشاركة معه. اليوم، نجد تقارير عشرينات الصحفية من كافة الدول العربية.

تجربة أخرى يمثلها أصحاب المدونات العربية، يقدمون فيها يوميات لحياتهم كما يرونها. من بين هذه المدونات شخصيات برزت بصفتها الأكثر فاعلية في مجتمع المدونين الافتراضي والفعلي، فظهرت «بهية»، وهو موقع مدونة صحفية سياسية فوجئ الكثيرون من متابعي الكاتب المصري محمد حسنين هيكل عندما قال على شاشة قناة الجزيرة: «فيه ظاهرة في الإنترنت، المجتمع اللي إحنا مش شايفينه أمامنا، فيه واحد بيكتب باسم مستعار، اسمه بهية، معرفش مين بهية دي، لكن والله أنا بطلب من مكتبي يدونوا لي مقالات بهية كل ما تطلعله مقال أنا بقرأه باهتمام وباحترام أكبر مما بقرأ لأي صحفي في أي جريدة» ومدونة بهية يكتبها ثلاثة شبان مصريين اختاروا الاسم رمزاً لمصر.


أرشيف المحترف السعودي

ومن مصر إلى السعودية، حيث تعرض مدونة «سواليف فرح» التي تكتبها الطالبة السعودية ذات العشرين ربيعاً، وتقدم سواليف فرح صورة نقدية طبيعية عن مدينة الرياض كتابياً وفوتوغرافياً، وقد توجت صحيفة الإندبندنت البريطانية مدونتها كمدونة أسبوع كامل من شهر يونيو 2005م.

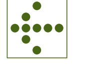
تجربة أخيرة في سياق التدوين الافتراضي، هي تجربة محمد سعيد احجيوج، المعروف في عالمه الافتراضي بـ م. س. احجيوج، وهو في عمر منصور العتيق. يصدر الأديب المغربي احجيوج – رئيس تحرير جريدة طنجة الأدبية – مجلة بعنوان «التدوين بلا حدود»، يجمع فيها ما تميز من مقالات المدونين العرب بعد الاتفاق معهم. تقرأ في المجلة وعياً متجدداً بعيداً عن الأطر الجامدة التي اعتدنا رؤيتها في غالبية الصحف العربية، وترى بين صفحاتها انعكاساً لواقع افتراضي تسهل عملية تفهم ملامحه لمن لم يندمج بعد فيه.

وعلى صفحات الإنترنت نجد أيضاً منظمة شبابية عالمية بعنوان «Taking IT Global» ، ويصف موقعها المنظمة بأنها منبر على الإنترنت للأفكار والتعبير الحر، ومصدر لتوفير الفرص، بالإضافة إلى كونها شبكة متصلة من الشباب النشط ومشروعاتهم الملهمة. منسقة القسم العربي إيمان عبيد، وهي فتاة مصرية لم تتجاوز الثالثة والعشرين من عمرها، نجحت في التنسيق بين أربعين شاباً وشابة من مختلف دول العالم العربي لإنشاء الموقع العربي للمنظمة، وبالتالي السماح لأعضائها من الشباب العرب، التنسيق بين بعضهم البعض في إقامة الفعاليات التي تعبر عن مواقفهم من القضايا العالمية المختلفة على أرض الواقع.

حتى سنوات قليلة خلت، كان الحديث عن «التنوع الحيوي» يعطي انطباعاً عاماً يقتصر في معظم الأحيان على أنه مرادف لجمال الطبيعة وغناها. ولكن تقدم الدراسات العلمية الدقيقة في علاقات الأنواع الحية ببعضها، بات يضع جمال الطبيعة في آخر الاعتبارات، بعدما وصل إلى التأكيد على أن هذا التنوع شرط من شروط بقاء الإنسانية. بسام الحلبي* يعرض آخر ما توصلت إليه الأبحاث في هذا المجال، وأهمية إنقاذ الأنواع الحية المهددة بالزوال.

التنوع الحيوي

الشرط الكبير مهدد



خلال شهر سبتمبر الماضي، أصدرت المجلة العلمية «سيانتيفيك أميريكان» عدداً خاصاً بالتحديات الستة التي تواجه الإنسانية اليوم. وقد خصت المجلة المعروفة برصانتها ودقتها قضية انقراض بعض الأنواع الحية بعنوان مستقل ضمن هذه القضايا الست، التي تضمنت: الانفجار السكاني، حلول لأزمة الطاقة، الوجه الجديد للأمراض، الماء، وإنهاء الفقر.

أهمية التنوع

قد لا يكون من الضروري أن نتوسع في تفاصيل الدور الذي يلعبه تنوع الكائنات الحية في بيئة محددة في إبقاء هذه البيئة على ما هي عليه. فالدراسات كثيرة ومنها ما يتناول مناطق بيئية محددة جداً بدءاً بأمريكا الجنوبية وانتهاءً بالشرق الأوسط أو الأقصى. وخلاصتها كلها أن انقراض نوع واحد من الأنواع الحية في هذه المنطقة يؤدي إلى زعزعتها بزمتها وإلقائها على حافة المجهول. ولأن هناك صلة وثيقة ما بين بيئة أية منطقة في العالم وبيئات المناطق المجاورة، يمكن لأي تغير سلبي في أي مكان في العالم أن يقود إلى سلسلة من التفاعلات السلبية التي لا يمكن إدراك مداها وحجمها.

ولو بسّطنا الأمور ومثّلنا الأرنب البري في الغابة لتوضحت الصورة. فالأرانب البرية تعيش في بعض الغابات وهي معروفة بأنها تتكاثر بسرعة، وتتغذى على النباتات الصغيرة وجذورها. ولكن وجود هذه الأرانب يبقى طبيعياً في حالة واحدة فقط، ألا وهي وجود حيوانات مفترسة في الجوار مثل الذئاب، الضباع، والثعالب التي تتغذى عليها. ومن دون هذه الحيوانات المفترسة تتكاثر الأرانب فتهدد الغطاء النباتي ومن ثم تقضي عليه متسببة بأسوأ التأثيرات على حياة الحشرات ومن ثم الطيور في الغابة نفسها.

إلى ذلك، هناك مثل أكثر تعقيداً ولكنه يبقى واضحاً. لقد قامت بعض الدول في الماضي بزرع غابات من نوع واحد من الأشجار، مثل أمريكا التي لجأت إلى زرع نوع من الشربين الباسق في جبال مونتانا على مساحات شاسعة لغرض الاستفادة لاحقاً من الأخشاب، أو تعويضاً

* أستاذ في علم الأحياء وباحث في الشؤون البيئية



الأنواع بالملايين، ولا غنى لواحد منها عن الآخر

عن استثمار أخشاب الغابات الطبيعية. وفي سورية مثلاً، تم زرع غابات من الصنوبر ضمن حملات التحريج في البلاد. فماذا كانت النتيجة؟

من أصل 10000 نوع من الطيور يفترض أن ينقرض نوع واحد كل قرن من الزمن. أما الإيقاع الحالي فهو أسرع من ذلك مئة مرة

بقيت هذه الغابات فقيرة بالحياة الحيوانية، ولم تستوطنها إلا أنواع محدودة يمكنها أن تكتفي بهذا النوع المحدد من النبات كغذاء. ولأن التوازن الحيوي مفقود في هذه البيئات، فقد تفشت فيها الحشرات المسببة لأمراض الشجر ويباسها، لأن العدو الطبيعي لهذه الحشرات غير موجود. وأيضاً، تسجل في هذه الغابات نسبة حرائق أعلى بكثير من غيرها. لأن شجر النوع الواحد، تتساقط أوراقه كلها في الموسم نفسه، فتكسو أرض الغابة بطبقة سريعة الاشتعال عند أي عبث إنساني أو صاعقة. أما تنوع الأشجار في الغابة الواحدة فهو أفضل ضمانة ضد انتشار الحرائق. لأن فترة تساقط أوراق شجرة معينة تختلف عن فترة تساقط أوراق الشجرة المجاورة. وإذا اندلع حريق بجوار شجرة جافة، فإن رطوبة واخضرار الشجرة المجاورة يشكلان عائقاً أمام انتشار النيران.

فعلى مدى ملايين السنين، كانت الغابات والمناطق البيئية المختلفة تتطور محققة أفضل أشكال التوازن ما بين الكائنات الحية التي تضمها. ولكن الإنسان بدأ يزعزع هذا التوازن أينما كان في العالم. وتسبب، وغالباً عن غير عمد، في انقراض بعض الأنواع مهدداً بذلك عدداً أكبر، واضعاً نوعية الحياة برمتها على حافة المجهول.

تسارع وتيرة الانقراض

في المجلة المتخصصة «الوضيحي» التي تصدرها الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية في المملكة العربية السعودية، هناك باب ثابت مخصص لنوع حي تم اكتشافه ولنوع آخر تأكد انقراضه. وإذا كان استمرار اكتشاف الأنواع الحية الجديدة أمراً طبيعياً طالما أن آلاف أنواع النباتات، ومئات آلاف أنواع الحشرات لا تزال غير مكتشفة أو غير مصنفة علمياً، فإن توافر مادة لزاوية ثابتة في مجلة دورية حول أنواع انقرضت هو بحد ذاته جرس إنذار خطير، محيّر ومحزن. وواقع الأمر في العالم يؤكد ذلك.

الانقراض الطبيعي وغير الطبيعي

للدلالة على خطورة الوضع الحالي على صعيد التنوع الحيوي، ننطلق من الإشارة إلى أن انقراض الأنواع الحية كان ولا يزال ظاهرة طبيعية في الأساس، وهو جزء طبيعي من دورة الحياة على وجه الأرض، إذا كانت أسبابه طبيعية، لأن الأسباب نفسها تساعد على نشوء أنواع جديدة. (باستثناء ربما انقراض الديناصورات وما شابهه). ولفهم إيقاع نشوء وانقراض الأنواع الحية يمكننا أن نأخذ الإنسان مثلاً. فلو افترضنا أن معدل عمر كل إنسان 75 سنة، ففي عينة من 75 شخصاً نتوقع وفاة شخص كل سنة. بتطبيق هذا الإيقاع على عالم الطيور وأنواعه، فمن أصل 10000 نوع، يجب أن نتوقع انقراض


المحترف السعودي


المحترف السعودي

بتغير المحيط البيئي، يصبح البقاء نفسه مهدداً

نوع واحد كل قرن من الزمن. أما الإيقاع الحالي الذي تُجمع عليه كل المصادر، فهو مئة مرة أسرع من ذلك! بعبارة أخرى، لقد دخل الانقراض عصر «اللا طبيعي».

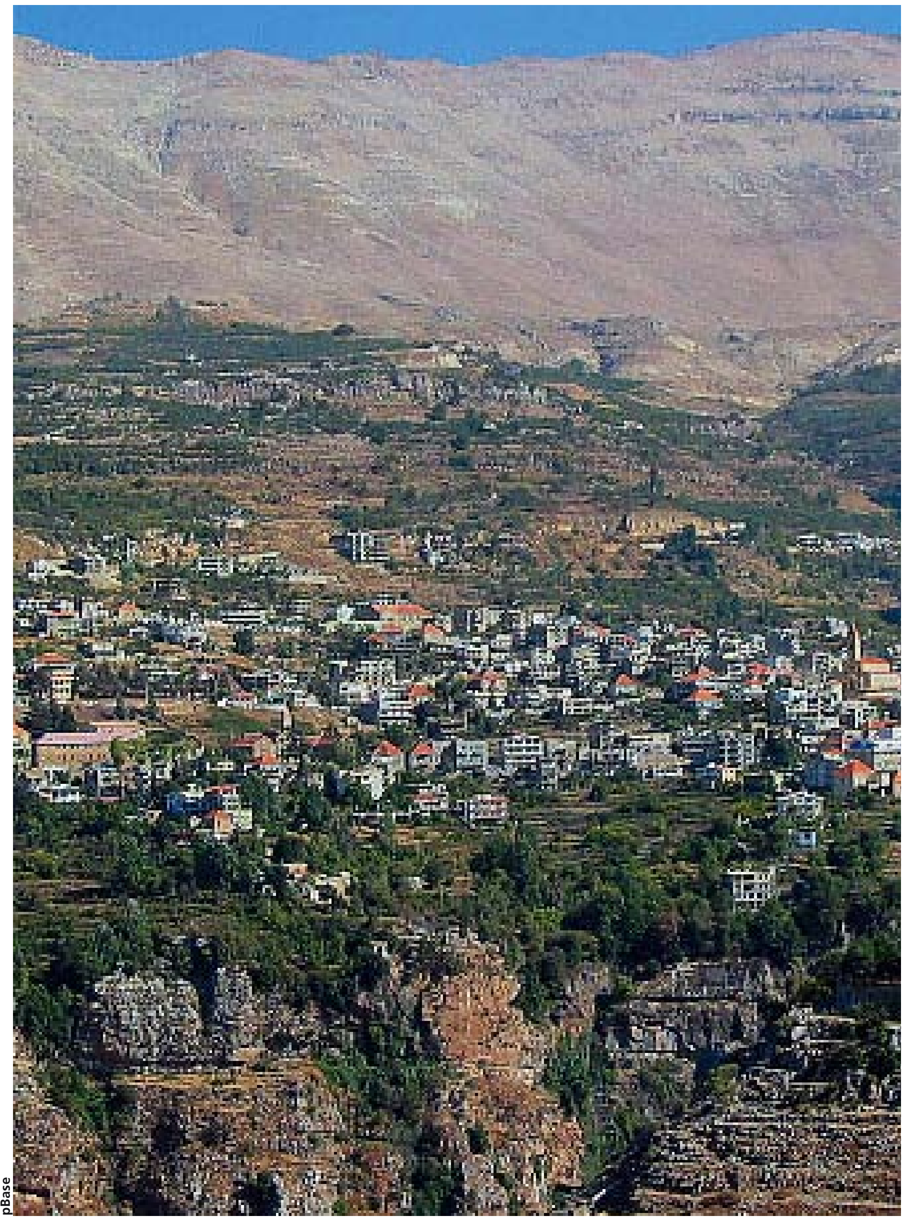
نصف الأنواع الحية من حيوان أو نبات يعيش في 25 منطقة مدارية خسرت 70 في المئة من غطائها النباتي

وفي البحث عن أسباب الانقراض غير الطبيعي نجد أنها كلها تعود بشكل أو بآخر إلى سلوك الإنسان: الصيد الجائر، تدمير المواطن الطبيعية للبناء أو الزراعة، نقل الأنواع من مكان إلى آخر (مثل الجرذان)، إضافة إلى الاحتباس الحراري الذي قد يعادل في خطورته تدمير المواطن الطبيعية.

خريطة التنوع و «بقاعه الساخنة»

من المرجح أن نصف الأنواع الحية من حيوان ونبات يعيش في 25 منطقة مدارية، وغالباً في الغابات الموجودة في هذه المناطق. ولأن الإنسان قضى على 70 في المئة من النباتات الحرجية في هذه المناطق خلال القرن العشرين، فإن تزاوج عاملي كثافة الأنواع الحية وتسارع تدمير المواطن الطبيعية هو الأساس الذي اعتمده العالم نورمان مايرز في جامعة «ديوك» لتحديد «البقاع الساخنة» في العالم.

فإضافة إلى الغابات المدارية الثلاث: الأمازون في أمريكا الجنوبية، وحوض الكونغو، وبورنيو الإندونيسية، حيث لا يزال التنوع الحيوي في مأمن نسبي، فإن غابات مطرية مدارية عدة تعرضت للتدمير حتى حدود الخطر: شمال شرق شبه القارة الهندية، القسم الأكبر من مدغشقر، نحو نصف غابات أمريكا الوسطى، غرب إفريقيا، والغابات الأطلسية في البرازيل.


العمران في حوض المتوسط يهدد بانقراض عدد من الأنواع أكبر مما تسبب به التدمير الجزئي للغابات المطرية في شرق آسيا

أما لائحة البقاع الساخنة التي خسرت أكثر من 70 في المئة من غطائها النباتي والتي تضم أكثر بقليل من نصف الأنواع الحية (أي دخلت مرحلة الخطر) فيبلغ عددها 25 منطقة كما أشرنا، وأهمها: جنوب غرب أستراليا، جنوب وسط الصين، نيوزيلندة، القوقاز، جبال لبنان وسورية الساحلية حتى كل غرب تركيا، المناطق الأوروبية المتوسطية، وكل سواحل المتوسط تقريباً خاصة الجزائر والمغرب، كاب فلوريستيك في جنوب إفريقيا، السيرادو في البرازيل، جبال الأنديس ووسط التشيلي والمنطقة الساحلية من كاليفورنيا. وتخلص دراسة العالم مايرز إلى التشديد على أن وقف تدهور الغطاء النباتي في هذه «البقاع الساخنة» يمكنه وحده أن ينقذ نصف الأنواع الحية في العالم.

غطاء النبات في العالم

وفي جهد مماثل، وضع علماء ألمان من جامعة بون مؤخراً أول أطلس نباتي في العالم، استناداً إلى 1800 مطبوعة تم جمعها على مدى سنتين. ويبين الأطلس كثافة التنوع النباتي في العالم بأسره، ليشكل دليلاً مساعداً على وضع سياسات الحماية والإنقاذ الضرورية. ويشير الأطلس بداية إلى أنه اعتمد على 250,000 نوع من النباتات المصنفة في العالم (في حين أن العدد الحقيقي كما يقدره البعض هو ما بين 300,000 و 350,000 نوع) باستثناء الطحالب والفطريات. ويبين الأطلس أن ذروة التنوع النباتي هو في جزيرة بورينو الإندونيسية (أكثر من عشرة آلاف).

وتنخفض هذه النسبة إلى نحو ثمانية آلاف نوع في غابات أمريكا الوسطى وحوض الأمازون. ويعتبر الأطلس المناطق «غنية» عندما يزيد عدد الأنواع النباتية فيها على الثلاثة آلاف من دون اعتبار للكم. ومن هذه المناطق إضافة إلى ما عددناه سابقاً: كل جنوب شرق آسيا، نيوزيلندة وشمال شرق أستراليا، كل إفريقيا الوسطى وسواحل سيراليون وليبيريا، بلاد البلقان، الساحل الشرقي للمتوسط (سورية، لبنان، فلسطين)، جبال الألب في أوروبا، حوض الميسيسيبي والمكسيك في أمريكا. أما أقل المناطق تنوعاً في العالم (نحو 500 نوع فقط) فهي، وسط جنوب أستراليا، هضبة الهملايا وصحراء مونغوليا، تخوم جبال عسير في السعودية وشرق اليمن وبعض مناطق الصحراء الكبرى في إفريقيا. (أما الجزيرة العربية بشكل عام فيتراوح عدد أنواعها النباتية ما بين 500 و 1000 نوع).

مخاطر الانقراض ليست في الغابات المطرية ولافي المناطق العمرانية، بل حيثما ينشط الإنسان بجوار بيئة غنية

أين يكثر انقراض الأنواع؟

بخلاف ما هو شائع في أذهان الكثيرين الذين يعتقدون بأن أكثر المناطق نمواً حضارياً هي التي تشهد أكبر عدد من انقراض الأنواع، أو أن الغابات المطرية التي تضم الآلاف والملايين هي المعنية بهذا الخطر أكثر من غيرها، فإن الحقيقة تدعمها الإحصاءات تؤكد أن هاتين البيئتين هما الأقل تضرراً حتى الآن والأقل ضرراً على التعدد الحيوي.

فالكائنات الحساسة تعيش في تجمعات وسط بيئات ملائمة لها. ولو أخذنا المحيطات على سبيل المثال، لوجدنا أن العلماء وإن كانوا يجهلون الكثير عن أنواع الحياة فيها، فهم متأكدون أن العدد الأكبر من الأنواع موجود في المناطق المرجانية.. أي في المناطق القريبة من النشاط الإنساني. فكلما كبر النشاط الإنساني بجوار نظام بيئي متعدد الأنواع، كلما كبرت لائحة الكائنات المهددة بالانقراض. وعلى سبيل المثال، فإن النشاط العمراني والصناعي في مصر لا يشكل تهديداً بارزاً للأنواع النباتية والحيوانية فيها، وذلك لقلة كثافتها.

أما النشاط العمراني والصناعي في حوض المتوسط وخاصة سواحله الشرقية والشمالية، فيهدد بانقراض عدد من الأنواع أكبر بكثير مما تسبب به التدمير الجزئي للغابات المطرية في شرق آسيا. والدليل على ذلك اختفاء الكثير من الثدييات الكبيرة مثل النمر والفهد والدب من شرقي المتوسط خلال القرن العشرين، في حين أن عدد الثدييات الكبيرة التي انقرضت تماماً في شرق آسيا خلال الفترة نفسها هو أقل من ذلك.

همٌّ جديد في السياسة العالمية

بدءاً من السنوات القليلة الماضية، شقّت قضية إنقاذ التنوع الحيوي طريقها لتحتل مكاناً رئيساً بين اهتمامات العالم على الصعيد البيئي. ومن المرجح جداً أن تتجاوز قريباً كل تفاصيل الشؤون البيئية لتصبح مباشرة وبوضوح قضية نوعية حياتنا على الأرض. فقد ولّى زمن الدفاع عن الفيلة من باب الرفق بالحيوان، وحلّ عصر الدفاع عن أصغر الكائنات والحشرات لارتباط مستوى حياتنا ونوعيتها بوجود هذه الكائنات



StockXchange

الأورانج أوتان: مثال عن النوع المهدد بالانقراض بسبب تدمير بيئته

والحشرات. وإذا كان الاحتباس الحراري من المواضيع الرئيسة على جداول أعمال قمم زعماء العالم، فإن التنوع الحيوي يشق طريقه بسرعة، وقد يتجاوزه قريباً جداً. والقضية ليست سهلة أبداً.

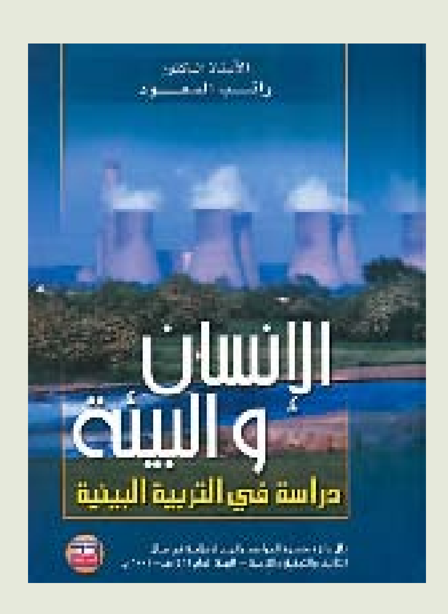
بعد تدمير 7 ملايين كيلومتر مربع من الغابات المطرية، فإن مساحة المزروع منها لايزيد على المليونين

فالمشكلة التي تعيق التعامل مع وجوب الحفاظ على الأنواع تكمن في أنه يستدعي إيجاد حلول لسلسلة طويلة جداً من القضايا الجانبية، وما الاحتباس الحراري إلا واحد منها. فالدول النامية والفقيرة ترى أن من حقها عمل كل شيء للنمو الاقتصادي. وتتطلع إلى الغابة على أنها مصدر أخشاب صالحة للبيع، ولا أحد يستطيع أن ينكر عليها ذلك. ولا أحد يستطيع وقف العمران والبناء أو إنكار حق شعب ما في ذلك. ولكن، وبالمقابل، يضرب العلماء مثلاً صارخاً في تحديه لمنهج العمل القائم حالياً. فيقولون إنه تم حتى الآن تدمير 7 ملايين كيلومتر مربع من الغابات المطرية في العالم، أي حوالي نصف مساحتها الأصلية، ولكن مساحة مليوني كيلومتر مربع فقط تحولت إلى الإنتاج الزراعي.

وفيما يشدد هؤلاء على أهمية نشر الوعي في محيطات تجمعات الأنواع الحية إلى أهمية هذا التنوع - وفي هذا المجال يجب البدء من الصفر في كثير من دول العالم - فإن الدول الصناعية والغنية تجد نفسها أمام خيارين: إما ترك الأمور تجري بما هي عليه حالياً، مكتفية بتوجيه النصح والإرشاد غير القابل للتطبيق، وإما التورط سياسياً واقتصادياً مع بقية دول العالم في سبيل إنقاذ التنوع الحيوي مع كل ما يفرضه ذلك من إعلان مناطق حماية، وتعويضات اقتصادية عن المشروعات التدميرية التي يتم إلغاؤها مثل بناء السدود وتجفيف المستنقعات، وقطع الغابات وما إلى ذلك. خاصة وأن التجارب الفعلية أثبتت أن إنقاذ نوع واحد مهدد بالانقراض يتطلب إمكانات مادية، مهما كانت ضئيلة فإنها تبقى أكبر من قدرات الدول الفقيرة والمجتمعات المحلية. بدليل أن الأمثلة الناجحة في هذا المجال تأتي فقط من دول تمكنت من رصد الموازنات الكبيرة في هذا المجال مثل المملكة العربية السعودية (الوضيحي والمها والنمر العربي) أو من دول وجدت حلفاء أغنياء وجمعيات أجنبية لإنقاذ حيواناتها المهددة بالانقراض (مثل جمعية الأمير تشارلز في بريطانيا لإنقاذ الباندا في الصين).

وبانتظار حصول هذا الاستنهاض العالمي المشترك، سيبقى التنوع الحيوي في خطر داهم. والمهم أن يحصل هذا الاستنهاض فعلاً ونحن لا نزال نملك من الأنواع ما يكفي للحفاظ عليها.. وعلى حياتنا أيضاً.

اقرأ للبيئة



التربية البيئية .. للجميع

يتميز كتاب (الإنسان والبيئة-دراسة في التربية البيئية) بأنه لايخاطب قطاعاً معيناً من الناس أو الاختصاصيين فقط، بل يستهدف قطاعات المجتمع كافة، وإن كان طلبة الجامعات هم المعنيون به أكثر من غيرهم.

يقع هذا الكتاب الصادر عام 2004م عن دار الحامد للنشر والتوزيع في عمّان في 264 صفحة، ويتضمن ثلاثة أبواب هي: إيضاح مفهوم البيئة وقوانينها، والمشكلات البيئية الرئيسة، وأخيراً وسائل حماية البيئة التي يمثل العلم والتربية مكاناً بارزاً فيها.

يشار إلى أن المؤلف الدكتور راتب السعود كان قد نال جائزة منظمة العواصم والمدن الإسلامية في مجال التأليف والتحقيق والترجمة-البيئة لعام 1421هـ - 2001م. وقد اعتمد المؤلف تبسيط لغته وأسلوبه لإيصال موضوع كتابه إلى الجميع.

زاد العلوم

1 كيف يتكون المرجان

يبلغ قطر الحيوانات التي تشكل المرجان نحو 2.5 سم، وهي تدعى البولبات. وهذا الحيوان هو أسطواني في الشكل مزود عند أحد طرفيه بقرون استشعار دقيقة في حين يلتصق الطرف الآخر بالصخر في قاع البحر.
يعيش المرجان على أعماق تتراوح ما بين نصف و 25 متراً، في المياه التي تتراوح حرارتها ما بين 23 و 31 درجة مئوية. ولهذا الحيوان شريك في عملية بناء الحيد



StockXchange

المرجاني، ألا وهو العشب البحري «Alguaes». فهذا العشب يتغذى على الأزوت والفسفور الذي تفرزه حيوانات البولبات، ويمنحها بالمقابل الجلوكوز والدهنيات اللازمة لها. ونتيجة لهذا التبادل تنمو يرقات البولبات التي بوصولها إلى سن النضوج تبدأ ببناء أعشاشها عن طريق جمع الكالسيوم الذائب في مياه البحر وترسيبه بعد أن تحوله إلى كاربونات الكالسيوم. وتساعد الأعشاب البحرية على امتصاص بعض الأحماض التي تفرزها البولبات وقد تؤذي هذه الأعشاش الصلبة.
ومن ثم تتطور الأمور باتجاه ضرورات الحياة. ولأن الأعشاب تحتاج إلى ضوء الشمس، فإنها تتجه إلى النمو صوب الأعلى أي فوق الأعشاش التي تهجرها البولبات لاحقاً لبناء أعشاش جديدة فوقها، أو إلى جانبها ولكن دائماً في اتجاه صاعد.
أما معدل ارتفاع البناء المرجاني عمودياً أو انحناءً فهو في حدود السنتيمتر الواحد في السنة. ويمكن لهذا العمل الدؤوب الذي تقوم به هذه الكائنات الصغيرة أن يدمَّر بالكامل إذا ضربته عاصفة استوائية قوية مرتين في الموسم الواحد، أو إذا وقع ضحية طيش الإنسان.

2 الانفجار السكاني وهامش الخطأ الكبير

إذا كان هناك إجماع على أن عدد سكان العالم يزداد باضطراد، وسيرتفع خلال العقود القليلة المقبلة إلى مستويات تستوجب الاستعداد لها منذ الآن، فإن تقديم الأرقام يبقى باعتراف الجميع عرضة للتقلبات، مع هامش خطأ يقاس بـ ..(المليارات).
فقد جاء في إحدى الدراسات التي نشرت مؤخراً أن استمرار معدل الولادات والوفيات على ما كان عليه سنة 2005م يعني أن عدد سكان العالم سيرتفع إلى 11.7 مليار نسمة عام 2050م. ولكن العلماء يتوقعون أن يؤدي الوعي والحروب والأوبئة إلى اقتصار العدد المتوقع على 9.1 مليار نسمة.
وإذا أنجبت النساء ما معدله أكثر بنصف ولد مما هو مفترض، فإن العدد سيكون 10.6 مليار نسمة.
أما إذا أنجبن ما معدله نصف ولد أقل من المتوقع فسينخفض العدد إلى 7.7 مليار نسمة.



StockXchange

3 الفيتامين (أ) أساس التناظر



يميل موقع القلب في جسم الإنسان قليلاً إلى اليسار، أما الكبد فإلى اليمين، أما الأمعاء فتتلوى بشكل أفعواني غير منتظم هندسياً.. والكثير من الأعضاء الداخلية موجود بالمفرد في جهة واحدة من جهات الجسم. أما في الشكل الخارجي للإنسان فإن هناك تناظراً ما بين جهته اليمنى وجهته اليسرى.

ولو رسمنا خطاً من أعلى الرأس حتى القدمين على وجه إنسان ما، لوجدنا أن إحدى الجهتين نسخة مطابقة تماماً للجهة الأخرى. وبعدما حير هذا التناظر العلماء لسنوات عديدة، توصل فريق فرنسي-أمريكي مشترك من اكتشاف سببه المدهش: الفيتامين (أ).

فقد تمكن الأطباء من رصد معركة تنشب ما بين الحمض الراتينويك الذي هو من مشتقات الفيتامين (أ) وعدوه اللدود البروتين المعروف بـ(F.G.F) منذ اللحظات الأولى لبداية تشكل الأجنة. وفي حين أن هذا البروتين يميل إلى تشكيل العظام والأنسجة العضلية بشكل غير متناسق أو غير متناظر، فإن حمض الراتينويك يميل إلى العكس، ويبدأ بمهاجمة هذا البروتين انطلاقاً من رأسه ويستطيع أن يغلفه بالكامل خلال تسعين دقيقة.

وقد تأكد العلماء من النتائج من خلال اختبارات أجروها على الدجاج والأسماك، حيث أدى تحييد هذا الحمض عن وظيفته إلى تشكل العظام والأنسجة بشكل غير متناظر على الإطلاق تحت تأثير البروتين الفوضوي.

ومعلوم أن نقص الفيتامين (أ) هو مشكلة على صعيد الصحة العامة في الكثير من المجتمعات الفقيرة التي تشهد أكثر من غيرها تشوهات خلقية في المواليد. الأمر الذي يدعم بدوره صحة الملاحظة العلمية المكتشفة حديثاً.

4 الكوكب الجديد ينتظر الاعتراف به

خلال الصيف الماضي، اكتشف علماء الفلك في مرصد ماوف بالومار في كاليفورنيا جرماً سماوياً كبيراً في مجموعتنا الشمسية أطلقوا عليه بدل الاسم رقماً تسلسلياً (2003UB313).

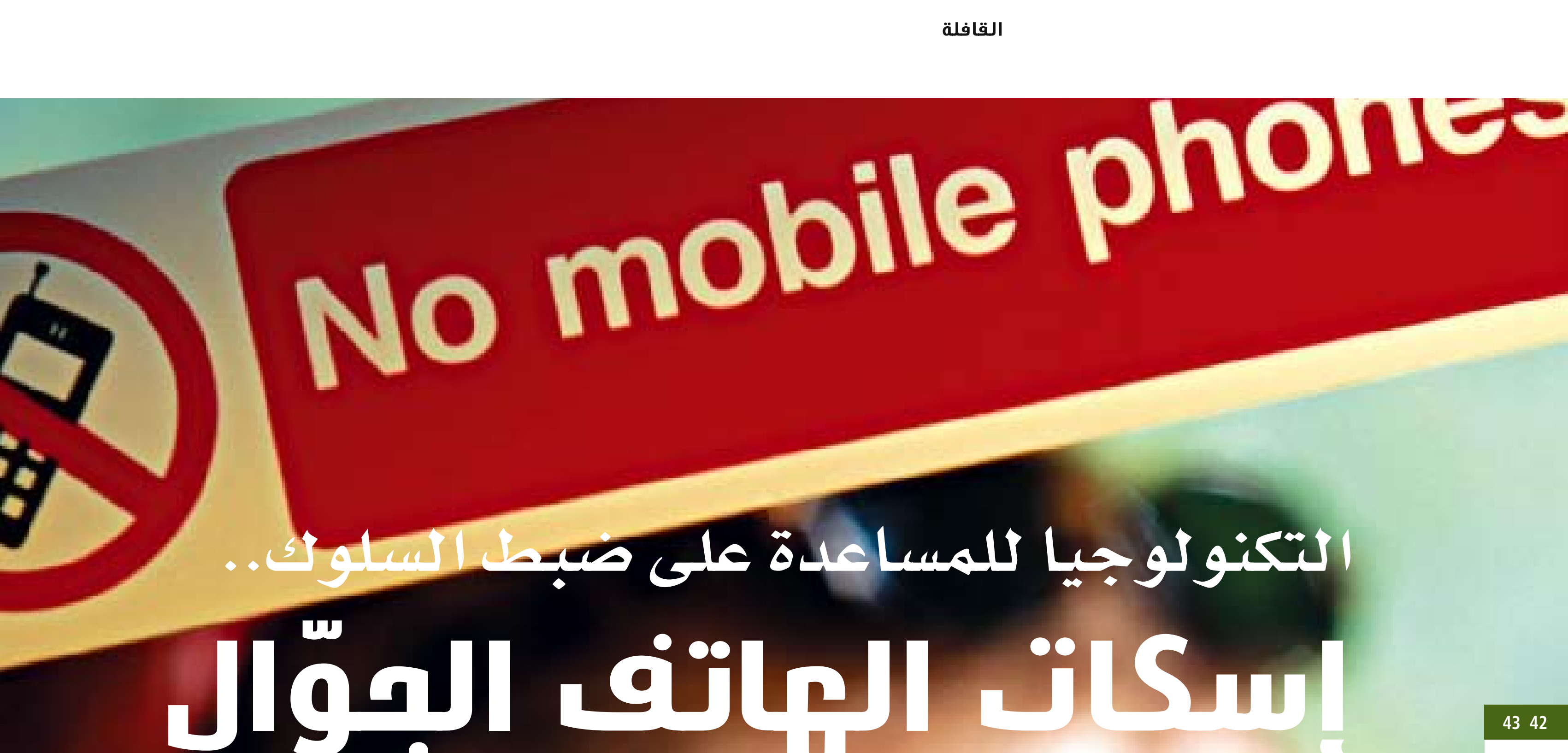
ويقول العلماء إن أحداً لم يكتشف هذا الكوكب قبل الآن، لأن مداره مائل جداً (نحو 45 درجة) مقارنة خرى، كما أن دورته حول الشمس بطيئة جداً، إذ تبلغ سنته الشمسية 560 سنة أرضية.

وإذا أكد التلسكوب الفضائي (هابل) تقديرات العلماء الأمريكيين الذين يقولون إن قطر هذا الكوكب هو 2800 كيلومتر (مقابل 2250 كلم لكوكب بلوتون) فهذا يعني تصحيح كل ما كتب سابقاً عن المجموعة الشمسية ورفع أعداد كواكبها إلى عشرة. أما إذا بقي هناك إصرار على اعتبار كواكب المجموعة الشمسية تسعة، فيجب إنزال مرتبة بلوتون من كوكب إلى صخرة فضائية عملاقة.

وتجدر الإشارة إلى أن الكوكب المكتشف يبدو عبر أجهزة التلسكوب بلمعان كوكب بلوتون نفسه مع أنه أبعد منه عن الأرض نحو خمس مرات.



NASA



التكنولوجيا للمساعدة على ضبط السلوك..

إسكات الهاتف الجوّال

بعد قضية التأثيرات الصحية للهواتف النقّالة التي لم يحسم أمرها لعدم توافر الأدلة العلمية القطعية، انتقل الاهتمام إلى قضية أخرى تتمثل في التأثيرات الاجتماعية والأدبية. ولأن حسن السلوك الفردي يبدو غير كافٍ، فقد هبّت التكنولوجيا لتعالج الإخلال في آداب استخدام الهواتف الجوالة. الدكتور علي حسين مقيبل وشادي إبراهيم القاضي من قسم الهندسة الكهربائية في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن يتناولان آخر ما توصلت إليه وسائل إسكات الهواتف الجوالة وضبط استعمالاتها.

FotoSearch

مع الانتشار الهائل للهواتف الخلوية الذي تجاوز ملياري مستخدم مؤخراً (2005م)، أصبحت الهواتف النقالة سمةً من سمات الحياة في العالم. ولكن هذا الانتشار صاحبه تجاوزات أدبية واجتماعية يتراوح تأثيرها بين تجاوز الممنوع المطلق والمقيد (رنين الهواتف أثناء الصلاة أو المحاضرات أو اجتماعات العمل) وإزعاج الآخرين وتخطي الأعراف الاجتماعية واللياقة أثناء اجتماع الناس في الحفلات أو المناسبات الاجتماعية.

تلك التجاوزات، مع وجود أماكن تشكل الموجات الصادرة عن الجوال خطراً عليها مثل المستشفيات وشركات الغاز ومناطق إنتاج البترول، جعلت من حلول إسكات الرنين (أو إلغاء الإرسال بالكامل) مطلباً ضرورياً للتغلب على الإزعاج ولإجبار الناس على مراعاة الذوق العام ومبادئ السلامة.

تجاوزت المطالبة بحلول لإسكات الهواتف الجوالة النواحي الأمنية للشركات والمؤسسات لتصل إلى الأفراد الذين يطالبون بإيقاف إزعاج الهواتف في المساجد وبمنع استخدامها أثناء القيادة (كما في أكثر من ثلاثين دولة في العالم). و «عدم الرد على مكالمة لن يقتلك ولكن الحادث قد يفعل» هذا تعليق وزير النقل البريطاني بعد إعلان منع استخدام الأجهزة المحمولة في المملكة المتحدة (غرامات تبدأ من 30 جنيهاً للمرة الأولى وتصل إلى 2500 جنيه إسترليني لسائقي سيارات النقل العام).

تقسيم الوسائل

وتتوزع الوسائل الموجودة حالياً لإسكات الهواتف النقالة، من حيث التأثير إلى قسمين:

- وسائل لإيقاف الإشعاعات الصادرة من الهواتف النقالة (Signal Isolation) وذلك لتأثيراتها على الأجهزة الأخرى (أجهزة الطيران والأجهزة الطبية)، أو لخطورة الشرارات الإلكترونية التي قد تتسبب في حصول انفجار (مصانع الغاز ومصافي النفط) أو لاعتبارات أمنية (الاجتماعات المهمة والمؤسسات الحكومية).

- وسائل لإسكات رنين الهاتف (Acoustic Isolation) وذلك لمنع الإزعاج.

ويمكن أيضاً تقسيم الوسائل من حيث استخدامها لمصادر الطاقة إلى:

- **وسائل فعلية (active):** تحتاج إلى مصدر طاقة لإسكات الرنين أو للتحكم بموجات الهاتف. (تشمل قاطع الإرسال والتدخل المباشر والكشف).

- **وسائل حماية سلبية (passive):** وهي لا تحتاج إلى مصدر طاقة. (وتشمل حجب موجات الجوال).

وفيما يأتي سنتعرض لشرح تقني مبسط لأهم الوسائل المستخدمة مع التأكيد على أن العلاج السلوكي وزيادة الوعي جزء رئيس من أي حل.

قاطع الإرسال (Jammer)

لعل هذا الاسم المتداول غير ملائم علمياً، والأصح أن يطلق عليه مشوش الإرسال؛ لأن هذا الجهاز لا يقطع الإرسال أبداً، وإنما على العكس تماماً فهو يقوم بإرسال موجات إضافية للتشويش على موجات شبكة الجوال (على ترددات الجوال نفسها) ويكون إرسالها محصوراً داخل مدى معين بحيث لا تستطيع أجهزة الجوال داخل ذلك المدى الاتصال مع الشبكة لا إرسالاً ولا استقبالاً. وهذا المبدأ هو نفسه المستخدم في التشويش على الإذاعات أو الاتصالات العسكرية (الحرب الإلكترونية).

أما السلبيات المترتبة على هذه الأجهزة فتشمل:

- **اعتبارات السلامة:** عدم القدرة على إجراء أية مكالمة صادرة أو واردة بما في ذلك مكالمات الطوارئ.

- **الإشعاعات:** زيادة الإشعاعات التي يتعرض لها الإنسان مما قد يسبب مشكلات صحية (رغم عدم ثبوت ذلك) أو التشويش على أجهزة وخدمات أخرى (المستشفيات).

- **حرمان المشتركين من الخدمة:** بسبب صعوبة ضبط منطقة تأثير التشويش، فقد يمتد إلى أماكن أخرى مجاورة.

- **الاعتبارات المتعلقة بالخصوصية** قد تناقض نواحي قانونية بشأن التشويش على موجات الأجهزة النقالة. فالتشويش على موجات الجوال عبارة عن إرسال غير مرخص وتعدٍ على الطيف الترددي الذي يعتبر أحد أهم الممتلكات العامة للدولة، ويتم تأجيره لشركات الجوال بمبالغ طائلة. فقد نصّت أهم توصيات الاتحاد الدولي للاتصالات (ليس لأي شخص -أو منظمة- الحق بإعاقة أو تشويش أي اتصالات لاسلكية

بلا مسوغ قانوني) وهنا يبرز تناقض مع مبدأ الملكية الشخصية (للمالك حق التخلص من الظروف غير المرغوب بها في حدود ملكيته). ولكن قد تسبب الخصوصية الشخصية هنا تضارب مصالح بالنسبة للمالك والأشخاص الآخرين في حالة أماكن عامة مثل المطاعم، إذا تم التشويش بلا علم الأشخاص. غير أنه يمكن معالجة النقطة الأخيرة بإجبار أصحاب الأماكن بوضع لافتة تنبيه تدل على وجود قاطع إرسال في المنطقة.

التدخل المباشر (Intervention)

يتم بالتواصل المباشر مع جهاز الهاتف نفسه أو مع أبراج الجوال لإسكات النغمة أو لقطع الإرسال. ففي حالة التواصل مع الهاتف يتم إرسال رسالة قصيرة تفاعلية للهاتف، تحمل الأمر بتحويل الوضع إلى الصامت أو الهزاز (Interactive Flash SMS) ولصاحب الجهاز القبول أو الرفض. كما يمكن فعل ذلك عن طريق برنامج يقوم بإسكات رنين الهاتف عند المرور بمناطق معينة (عن طريق البلوتوث Bluetooth). ولكن قد يحتاج الجهاز إلى تغييرات (برامج ووسيلة اتصال لاسلكي كالبلوتوث).

بين التشويش والتدخل المباشر وقطع الإرسال والحجب، لكل وسيلة سلبياتها وإيجابياتها

أما التواصل مع الأبراج فيكون بموافقة شركة الجوال عن طريق الاتفاق على قطع الإرسال، أو عدم إيصال أو استقبال المكالمات في خلية معينة (أو قطاع من خلية) لمدة محدودة. أو يمكن أن يكون باستخدام جهاز يعمل عمل البرج كباعث للموجات، وعندما تكون الأجهزة في نطاق تغطيته يقوم بنقلها من الشبكة العامة للجوال إلى شبكته الخاصة. وظيفة عمل هذا الجهاز هي القيام باستقبال موجات الجوال (بموافقة شركة الجوال طبعاً) والعمل كبرج جوال لإيصال الخدمة إلى الأجهزة التي تقع داخل نطاق بثه سواء كانت إرسالاً أو استقبالاً. أكبر ميزة لهذه الأجهزة هي مرونتها. إذ يمكن برمجتها لمنع استقبال وإرسال المكالمات أو للسماح بالإرسال فقط أو العكس وأيضاً يمكن منع جميع الاتصالات ما عدا مكالمات الطوارئ.

الكشف عن الهواتف النقالة (Detection)

في هذه الوسيلة يتم استخدام لواقط هوائية على تردد الهواتف النقالة، وفي حالة وجود أية إشارة سيتم تنبيه الشخص تنبيهاً صوتياً أو مرئياً لإقفال جهازه أو إسكات رنينه. هذه الوسيلة مفيدة للاستخدام عند مداخل المستشفيات والمصانع (إغلاق الجوال) أو المساجد (نغمة الرنين). أما حجم أجهزة الكشف فيعتمد على مدى التغطية المطلوبة. فيمكن استخدام أجهزة محمولة باليد لأغراض التفتيش الشخصي (مدى أقل من متر) أو أجهزة ثابتة للكشف عن وجود أي أجهزة جوال في غرفة معينة أو عند الاقتراب من باب معين (المدى يصل إلى خمسين متراً).

الحجب أو التسليح (Shielding)

لا يعني التسليح بالبناء المسلح وإنما باستخدام أنماط بنائية أو تزيينية تمنع موجات الجوال (تردد 900 – 1800 ميجا هرتز) من الاختراق إما بامتصاصها أو بعكسها. وذلك ممكن ذلك بعدة طرق، منها استخدام أجزاء معدنية شبكية النمط لتغطية الجدران والأسقف (مع

الوسيلة	السلامة	الخصوصية	القانونية	ملاحظات
مشوش (قاطع) الإرسال	لا يوجد	لا	لا (غالباً)	يمكن التنبيه لوجود مشوش إرسال (لافتة)
التدخل المباشر (الجهاز)	نعم	نعم	مسموحة	لا يتم إيقاف الموجات (قد يحتاج تغييرات في الجهاز)
التدخل المباشر (البرج)	أحياناً	لا (الشبكات المزيفة)	أحياناً	بموافقة شركة الجوال
الكشف عن الأجهزة	أحياناً	نعم	مسموحة	التنبيه للإغلاق أو للإسكات
الحجب	لا	لا	مسموحة	إيقاف وصول الموجات

التأريض) أو باستخدام دهان للتقليل من نسبة الموجات التي تخترق الجدران. كما يمكن ذلك باستخدام نوافذ (أو تجليد للنوافذ) أو ستائر أو ألواح تجميلية ذات قدرة على امتصاص وعكس موجات الجوال (بعض النوافذ والستائر الحاجبة المتوافرة تجارياً تصل نسبة الحجب فيها إلى 99.9 في المئة).

المقارنة بين البدائل المختلفة

تمتاز كل وسيلة من الوسائل المذكورة سابقاً بميزات عن الأخرى ولكن لاختيار الوسيلة المناسبة ينبغي أخذ عدة نقاط في الاعتبار:

- **الناحية الإشعاعية (الصحية والأمنية):** تفضل أساليب الحجب على الأساليب الأخرى التي لا تنقص (أو قد تزيد) الإشعاعات، ويمكن أيضاً استخدام أجهزة الكشف عن الجوالات للتحذير عند أبواب أقسام المستشفيات.

- **مراعاة السلامة وعدم التعدي على الخصوصية الشخصية:** و تعني إمكانية إجراء مكالمات الطوارئ وأن يكون صاحب الجهاز النقال موافقاً على إسكات هاتفه أو قطع الإرسال عنه أو يكون على علم بذلك.

- **الأمور القانونية وتداخل الموجات:** تظل الأمور القانونية شائكة نوعاً ما بالنسبة لناحية التشويش على الإرسال. فبعض الدول كالولايات المتحدة تمنعه منعاً باتاً وتضع عليه عقوبات صارمة (تصل إلى 11,000 دولار غرامة وسجن لمدة سنة) وهناك دول أخرى تشمل فرنسا واليابان والبحرين تسمح بالتشويش على الإرسال في أماكن معينة فقط (مثل المسارح والأندية الخاصة). أما بقية الدول فلا تسمح بالتشويش على أي تردد بشكل عام. ولكن لا توجد أحكام خاصة للتشويش على الهواتف النقالة بالتحديد. أما بقية الوسائل فهي قانونية أو لم يرد ما يمنعها.

قد يكون أي حل من الحلول السابقة الحل الأمثل حسب متطلبات الموقف. ولكن على المدى الطويل لإيجاد الطريقة المثلى يجب إدماج الحلول بالشبكة العامة للجوال لزيادة ناحية السلامة، مع المحافظة على النواحي الأمنية والخصوصية، وللتحكم الأمثل بالوسائل سواء كانت وقتية (أوقات الصلاة أو النوم) أو مكانية (المسارح والقاعات). وقد يكون الحل الأمثل هو زيادة جرعة الوعي عند الناس وتثقيفهم على مراعاة الذوق العام ومبادئ السلامة.

النعمة والنقمة

في ستينيات القرن الماضي، صدر كتاب فرنسي بعنوان «التهذيب» يهدف إلى تعليم أولاد الأرستقراطيين اللياقة وحسن التصرف. مؤلفه واحد من كبار الأرستقراطيين الفرنسيين: الدوق دي لوفي - ميريبوا.

وفي الفصل المخصص للحديث عن الهاتف (الثابت طبعاً آنذاك) يبدأ الكاتب حديثه بالقول: «لو أن الهاتف كان موجوداً على أيام دانته، لخصه بفصل كامل في كتاب الجحيم»! ويفسر الكاتب عدائيته لبعض مساوئ الهاتف بالقول: «تخيل أنك في جلسة تفكير أو تأمل، أو أنك وسط محادثة لبقة مع ضيف، فيرن الهاتف ليقطع المحادثة، وينقلك من اهتمام إلى آخر ويجبرك على الاعتذار من ضيفك...». وإذا كان هذا هو موقف الكاتب من الهاتف الثابت، فما الذي يمكن أن يقوله عن الجوّال؟

بعد فترة الابتهاج التي عرفناها جميعاً خلال الأشهر أو السنوات الأولى من عمر الجوّال، حين كان يسعدنا أن نجري مكالماتنا الضرورية وغير الضرورية من أي مكان، بدأنا نضيق ذرعاً به في بعض الأوقات.

وبعدما كانت جوالات الآخرين رهن جوالنا في أي وقت من أوقات الليل والنهار، بات الجوال المقفل أمراً مألوفاً غير مثير للاستغراب. لقد سهّل الجوال الكثير من أمور الحياة، وبات صديقاً لصيقاً لا يمكن الاستغناء عنه. ولكن هذا الصديق اللصيق سلبنا شيئاً غالياً. استقلالنا الفردي عن الآخرين، الذي نحتاجه بين الحين والآخر. سمح الجوال بمعالجة بعض سلبيات فقدان الاستقلال الفردي هذا عن طريق «تسهيل الكذب»، مثل «أنا في البيت»، ويكون المتحدث في مدينة تبعد مئة ميل عن بيته.. أو «ربما كنت في مكان لا يوجد فيه إرسال»، أو «حاولت أن أرد ولكن البطارية فرغت..» إلى ما هنالك.. فقد وضعنا الجوال في تصرف الآخرين في أي وقت يشاؤون، وبات هؤلاء يعتقدون بأن بقاءنا في تصرفهم هو حق لهم علينا. بدأنا نسكت الجوال قسراً أولاً في الأماكن التي تمنع استعماله. ثم طوعاً خلال الليل، ومن ثم لتلافي المكالمات غير المستحبة المتوقعة. ومع ذلك، يلحظ البعض غيظاً عند الآخرين، أو يسمع عتاباً منهم لأنهم حاولوا الاتصال به وكان جواله مقفلاً لوقت طويل، الأمر الذي يضطره إلى تقديم تفسير لذلك، حتى ولو كان هذا التفسير مختلقاً.

لا شك أن فترات إسكات الجوال صارت اليوم أكبر مما كانت عليه خلال السنوات الأولى من عمره. والأمر طبيعي. ولكن الوصول إلى الوضع السليم لعلاقتنا بالجوال لن يكون إلا بالوصول إلى التعامل مع إسكات الجوال وكأنه أحد استعمالاته الأساسية. وهذا يعني الوعي الكامل أن الآخرين ليسوا في متناولنا متى ما شئنا وأينما كانوا. فهم أفراد مستقلون وأحرار، يحق لهم من دون أي خلاف معهم أن يخرجوا من دائرة المتصلين المحتملين بهم.. من دون عتاب ومن دون اعتذار.

مأمون محيي الدين

قصة ابتكار

النظــارة



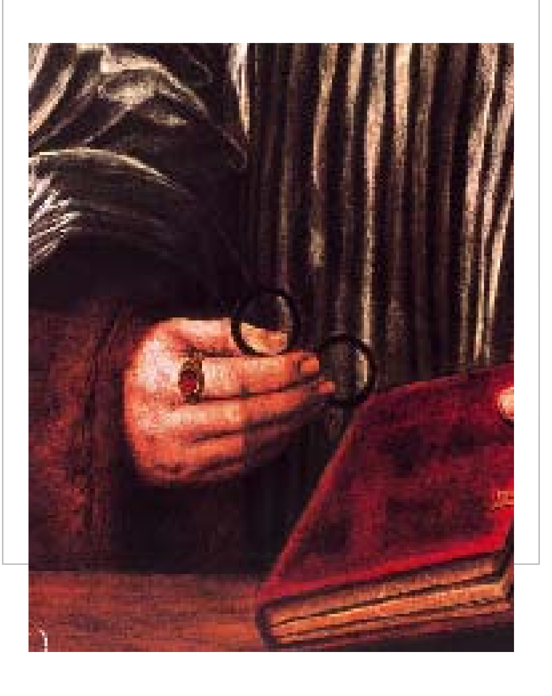
بشكل عام، وبدءاً من سن الخامسة والأربعين، تبدأ عدسة العين بفقد قدرتها تدريجياً على الانقباض والانبساط، فتبدأ متاعب النظر.

المعمّرون من الكتّاب والشعراء والفلاسفة القدماء عبّروا بمرارة عن هذه المشكلة التي اضطرتهم إلى الاستعانة بالخدم كي يقرأوا على مسامعهم ما يريدون قراءته، إلى أن ظهر ابن الهيثم.

كان العالم العربي أبو علي ابن الحسن ابن الهيثم (996 - 1038م) أول من بدأ بدراسة النظر والضوء وقوانين انعكاساته على المرايا ومن خلال الزجاج، مستنتجاً أول مجموعة من الحقائق العلمية في هذا المجال، ومنها دور شريحة من كرة زجاجية في تكبير صورة شيء صغير موضوع خلفها. وشجعته ملاحظته العلمية هذه على تصنيع أول مكبّر مساعد للرؤية.

في العام 1240م، ترجم أحد الأوروبيين ويدعى إيزام غوليك فيتاللو مؤلفات ابن الهيثم من العربية إلى اللاتينية، ليسهم بنشر ملاحظات العالم العربي وقوانينه العلمية على أوسع نطاق، فتلقف الأوروبيون أفكاره ومبتكراته بسرعة.

في البدء تم استعمال بعض الحجارة الكريمة الشفافة مثل الكوارتز والبيريل، فكان يتم صقل إحدى جهتي الحجر بشكل مسطح تماماً، والجهة الثانية على شكل قبة صغيرة ويوضع الحجر من جهته المسطحة فوق الكتاب فتبدو الحروف من قبته أكبر وتسهل قراءتها.



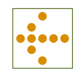
ومن ثم ظهر تأطير هذه «الحجارة الكريمة» بإطارات من خشب أو من عظم حيواني، وزوّد الإطار بمقبض. وبسرعة، ونتيجة التجارب العديدة، راحت هذه العدسات ترق أكثر فأكثر، وظهرت منها أنواع محدبة من الجهتين.

في بداية القرن الرابع عشر الميلادي، روّج أحد الإيطاليين ويدعى أليساندرو دي سبينا لابتكار جديد يجمع عدستين من خلال قوس يربط إطارين ببعضهما، ويمكن الإمساك بهما أمام العينين، أو وضعهما بشكل مستقر فوق الأنف.

وعلى الرغم من أن النظارة بقيت على هذا الشكل لنحو أربعة قرون قبل ابتكار الشكل الذي يجمعها إلى خلف الأذنين لمنعها من السقوط، فقد أدت دوراً بالغ الأهمية خلال عصر النهضة الأوروبية وما تلاها. لأنها، وبكل بساطة، أطالت عمر العطاء الثقافي والأدبي والفكري الذي كان يتعثر أو يتوقف قبل اختراعها عند الخمسينيات من العمر، وصار بعدها يمتد حتى المراحل المتأخرة من الشيخوخة.

قصة مبتكر

زريـــاب



هو أبو الحسن، علي بن نافع، من أصل فارسي، وكان مولى المهدي، الخليفة العباسي، لقب بزرياب تشبيهاً له بطائر أسود اللون وحسن الصوت.

ولد زرياب في بغداد، ونشأ وترعرع فيها، حيث كان تلميذاً لإسحاق الموصلي بصورة سرية إلى أن حفظ أساليب الغناء وأسرار التلحين. ولما ذاع صيت زرياب استقدمه الخليفة هارون الرشيد إلى بلاطه ليستمع إليه، وقد أعجب به الرشيد كثيراً لما سمعه وطلب من أستاذه إسحق أن يعتز به، إلا أن إسحاق داخله الحسد والحقد، فقام بتهديد زرياب بالقتل أو الخروج من بغداد، فاختار زرياب الخروج من بغداد والتوجه إلى الأندلس حيث كان يحكمها آنذاك الخليفة عبدالرحمن الثاني، فكتب زرياب إلى الخليفة يستأذنه بالدخول إلى بلاطه فأذن له. وقد أعجب به الخليفة بعد أن سمع غناءه، وقربه إليه لدرجة أنه أسكنه بيتاً متصلاً بقصره لكي يستدعيه إلى مجلسه وقتما يشاء.

أسس زرياب مدرسة كانت الأولى من نوعها في ذلك الوقت، لتعليم الشباب والفتيات أصول العزف ومبادئ الغناء. وقد أدخل على فن الغناء والموسيقى في الأندلس تحسينات كثيرة أهمها أنه أضاف وتراً خامساً على عود إسحق، وجعل أوتار العود من الأمعاء. كما استحدث مضراباً من قوادم النسور للضرب على الأوتار بدلاً من الخشب، وأصلح الدفوف والمزامير وأحكم صنعها. وقد أدخل إلى الموسيقى مقامات كثيرة لم تكن معروفة في الأندلس من قبل، ساعده على ذلك حفظه للآلاف من المقطوعات الموسيقية مع ألحانها.

لم يكتف زرياب بإغناء العلوم الموسيقية فحسب، بل قدم العديد من الإضافات في عدة ميادين أهمها شغفه الكبير بالمظهر الخارجي والأناقة، والذي قاده إلى تعليم الأندلسيين كيفية ارتداء الملابس التي تتناسب وفصول العام، كما عدّل زرياب من هيئات الثياب فقصرها، وضيق الأكمام وأعطاها هيئة جميلة كانت موضة العصر.

تفنن زرياب في ابتكار قصات الشعر، كتقصيره جداً عند الجانبين وإرساله خلف الأذنين، وابتكر للنساء تصفيفات جديدة عرفت باسمه، ومنها طريقة حلاقة الصف الأمامي وذلك بإسدال الشعر على الجبين مع قصه في موازاة الحاجبين.



وإضافة إلى كل ما ذكر، أدخل زرياب تقاليد المشرق الإسلامي في الطعام، فوضع لهم طرقاً لإعداد أطباق وأصناف جديدة عرفت باسمه، وابتعد بها عن الأصناف التقليدية كالعصائد والثريد إلى الأشكال والألوان التي عرفها أهل الشرق، الذين علمهم صناعة الحلويات ومنها (الزلابية). وإلى جانب هذا التأثير في فن الطبخ، تميز بأسلوبه الذي قلده الناس في كيفية تقديم الطعام في الحفلات. فعلّمهم فرش المناضد واستخدامها أثناء الطعام، إضافة إلى استخدام الملاعق والسكاكين بدلاً من الأصابع. كما ونجح زرياب بتحضير أرقى أنواع العطور من الزهور مباشرة مبتعداً عن الدهانات وعطورها. وغدت أساليب زرياب نموذجاً يتبعه كبار القوم، وتسارع الناس إلى تقليد أساليبه وموضاته المتعددة.

لاشك أن زرياب الذي توفي في قرطبة سنة 230هـ (845م)، يعتبر رائد الغناء العربي، وأبرز من ظهر خلال الحضارة العباسية في بغداد والأموية في قرطبة في هذا المجال، وقد أرسى أبو الحسن قواعد للغناء ظلت تدرس في المعاهد والمدارس الموسيقية إلى يومنا الحاضر.

اطلب العلم

تُرى هل أصبحت أخيراً تقنيات اللمس (التي تمكّن المستعملين من «لمس» الصور المجسمة) جاهزة للخروج من أقبية المختبرات إلى عالم الواقع؟

تستطيع في عالم الحواسيب الافتراضي أن تشاهد الصور دون أن تلمسها. بيد أن التطورات في الرسوم الحاسوبية جعلت من الممكن إنشاء صور تخدع العين بواقعيتها، ولكنها تبقى مع ذلك غير قابلة للمس. إذ هي مجرد أشباح ضوئية حشرت خلف زجاج شاشة الحاسوب.

تقنيات اللمس

إبراهيم سعيد أبو صيام *

أما تقنية اللمس فتستخدم وسائل تحاكي الخصائص الطبيعية في الأجسام مثل الضغط واللون والحرارة والاهتزازات والأحاسيس الأخرى المرتبطة باللمس. وهي إحدى التقنيات التي يعشقها الباحثون، ولكن يندر أن تشاهد كمنتجات تجارية.

وقد أصبحت هذه الأنظمة تزداد تعقيداً وكفاءة في المختبرات. ويعتقد رئيس فريق أبحاث اللمس في جامعة «Reading» أن التقنية الآن جاهزة للاستعمال على نطاق أوسع. فيقول: «لقد شهد مشروعنا الأخير خطوة بارزة نحو إيجاد الأسس للمعدّات والبرمجيات والتحكّم لأجهزة اللمس سريعة الاستجابة التي تعمل بعدة أصابع»، حيث يدخل المستعمل أصابعه في فناجين مطاطية مركبة على ذراعي إنسان آلي، ويتحكم الحاسوب في حركتها بكل دقة ليعطي إيحاءً بملامسة سطح طلب. ويصبح من الممكن بعد ذلك تصميم صور ثلاثية الأبعاد حرّة الطفو يمكن التعامل معها من كل الجوانب.

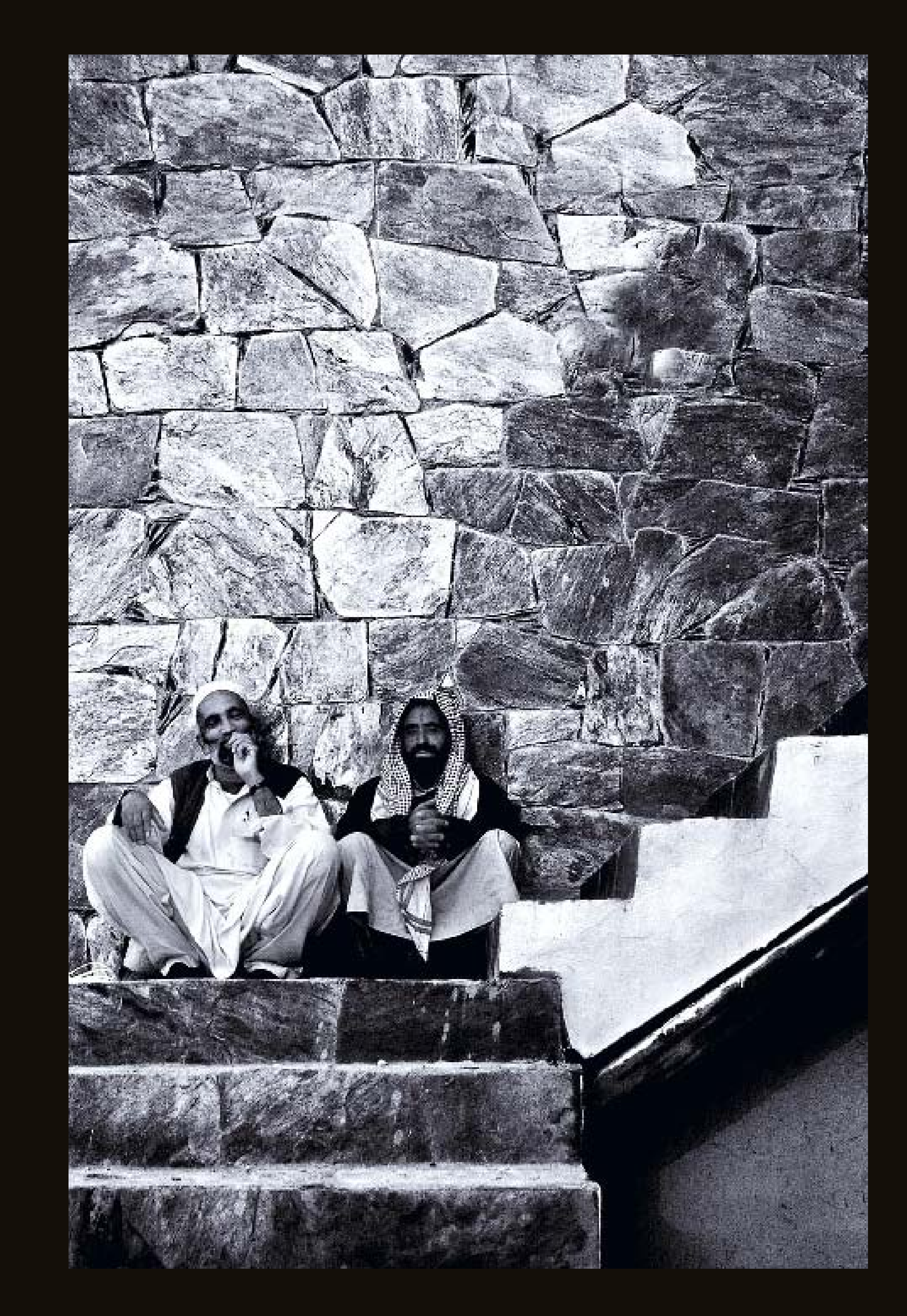
فيم يمكن استخدام هذه التقنية؟ الطب حتى الآن هو أكثر الأسواق نضجاً في هذا المجال حيث تستعمل تقنية اللمس هذه في أجهزة تدريب الأطباء، وهذا يجعل أجهزة المحاكاة الجراحية حالياً هي الأساس في عمل كثير من شركات تقنيات اللمس.

وقد أخذت تقنيات اللمس تشق طريقها مؤخراً إلى المنتجات الاستهلاكية، فهناك كثير من أجهزة التحكم في ألعاب الفيديو (مثل عجلة القيادة المستجيبة وعصا التحكم) تحتوي على أدوات مبسّطة من تقنيات اللمس فتمكّن سائقي سيارات السباق والطيّارين الافتراضيين من الإحساس بالمطبّات في الطريق المصطنعة أو بلعلعة البنادق الآلية. وسوف تدخل هذه التقنية قريباً الهواتف الخلوية حيث تعاونت «Immersion» مع «سامسونغ» لإنتاج تقنية تسمى «VibeTone» ستظهر للمرة الأولى في نهاية هذا العام. فكما يمكن برمجة الهواتف الحالية لإصدار نغمات رنين مختلفة باختلاف صاحب المكالمة ستقوم تقنية VibeTone بذلك عن طريق اهتزازات مختلفة، وسوف تعرف إن كان المتكلم رئيسك في العمل أو زوجتك أو المربية دون أن تدخل يدك في جيبك.

تبقى مع ذلك مشكلة تكلفة المعدات، غير أن أسعارها في هبوط مستمر. كانت هذه التقنية باهظة في الماضي وصعبة البرمجة، ولم يكن من السهل دمجها مع برمجيات أخرى. وكانت أسعار أجهزة تقنيات اللمس تبدأ من 30 ألف دولار، بينما تكلّف بعض الأنظمة الآن أقل من 3 آلاف دولار. وقد أطلقت للتوّ شركة SensAble للتقنيات في ماساشوستس عُدّة للتطوير تسمح بإضافة تقنيات اللمس إلى أية برمجيات تقريباً، وتكلّف 1950 دولاراً شاملة المعدات. وتأمل الشركة بهذا أن تحفز الطلب على أجهزتها الخاصة باللمس التي تستعمل حالياً في التصميم والعرض الافتراضي للمنتجات من أحذية الجري إلى الألعاب.

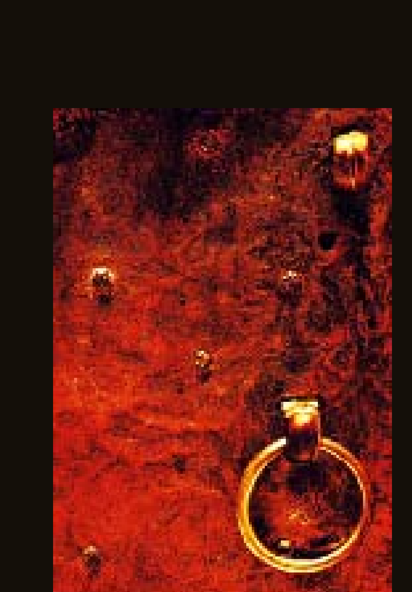
أما الهدف النهائي المنشود فهو دمج تقنيات اللمس مع رسوم الحاسوب للتوصل إلى صور ليزر ثلاثية الأبعاد مجسّمة يمكن لمسها. وقد عرضت شركة SensAble هذا النظام في الشهر الماضي في مؤتمر SIGGRAPH للرسوم الحاسوبية في لوس أنجلوس. وبلا شك ما زال يفصل بيننا وبين المسرح المنزلي للصور ثلاثية الأبعاد الافتراضية القريبة من الواقع عقود من الزمن، ولكن مجرّد استخدام تقنيات اللمس في عصا التحكم والهاتف الخلوي يعتبر خطوة في الاتجاه الصحيح.

* مركز التدريب - رأس تنورة











عبد السلام التويجري

عبدالسلام عبدالعزيز التويجري من مواليد الرياض 1975م، يعمل في مكتبة الملك فهد الوطنية في قسم العلاقات العامة. بدأ بممارسة التصوير الفوتوغرافي منذ عام 2003م. أقام أربعة معارض فوتوغرافية، حاصل على جوائز في مواقع دولية متخصصة في التصوير الفوتوغرافي، منها صورة الفرس علياء (المنشورة في هذا الفاصل المصور) التي حصلت على المركز الأول والميدالية الذهبية من بين عشرين ألف وستمائة صورة في العالم في مسابقة دولية.

الملف المصور

عبد السلام التويجري



رذاذ الشيب
ورذاذ الخيل،
وفي عيني الطفلة
شذى..
وجه كصفحة
السماء...
صبحٌ وأنت مساء !
أما هو فيسير ..
هائم لا يبالي بأحد!



الدكان والملحمة والفرن من ملامح أحياء المدينة، كذلك أصحابها، الذي كانت تنشأ بينهم وبين أهالي الحي علاقات بحلوها ومرها، ولكنها بكليتها كانت تغني حياة الأحياء بالقصص والتعليقات والذكريات.

وبقدر ما كانت إلى جانب وظائفها الأصلية تمثل سلوى للكبار ومواضيع حديث وحوار، كانت للصغار أيضاً مواقع يقتاتون منها الكثير من الأفكار والانطباعات والدروس، وتبقى ذكراها معهم على مر السنين. وترى انعكاس هذا في كثير من رواياتنا الأدبية، فيتذكر أحد شخصيات الرواية من أين كان يشتري الحلوى أو الكعك، أو انطباعه أول مرة زار الملحمة، أو علاقته بصبي الفرن، وغير ذلك الكثير.

لا شك أن ثلاثية الحي هذه جزء لا يتجزأ من «ثقافة الطفل» واندماجه الاجتماعي، وهي تعطيه بعض ما لا يعطيه إياه أهله، بما في ذلك الاطلاع على ما لا يجوز أن يطلع عليه وهو في تلك السن. ثم إنها، إضافة إلى كل هذا، تشكل حلقة رئيسة في الإطار الذي كان يتشكل منه الحي والذي كان بأكمله «المدرسة خارج المدرسة».

مشتريات «المول» كوجباته السريعة: بلا طعم!

وكما هو معروف فقد تعرض هذا الحي إلى ما يشبه الإفناء على مراحل، فالسيارات والشوارع العريضة واختفاء الأراضي البور من أحياء المدن كانت كفيلة بالقضاء على الحي بنسب مختلفة.

ثم ظهر السوبرماركت وتبعه «المول» ليجعل محلات الأحياء أشبه بمخلفات زمن مضى وكأن وجودها لم يعد له ما يبرره. وشيئاً فشيئاً تكاد تقضي هذه الكيانات الكبيرة ليس فقط على دكاكين الأحياء بل على جميع المحلات حتى في شوارع المدينة العامة لتحصرها جميعها داخل تلك الأسوار المقفلة للسوق الجبار. حتى محلات الملابس أو المفروشات أو الخدمات العريقة أصبحت مهددة بالزوال، وأصبح الفارق بين الحالتين هو أن تكون في «المول» أو لا تكون. وبقدر ما افتقد الناس طابع العلاقة الشخصية بصاحب دكان الحي أو صبيه افتقدوا أيضاً العلاقة بصاحب محل الملابس أو الأدوات المنزلية أو المفروشات، والذي كانوا يشعرون أنهم اختاروه واختاروا نوع بضاعته ومعاملته بل ومشورته أحياناً.

وبطبيعة الحال فإن كثيراً من هذه المحلات اندثر لصالح «الماركات العالمية» الجاهزة. وأصبح الإنسان يشعر أن دوره في أي اختيار غدا في حدوده الدنيا. فحين يحتاج غرضاً ما يتوجه إلى المول ويدخل محلاً من المحلات التي تحوي ما يظنه أقرب إلى مذاقه أو حاجته، فيدخل حيث يستقبله فريق لا يعرفه من البائعين، فإما يشتري أو لا يشتري ويخرج.

وغدت عملية الشراء ذاتها أشبه بطعم الوجبات السريعة التي سواء أكنت تحبها أم لا تحبها، فإن عليك أن تعتادها.. وتنسى الوجبة التي تعد لك في المنزل.. وتنسى دكان الحي.. وتنسى ولد الفرّان...

كميل حوّا



في النقل العام..

الوقت الضائع.. والوقت المشغول

المواصلات العامة وسيلة نقل فرضت نفسها أينما كان في العالم، داخل المدن الكبرى، وما بين هذه المدن. وبالنسبة إلى الكثيرين، أصبحت هذه المواصلات جزءاً من الحياة اليومية ومفصلاً لا غنى عنه بين البيت والعمل. أما الذين لا يستخدمون المواصلات العامة إلا نادراً والذين لم يستخدموها على الإطلاق، فيتطلعون إليها بتساؤلات شتى، تميل أحياناً إلى الحكم عليها وكأنها نوع من الشقاء. مع أن الحقيقة هي غير ذلك تماماً.

1

طرابلس - بيروت، الدمام - الرياض
مرايا المجتمع في المواصلات

عبود عطية

طوال ست سنوات أو أكثر، اعتدت الانتقال بالباص يومياً ما بين طرابلس وبيروت. يومياً، أي سبعة أيام في الأسبوع. ستة للعمل، ويوم سابع لأمور أخرى، وأحياناً من دون أي دافع محدد على الإطلاق. فالباص مريح وجيد، وثمن التذكرة لا يذكر.

ربما كانت العزلة بعيداً عن العمل والمعارف والنقاش هي التي حوّلت هذه الحركة المكوكية إلى ما يشبه الإدمان. إذ كنت أجد فيها ساعة من الهدوء الذي يمكنني من الاسترسال بأفكاري وأحلامي وحتى الكتابة في ذهني لما أريد أن أضعه على الورق بعد ساعات.

وخلال إقامتي في المملكة العربية السعودية، ولضرورات العمل، توجب عليّ الانتقال عشرات المرات من مدينة الخبر إلى الرياض. مرة بالطائرة، ومرة بالباص، ومن ثم استقر الخيار نهائياً على القطار انطلاقاً من محطة الدمام.

فالقطار آمن ومريح، ويسمح بشيء من حرية الحركة داخله، وأرخص كلفة من غيره. إضافة إلى أنني وجدت فيه بعض ما كنت أجده في الباص على طريق طرابلس - بيروت. بعض ما كنت أجده.. لأن الاختلافات قد تكون أكبر وأكثر مما هو مشترك بينهما، وتعود إلى التمايز في كل ما يتشكل منه المزاج الفردي ومعالم الحياة في كل من البلدين.

الفرق الجغرافي ليس الأكبر

المسافة ما بين طرابلس وبيروت هي 85 كيلومتراً، وهي الأكبر ما بين مدينتين رئيستين في لبنان. أما المسافة ما بين الدمام والرياض فهي نحو 400 كيلومتر، أي نحو ربع المسافة إلى مدينة جدة. وفيما تتلوى الطريق اللبنانية بشكل أفعواني، صعوداً ونزولاً، ما بين شاطئ البحر والجبال الخضراء التي نهشتها في أماكن متفرقة الكسّارات والحرائق، فإن سكة الدمام-الرياض، مستقيمة (تشبه في ذلك أيضاً الطريق السريع)، لا منعطفات ولا صعود ولا نزول. وفيما لا تغيب المدن والقرى والمنازل عن نظر راكب الباص اللبناني، فإن راكب القطار السعودي سرعان ما يجد نفسه بعيداً عن أي أثر عمراني بمجرد خروجه من مدينة الدمام أو أبقيق أو الهفوف. مئات الكيلومترات، لا بيتاً واحداً فيها. ومع ذلك، فالفوارق الجغرافية ما بين هذين الخطين، وإن كانت أوضح للعيان من غيرها، ليست الوحيدة، ولا حتى هي الأكثر عمقاً.

القلق والطمأنينة، الاضطراب والاستقرار

مهما ألِف المرء التنقل بالباص اللبناني، فثمة ما هو دفين في أعماقه يبقيه على شيء من الترقب لما قد يجري خلال الرحلة، حتى ولو لم يركز في وعيه على مشكلة محددة.

قد يقع حادث اصطدام، أو عطل ميكانيكي، وقد ينقلب الباص خارج الطريق كما حصل مرة، وقد تتعدد الحواجز الأمنية التي تعرقل الرحلة أو تؤخر الوصول، وقد يكون هناك حادث سير يوقف حركة المرور، وماذا عن الازدحام عند مدخل بيروت؟

ما ذكرناه سابقاً عن العزلة والتفكير بهدوء يعطي الانطباع بأن الجو خلال الرحلة يخلو تماماً مما يعكره. والأمر غير دقيق تماماً. فالمفاجآت غير المتوقعة هي في الواقع غير مفاجئة لمن يقوم بهذه الرحلة يومياً. فقد يتعطل مكيف الهواء، أو قد يعِنّ على بال السائق أن يعرّج على ورشة الصيانة الخاصة بالشركة، أو قد يتشاجر مع أحد الركاب. والحاجز الأمني الذي يدعك تمر من دون أن يستوقفك، قد يغيّر رأيه اليوم، فيصعد الجنود إلى الباص للتدقيق في الهويات. وإذا احتسب المسافر وقت وصوله إلى بيروت خارج أوقات الذروة متلافياً الازدحام، يمكنه أن يصطدم بازدحام سببه وقوع انفجار في محيط المنطقة.. وعلى سبيل المثال لا الحصر، عندما كان التدخين مسموحاً في هذا الباص (إذ أنه لم يمنع إلا في العام 2000م)، كان يتسبب بما معدله شجار واحد على الأقل في الأسبوع. فوسط الهدوء والاسترسال في التفكير أو مغالبة النعاس، تعلو الهمهمة من مكان ما، فتشرئب الأعناق لرؤية ما يحصل، وما إن تتحول الهمهمة إلى شتائم حتى ينهض بعض الرجال ليتجمعوا حول مركز الخلاف، وليتداركوا الموقف قبل أن يتحول عراكاً وضرباً بالأيدي. فيوقف السائق الباص، ويأتي لحل الخلاف ما بين شخص أشعل سيجارة وجاره الذي يكره التدخين.

ما الذي سيصادفني خلال هذه الرحلة؟ قد لا يصادفك شيء. ولكن السؤال يبقى مطروحاً في اللاوعي. فحتى

StockXchange



Magnum Photo

القراءة.. لاخلاف عليها، بل على ماذا نقرأ؟



StockXchange

ولو تكررت الرحلة لمئة أو مائتي مرة من دون أي من هذه الحوادث والعراقيل، يبقى في نفس المسافر شيء، ولو قليل جداً، من عدم اليقين بأن كل شيء سيسير على ما يرام.

أما في القطار السعودي، فبمجرد انطلاقه، يصعب على المرء مهما كان متشائماً أو سوداوي المزاج أن يتجه بذهنه إلى ما يستوجب الحذر. فهو على يقين من أنه سيصل بعد أربع ساعات وربع الساعة إلى وجهته، وأن كل شيء سيكون طوال هذا الوقت رتيباً، مستقراً، أفقياً مثل الصحراء التي لا تخبئ المفاجآت.

وبخلاف حواجز القوى الأمنية على الطريق اللبنانية التي قد يؤدي ظهورها إلى الشعور بوجود اضطراب ما في الأجواء، فإن وجود رجال الأمن بشكل دائم على متن القطار يجوبونه مرات عديدة خلال الرحلة، لا يثير أي استنفار. بل يبدو جزءاً طبيعياً من ضروريات الرحلة، وهو في الواقع كذلك.

أقصى ما ذهب إليه خيالي مرة في البحث عن محاذير، هو تعطل القطار وسط الصحراء. ولكن خيالي وجد المعالجة فوراً: «سيأتون لنقلنا من هنا بالطائرات المروحية خلال ساعتين»، وتحرك شيطان حب المغامرة في نفسي إلى درجة أني تمنيت حصول الأمر..!!

السلام والكلام وخلافهما

وإضافة إلى تناقض الاستقرار هنا مع الاضطراب هناك، ثمة اختلافات تعود إلى العادات الاجتماعية والأمزجة الفردية أو الجماعية.

فراكب القطار السعودي يلقي السلام عليك بمجرد عبوره الممر بجوارك. أما في الباص اللبناني، فلا سلام ولا تحية، ولا حتى في معظم الأحيان من الذي جاء ليجلس على المقعد الملاصق لمقعدك. والغريب في الأمر أنه بمجرد بدء الرحلة، ينقلب الوضع تماماً في الحالتين، ويصبح العكس هو الصحيح.

ففي القطار السعودي يسود صمت شبه مطبق. لا أحد ينسج أي حديث مع الآخر (إلا إذا كانوا من المسافرين سوية). البعض يقرأ القرآن الكريم، والبعض يعبث بأوراق ومستندات، أو يتصفح جريدة، أو يلهو بجواله، والبعض يكتفي بنقل نظراته من النافذة إلى الساعة في معصمه بين الحين والآخر. أما الأكثرية.. فينامون.

واستطراداً، نشير إلى أن النوم في وسائل النقل هو «النشاط» الذي يحل عندنا محل «القراءة» التي يمارسها الأوروبيون. ففي الباص اللبناني، تبلغ نسبة النيام في الرحلات الصباحية ثلث الركاب، وفي الرحلات النهارية أقل من ذلك. أما في القطار السعودي فالنسبة أعلى بكثير. إذ بدت مقطورة الدرجة الثانية، ذات رحلة صباحية انطلقت من الدمام عند الخامسة والثلث، وكأنها تعرضت إلى تسرب غاز منوّم، إذ لم يكن فيها مسافر واحد مستيقظ.

وبالعودة إلى موضوع السلام والكلام، نشير إلى أن غياب التحيات في الباص اللبناني يمكنه أن ينقلب خلال دقائق إلى مشروع صداقة. فأي شيء مهما كان تافهاً، يمكنه أن يكون شرارة حديث لا ينقطع عادة إلا

راكب القطار السعودي يلقي السلام عليك أما في الباص اللبناني فلا سلام ولا تحية.. والغريب في الأمر أنه بمجرد بدء الرحلة ينقلب الوضع تماماً في الحالتين، ويصبح العكس هو الصحيح

بالوصول إلى بيروت: خبر على الراديو يستحق التعليق، حادث سير، حاجز لقوى الأمن الداخلي، أو حتى ضغط السائق على المكابح بشكل مفاجئ. يسألك جارك من أين أنت؟ والاسم الكريم؟ وعملك؟ ويتشعب الحديث ليصل في بعض الأحيان إلى أدق الخصوصيات..! ولهذا، لا بد وأن يلحظ المسافر في الرحلات الصباحية بشكل خاص، أن الكثيرين يعرفون بعضهم، يتبادلون أحاديث أشبه بتتمات أحاديث الأمس، ويثرثرون ضد بعضهم البعض.

تبديل المقاعد والالتزام بها

في قطار الدمام الرياض، يلاحظ المرء أن المسافر الذي استقر على مقعد معين يبقى جالساً عليه طوال الرحلة. ورغم أن عدد المقاعد الشاغرة يتبدل بشكل ملحوظ ذهاباً وإياباً في محطة الهفوف، فمن النادر جداً أن تلحظ أن أحدهم بدّل المقعد الذي كان جالساً عليه. ومن المرجح أن الأمر يشكل وجهاً من أوجه طابع الاستقرار العام والسكينة الداخلية عند المواطن السعودي. أما في الباص اللبناني، فحركة الركاب في تبديل مقاعدهم تشبه رقص الباليه.

ففي الاتجاه إلى بيروت تبدأ بعض المقاعد بالشغور بدءاً من مدينة جبيل. وما أن يشغر أحد المقاعد حتى يقوم شخص ليحتله من دون سبب واضح. وكأن كل المقاعد الأخرى هي أفضل من المقعد الذي كان يجلس عليه. وهكذا يبقى معظمهم في حركة تنقل دائمة من الخلف إلى الأمام أو بالعكس. ومن جهة النافذة إلى جهة الممر، ومن اليسار إلى اليمين، ومن ثم من اليمين إلى اليسار (بلا معنى)!!

وربما كان حب الحركة والتغيير الموجود في الجينات اللبنانية هو الذي رجح كفة القطار في اختياري لوسيلة النقل في السعودية. إذ بدلاً من التسمر في المقعد لأكثر من أربع ساعات، أستطيع أن أتجول داخله، فأذهب إلى مقطورة الكافتيريا لشرب القهوة (مع أن بائع القهوة يأتي تكراراً إلى جانب كل مسافر)، أو لتناول وجبة خفيفة (غالباً من دون شعور بالجوع). فالمؤكد أن المسافر الأقل استقراراً على قطار الدمام الرياض هو اللبناني كاتب هذه السطور.

مراقبة الناس

ويمكن للائحة الاختلافات ما بين القطار السعودي والباص اللبناني أن تطول جداً. فعلى سبيل المثال يوجد في القطار السعودي أجهزة «لاب توب» أكثر بكثير مما يمكن أن تجد في الباص اللبناني. فوسط الأمزجة المستنفرة لنقد أية حركة، يمكن للبناني إذا استعمل الكومبيوتر في الباص أن يلقى نظرات عدائية سببها الحكم فوراً عليه بأنه يتباهى على الآخرين، أو كأنه يقوم بذلك للفت النظر إلى مكانته.. حتى الهاتف الجوال عند بدايات ظهوره، كان من أهم أسلحة التباهي الشامل، وأكثرها إثارة للاستفزاز.

باختصار، في الباص اللبناني، يبدو المسافر وكأنه جزء من تفاعل ناشط حتى من دون حركة أو صوت. ولكي يتمتع بعزلته وينصرف إلى أفكاره وخياله وأحلامه، عليه أن يقرر ذلك. أما في القطار السعودي، فالقرار يبدو أسهل على التنفيذ، إلى درجة أن الأمر يفرض نفسه بنفسه.

أربع ساعات من العزلة الحقيقية لا يشوبها أي قلق أو توتر خاص بالرحلة. جرّبت القراءة مرة. مئة وخمسين صفحة من رواية دان براون «ملائكة وشياطين» ذهاباً، ومئة وخمسين صفحة إياباً. مرّت الساعات الأربع كلمح البرق، حتى أن الوصول إلى نهاية الرحلة كان مخيباً لاضطراري إلى التوقف عن القراءة. ومع ذلك، فالأمر لا يعني بالضرورة أنني سأعيد الكرّة، وكأنني وجدت حلاً لمشكلة، لأن لا مشكلة عندي في هذا المجال.

أربع ساعات من حرية التفكير كيفما أشاء من دون أن يعكّر هذا التفكير شيء، أحلم، أتخيل، أتمنى، أخطط لما سأقوم به عند الوصول، وإذا ضجرت من التطلع إلى الصحراء، أتطلع إلى مسافر بجواري، غالباً أمامي على الجهة الأخرى لكيلا يلحظ وجودي. أراقبه، ومراقبة الناس لم تمتنِ هماً. أحاول رسم صورة لحياته من خلال التفاصيل الصغيرة في مظهره وحركاته وما معه من أشياء. وأوفق أحياناً إلى تشكيل قصة كاملة منه، ولا يهمني إذا كانت هذه القصة صحيحة تماماً أم لا. ولكن المؤكد أنها لا تقل إثارة عن الرواية البوليسية.. فأعظم الروايات وأجملها هي تلك الموجودة في عقولنا وفي خيالاتنا. ولذا، أجد في مثل هذه الرحلات الطويلة كل متعة القراءة من دون أن يكون بين يدي كتاب.



2

القراءة «الانعزالية».. متعة وفائدة

خالد الطويلي

للمواصلات العامة في العاصمة البريطانية طقوس يؤديها معظم مرتاديها. فلو أنك أغلقت عينيك وأنت في أحد قطارات مترو لندن وسط ذروة الازدحام صباحاً أو مساءً، فإنك في معظم الأحيان ستظن أنك الراكب الوحيد على متن المقطورة، فلا توجد هناك أحاديث تدور حولك أو أصوات تسمعها سوى صوت الحديد يحك الحديد إلا ما ندر، فالكل مشغول من ناحية بقراءة الصحف والكتب والمجلات، ومنها صحيفة (مترو) التي توزع مجاناً بشكل يومي صباحاً في كافة محطات المترو داخل حدود العاصمة، ومن ناحية أخرى هناك الأسلاك المغروسة في آذان معظم الراكبين والممتدة نحو جهاز تسجيل أو (آي بود) مصدراً الموسيقى والنغمات المفضلة لدى كل راكب منهم.

كثير من الركاب في وقت الذروة لا يستطيعون الجلوس لأن المقاعد قد شغلت بمن صعد قبلهم، فتجدهم مترجلين أو مترجلات تمتد إحدى أذرعهم لتصل بالأصابع في نهايتها إلى ممسك تتعلق أو (تتشعلق) به بينما الذراع الأخرى تحمل في آخرها المطبوعة التي يستمر الراكب في قراءتها رغم ذلك الوضع الذي يبدو مزعجاً. كل يعيش حسب ذلك الطقس في عالمه المنعزل الذي صنعه لنفسه داخل دائرة خصوصيته التي حدد شكلها ولن يسمح لشيء أو أحد باقتحامها أو تجاوزها. ورغم أن القطار أو الحافلة تتحرك وتهتز باستمرار ومعها يهتز الركاب بطبيعة الحال وهم متلاصقون وقوفاً كالأسماك في علبة الساردين، فإن ذلك الوضع لم يتمكن بكل ما يحمله من غضاضة أن يمنع ذلك الطقس من الاستمرار، بل وكأنه يكرسه، فكلما اقترب الوجه من الوجه أو الجسم من الجسم فإن النظر والسمع والتفكير يبتعد. ويحمل هؤلاء الركاب وقوفاً وقعوداً، حقائب على أكتافهم وظهورهم، ولكن رغم ذلك الوضع غير المريح، فإنك تجد أن الأعين لا تنظر إلا إلى تلك الأسطر والآذان لا تسمع سوى تلك الموسيقى طوال فترة الرحلة.

ويستمر ذلك المشهد خارج إطار المواصلات العامة وإن كانت هي سبب ظهوره فيتكرر في الطائرات في الجو، والمتاحف والحدائق العامة على الأرض حيث القراءة «الانعزالية» هي المظهر الأكثر وضوحاً، وبغض النظر عن النوعية فالكم من القراءة كثير. والنوعية كما ذكرت غير مهمة لأن دوافع القراءة في المواصلات العامة تختلف عن دوافعها في أماكن القراءة كالمكتبات أو المنازل، فالقراءة في المواصلات العامة هدفها الأكثر وضوحاً هو الانعزال وتقليل الاحتكاك والحديث والنظر إلى ذلك الراكب الآخر.

وبمستوى القراءة المصاحبة لمثل هذا الطقس الذي تصنعه المواصلات العامة المزدحمة في لندن، فإن الإعجاب بمشهد القراءة نفسه لا مفر منه. ولعله للعين العربية سبباً آخر يبرر ارتفاع معدلات القراءة لدى تلك الشعوب مقارنة بالشعوب العربية التي تبين دراسة قامت بها منظمة اليونسكو أنهم يقرأون بمعدل ست دقائق ونصف (سنوياً) مع العلم أن هناك مواصلات عامة مزدحمة في الدول العربية وأن كثيراً من الناس يستقلونها لمسافات تزيد كثيراً عن ست دقائق. وأزعم أن الغالبية منهم يفضلون ألاَّ يسألهم الشخص الجالس قربهم عن صحتهم بمعدل ست مرات ونصف لكل محطة وأن الكتب متوافرة وكذلك الصحف اليومية، ولكن لماذا لا يقرأون؟ أو لماذا يفضلون مراقبة الناس والتحديق بهم أو النوم في غفوة تلو غفوة على الاستفادة من تلك الدقائق أو الساعات المملة على الطريق؟.

وقبل أن أهم بالبحث عن إجابة منطقية عن ذلك السؤال تذكرت نصيحة كانت والدتي تنصحني بها في صغري وتنهرني إن لم ألتزم بها: «لا تقرأ في السيارة». فقد كنت في صغري قد وصلت إلى استنتاج مشابه للاستنتاج الذي ساق طقوس القراءة إلى المواصلات العامة في لندن، وهو أن قراءة مجلتي المفضلة يعجبني ويجنبني الاحتكاك بالكبار «المملين» خلال رحلات السيارة الأسبوعية من جدة إلى مكة أو الطائف. فالقراءة تقتل الوقت وتقصر المسافة. ولكن والدتي كانت لي بالمرصاد لأن القراءة في السيارة تسبب الدوخة والغثيان. وللقراءة في السيارة فعلاً هذا النوع من التأثير، ولن أكذّب والدتي -معاذ الله- فقد كانت أكثر من شجعني على القراءة واشترى لي القصص والكتب في صغري وكبري.

قررت أن أقرأ مثل باقي الركاب في رحلاتي اليومية داخل لندن ليس لأنني أفضل القراءة بالضرورة في عربة أو حافلة تهتز باستمرار وتسبب لي الدوخة، ولكنني بدأت أقرأ لأنني لم أود أن أكون ذلك الفرد في القطار

الصحيفة للتسلية والفائدة و.. تلافي الآخرين

Magnum Photo

وجدت بعد ذلك أني أصبحت مثلهم.. لم يعد يهمني ما يصنع الرجل الذي يجلس أمامي.. صنعت لنفسي دائرة خصوصية مثل باقي الركاب

الذي يحدق في كل داخل وخارج أو جالس وقائم ويوزع الابتسامات. أيضاً بدأت أقرأ لأنني اكتشفت أن التبسم لأشخاص لا تعرفهم يعطي إشارات مختلفة في مجتمع في عجلة دائمة من أمره ليس لديه وقت للمجاملات الكاذبة. بدأت أقرأ لأنني اكتشفت أن نصائح والدتي -أطال الله في عمرها- بأن القراءة في مكان يهتز يسبب الدوخة ليس دقيقاً تماماً خاصة بعد التعود عليه. كما أنني اكتشفت أن الرحلة التي تستغرق نصف ساعة في وسيلة المواصلات العامة تستغرق ضعف الوقت (إحساساً) إن لم تقرأ، ونصف الوقت إذا قرأت.

وجدت بعد ذلك أنني أصبحت مثلهم، أركب القطار في محطة ويسير بي القطار لأكثر من ساعة لا أرى خلالها سوى أسطر المطبوعة التي أقرأها. لم يعد يهمني ما يصنع الرجل الذي يجلس أمامي أو لون ملابس الفتاة التي تجلس إلى جواري. صنعت لنفسي دائرة خصوصية مثل باقي الركاب. ودخلت إلى خضم البيئة التي تصنعها المواصلات العامة المزدحمة بكافة طقوسها فوجدت أنني قرأت أربعة كتب وكماً لا أستطيع أن أحصيه من المجلات والصحف خلال فترة الأشهر الأربعة الأولى. وهو رقم لا أستطيع أن أدعيه لنفسي بالنسبة للكتب على الأقل خلال عام أو أكثر قبل ذلك.

وللوهلة الأولى، يمكنك أن تصل إلى استنتاج مفاده أن القراءة تتسبب في الفوضى واتساخ المواصلات العامة عندما تدخل إليها فإذا بالصحف منثورة بكثافة على المقاعد، ولكن ذلك المشهد ثقافي أيضاً، فالركاب لا يرمون بما يقرأونه في سلة المهملات بعد الانتهاء من القراءة، ولكنهم يتركونه على المقاعد حتى يتسنى لغيرهم الاستفادة منه بعدهم. لم أكن أتصور أنني سوف أقرأ يوماً صحيفة ليست لي، أو أن أقرأ موضوعاً لا يهمني على الإطلاق، ولكن عندما تصبح القراءة ضرورة لشغل الفراغ وتجنب الآخرين، فقد تجد نفسك يوماً تقرأ مكونات عصير البرتقال الذي تشربه حتى لا تضطر إلى النظر لمن يجلس أمامك، وقد يكون للصحة النفسية في ذلك الموضوع رأي، خاصة عندما تبدأ في اكتشاف أن المحطة التي وددت أن تنزل بها قد فاتت منذ ثلاث أو أربع صفحات.



3

مترو الأنفاق..

حياة صاخبة تحت أرض القاهرة

إسعاد عثمان

عربات زرقاء على الطريقة الفرنسية، أو رمادية على الطريقة اليابانية.. مقاعد بذات اللونين، وتلك الحلقات التي تتثبت بها أيادي الركاب الواقفين في الممرات بين صفوف المقاعد، وكأنها أطواق نجاة صغيرة بيضاء.. تذاكر صفراء، يقطعها في المنتصف ذلك الشريط الممغنط، ماكينات المرور الإلكترونية. صفير الأبواب وهي تهم بالانغلاق، وذلك الصوت التحذيري الذي «يرجو من السادة الركاب الابتعاد عن الأبواب»، والإيقاع الرتيب الذي تصنعه حركة القطارات على القضبان الحديدية. ووسط كل هذا، أمواج البشر.. هذه هي مفردات عالم مترو الأنفاق في القاهرة.

المترو للجميع

عالم متكامل، نما خلال عقدين ليحتل مساحة كبيرة على خريطة العاصمة المصرية، ومساحة أكبر بكثير في حياة سكانها. فأحد الأشياء المميزة في مترو الأنفاق، والتي تجعل من عالمه حياة كاملة، أن رواده خليط متفاعل من طبقات اجتماعية مختلفة، وأعمار مختلفة كذلك. على عكس وسائل المواصلات العامة التي تتحرك هناك «بالأعلى»، والتي تفرض طبيعتها نوعاً من التشابه بين مرتاديها. فالباصات التقليدية الأرخص سعراً، يرتادها في الغالب من لا تحتمل ميزانيته إرهاق وسيلة مواصلات أكثر راحة، بينما سيارات الأجرة يرتادها الموسرون. طلبة المدارس وشباب الجامعة يفضلون الميكروباص لسرعته، بينما يكرهه كبار السن للسبب نفسه.

في المترو يختلف الأمر. فرواده يمثلون جميع شرائح المجتمع.. سكان الأحياء الراقية والشعبية.. طلبة المدارس، وشباب الجامعة.. الموظفون وربات البيوت، وأساتذة الجامعة.. رجال متأنقون بحقائب جلدية مليئة بالأوراق والملفات، وممرضات في مستشفى. فالميزات العديدة تجمع الآراء المختلفة حوله، وتكلفة الرحلة في متناول الجميع، والأهم من ذلك أنه الأسرع بين البدائل المتاحة. فالرحلة من أحد أطراف العاصمة إلى قلبها عبره، تستغرق ما بين ثلث إلى نصف الساعة، وهي المسافة التي لن تقطعها السيارات أبداً في أقل من ساعة ونصف الساعة، وبعد أن يفقد راكبها أعصابه من شدة



مترو الأنفاق في القاهرة: حياة ما فوق الأرض تنتقل كما هي إلى تحتها..

«.. يلتفت الجار الى مرافقه ويبدأ في التعليق على ماقرأ وينتهي الامر الى حديث متصل لايشارك فيه ذلك الجار ومرافقه فقط، ولكن صاحب الصحيفة كذلك»

الزحام والملل. هذا التنوع الكبير في الخلفيات الاجتماعية والثقافية التي يمثلها راكبو المترو، يعطي للرحلة معه أبعاداً أعمق من كونها مجرد انتقال روتيني من مكان لآخر، ويجعل منها لقطات لحياة اجتماعية غنية بالتفاصيل، هي في أصلها جزء من صورة أكبر تضم المجتمع ككل.

الحميمية تحت الأرض كما فوقها

فعلى الرغم من أن هذا التنوع كان يمكنه أن يكون باعثاً على الانعزال، وتفضيل كل راكب الانفراد بنفسه، فإن الأمر لم يكن كذلك. ففي مجتمع تعتبر «الحميمية» جزءاً من تكوين العلاقات بين أفراده، يختلف الأمر كثيراً.. ليست حميمية قرب أو ود في الطريقة التي ينظر بها أحدهم إلى الآخرين، لكنها الاعتقاد بأنه ليس هناك ما يدعو إلى الاحتفاظ «بالحواجز».. يكفي أن يجمعنا مكان واحد، أو موقف واحد، ليصبح الحال وكأن بيننا نوعاً من الخيوط المشتركة. وأحياناً تملي هذه المشاركة على كلينا حقوقاً وواجبات. حميمية يراها البعض شيئاً طيباً، ويراها البعض عيباً اجتماعياً خطيراً.

هذه الحميمية هي التي تسمح لطرف ثالث غريب، أن يتدخل في حوار بين اثنين.. إن لم يكن بالحديث، فبنظرات العيون التي تخبر بوضوح بأن صاحبها يتابع. هي التي تجعل من المألوف للأم التي تحمل رضيعاً أو طفلاً صغيراً، أن تتلقى مداعبات الفتيات لطفلها، وأن تسمع حديثاً تشاركها فيه الأمهات الأخريات عن هموم العناية بالصغار ورعايتهم. هي التي تسمح بسؤال الجارة عن اسم المتجر الذي اشترت منه هذا الثوب، وعن ثمنه. هي التي تدفع لتقديم الابتسامات وكلمات التعاطف لجار مريض أو مهموم، وهي نفسها التي تعطي الحق لأحدهم في أن يلقي بتعليق ساخط، أو حتى يتشاجر مشاجرة صغيرة، إن أدى الزحام وتدافع الركاب داخل العربات وقت توقفها بالمحطات، إلى أن يدفعه أحدهم، أو يطأ بطريق الخطأ على قدمه.

خيارات تمضية الوقت

ومن الأمور التي تعكس هذا التنوع، هناك النشاطات التي يقوم بها الركاب لتمضية وقت الرحلة. فباستثناء النوم الذي يجعله تصميم المقاعد داخل عربات المترو خياراً صعباً، ينشغل الركاب بأشياء كثيرة. فالحديث هو الخيار الأول للاجتماعيين الذين يفضلون ارتياد المترو مع صحبة، تضمن لهم هذا الخيار. وإن لم يكن الأمر كذلك، فخيار الحديث مع الغرباء ما زال قائماً، ويمكن لأشياء صغيرة للغاية أن تكون بداية خيط طويل من الحديث يستمر حتى نهاية الرحلة. وعلى الجهة الأخرى، يكون التأمل الساكن، والعيش في العوالم الداخلية الخاصة. فرتابة حركة القطار تساعد على الشرود بعيداً، وحركة الركاب المليئة بالحياة تفتح مجالاً للتأمل المدقق والناقد، ليس في أحوال البشر فحسب، ولكن ربما في معاني الحياة الأكثر عمقاً وتعقيداً.


Flickr

القراءة في المترو هي خيار آخر، لكنه خيار له قواعده الخاصة. فالصحيفة التي تمثل في مجتمع آخر حاجزاً يختفي خلفه قارئها، وينعزل معها في عالمه الخاص بعيداً عن البشر من حوله، تمثل أحياناً أداة للتواصل. فصاحب الصحيفة يخرجها من حقيبته ويبدأ بالقراءة، ليجد بعد دقيقتين أن جاره يشاركه قراءة ذلك الخبر، (ألم أحكي لكم عن الحميمية؟!).. يلتفت الجار إلى مرافقه، ويبدأ في التعليق على ما قرأ، وينتهي الأمر إلى حديث متصل، لا يشارك فيه ذلك الجار ومرافقه فقط، ولكن صاحب الصحيفة كذلك!

مع الكتب الأمر مختلف.. لن يحدق أحد في صفحات الكتاب، ويشارك قارئه متابعة سطوره. مخاطر قراءة الصحف يقابلها إذن أمان تام حين يتعلق الأمر بقراءة كتاب، بشرط ألا يكون عنوانه لافتاً للانتباه بشكل أكثر من المعتاد. هكذا تعلمت ما الذي يمكن أن أصطحبه معي في رحلاتي بالمترو إن أردت تمضية الوقت في القراءة، بعد أن جعلتني عناوين بغرابة «أيقظ قواك الخفية» أو «شوربة دجاج للحياة»، أستقبل كماً لا بأس به من نظرات الفضول والاستغراب، التي لم تكن موجهة للكتاب نفسه، لكن لصاحبته بالأساس!

مع الكتب عشت تجربة قراءة طيبة. كان ذلك حين كنت متأثرة بما أقرأه في رواية مريد البرغوثي «رأيت رام الله»، والتي يحكي فيها عن تجربة عودته لوطنه فلسطين بعد ثلاثين عاماً من الإبعاد، ووجدت موسيقى «زهرة المدائن» تملأ الهواء من حولي، وتصنع من الرواية فيلماً أعيش أحداثه الثرية والموجعة. تجربة جميلة، ما كنت لأعيشها -وهذا هو الغريب في الأمر- لو أنني كنت أقرأ تلك الرواية في هدوء غرفتي، بعيداً عن صخب عالم المترو. والحقيقة أنني توقفت بعدها عن نقد التجربة الجديدة للإذاعة الداخلية التي تبث الموسيقى في بعض رحلات المترو، باعتبارها نوعاً من إجبار الركاب على ممارسة نشاط لم يختاروه بأنفسهم.. ليس لأنني غيرت نظرتي إلى الأمر، أو اقتنعت به، ولكن فقط كنوع من الشعور ببعض الجميل!


StockXchange

خلال فصل الشتاء، تصبح تدفئة المنازل والحفاظ على حرارتها الداخلية عند المستويات الملائمة اهتماماً يومياً. ولكن هذا الاهتمام يتلازم مع مؤثرين على جانب كبير من الأهمية، هما: التهوئة الصحية الضرورية، وتوفير استهلاك الطاقة اللازمة للتدفئة أياً كان نوعها.

منازلنا شتاء، بين التدفئة والتهوئة والتوفير

يميل الإنسان فطرياً إلى تدفئة محيطه الداخلي عندما تتدنى الحرارة إلى مستويات تزعجه. فيستعمل لهذه الغاية وسائل ومواد شتّى، بدءاً بالحطب والفحم، وانتهاءً بأكثر أنواع التكييف الكهربائي تطوراً.

ولأن المباني الحديثة تشددت أكثر فأكثر في جعل منافذها على الخارج أكثر إحكاماً، بحيث ألغت تسرب الهواء تماماً، تطورت في الوقت نفسه أجهزة التهوئة والتدفئة الكهربائية، ومنها على سبيل المثال النظام الذي يطلق عليه Heat Recovery Ventilators (HRV) الذي يبدِّل الهواء الداخلي بالهواء الخارجي، مستخدماً حرارة الأول لتدفئة الثاني توفيراً للطاقة.

ولكن طالما أن بيوتنا تعتمد على غير هذا النظام، فلا بد من التوقف بإيجاز أمام القضية انطلاقاً من بيوتنا وحالتها الحاضرة بشكل عام.

لكل تدفئة التهوئة الخاصة بها

صحيح أن الفحم خسر زعامته كوسيلة تدفئة شتائية لصالح الكهرباء، ولكنه لا يزال يستعمل بكثرة وخاصة في المناطق الريفية إلى جانب الحطب الأقل تكلفة من الكهرباء. ويبقى الفحم أخطر وسائل التدفئة إن لم تصحبه التهوئة الضرورية التي قد تصل إلى هدر الجزء الأكبر من الطاقة الحرارية التي يولدها احتراقه.

فاختراق الفحم يولد أحادي أوكسيد الكربون الأثقل من الهواء. ولذا، بعد أن يرتفع بفعل سخونته إلى الأعلى يبرد باصطدامه بالسقف والجدران ليعود ويترسب في أسفل الغرفة. ويؤدي هذا الغاز إلى فقدان وعي من يستنشقه دون أن يشعر لأنه لا رائحة له، ومن ثم الوفاة خلال دقائق معدودة. ولذا لا يجب اعتماد الفحم للتدفئة في الأماكن المغلقة بأية حال من الأحوال، إذا لم يكن هناك منفذ مفتوح بشكل واسع على الخارج. أما الحطب فيمكنه أن يكون وسيلة تدفئة آمنة أكثر، إذا تم احتراقه في المكان الملائم لاعتبارين:

الاعتبار الأول، هو أن احتراق الحطب في مدخنة خاصة مزودة بمسرب لدخانه إلى الخارج، يؤدي إلى انخفاض ضغط الهواء في الداخل، فيندفع الهواء من الخارج حيث الضغط أعلى صوب الداخل عبر الثغرات الموجودة في شقوق النوافذ والأبواب وغيرها.. فيتبدَّل الهواء بشكل ملائم إذا كان هناك من هذه المنافذ ما يكفي. أما

حرق الحطب من دون توافر مجرى هواء فيؤدي حكماً إلى الكارثة التي يؤدي إليها احتراق الفحم.

أما عامل السلامة الثاني المتعلق بحرق الحطب فيكمن في وجوب إشعاله على مسافة كافية لا تقل عن متر واحد من أية قطعة مفروشات قابلة للاحتراق. لأن بعض أنواع الحطب تؤدي خلال اشتعالها إلى تطاير شرارات حتى مسافة بعيدة عنها. وهو الأمر الذي يؤدي إليه أيضاً اشتعال الفحم إذا كانت بعض قطعه غير متفحمة بالكامل، ولا تزال في بعض أجزائها حطباً يابساً.

الغاز والكهرباء

وتعتبر وسائل التدفئة بالغاز والكهرباء الأكثر شيوعاً في بيوت الطبقة المتوسطة. وقد تطورت صناعة بعضها في الاتجاه الذي يراعي نوعية الهواء في الداخل. فتم تزويدها بأجهزة وقف العمل عند انخفاض نسبة الأوكسجين في الجو إلى مستوى غير ملائم. وهنا أيضاً يرتبط حجم التهوئة الضرورية بمدى وجود تسربات ما بين الداخل والخارج، وأيضاً مدى فتح الأبواب للدخول والخروج. ولكن، وبشكل عام، يستحسن فتح نافذة أو باب على مصراعيه لدقيقتين أو ثلاث دقائق مرة واحدة على الأقل كل ساعة.

المشكلة ليست في الاحتراق فقط

لا تقتصر موجبات التهوئة على التخلص من الغازات السامة الناتجة عن الاحتراق في وسائل التدفئة، بل تتعداها إلى وجوب تبديل الهواء في المنزل جملة وتفصيلاً. فدفء الهواء المتواصل هو بحد ذاته ملائم لتكاثر البكتيريا داخل المنزل أكثر من الجو البارد في الخارج. ويمكن للرطوبة الناجمة عن التنفس، والأبخرة المتصاعدة من الأطعمة خلال طبخها بكل ما يحويه من بروتينات أن تغذي هذه البكتيريا فتزيد من نشاطها. أما فتح النوافذ والأبواب بشكل كافٍ لتبديل هواء البيت كله دفعة واحدة، فيقذف بالكثير منها ومن موقومات حياتها إلى الخارج.

التنفس وحده قد يتسبب بمشكلة

وحتى ولو خلا البيت من كل أشكال التدفئة، فإن إحكام إغلاق النوافذ والأبواب لوقت طويل لا بد وأن يتسبب بمشكلة إذا كان البيت مسكوناً بعدد معين من الأشخاص (والعدد مرتبط بحجم البيت وعدد غرفه). فخلال التنفس يستهلك الإنسان الأوكسجين من الهواء ويرد إلى الهواء النيتروجين، وبانخفاض نسبة الأوكسجين في الجو وارتفاع نسبة النيتروجين يصبح الهواء فاسداً وتبدأ آثاره السلبية بالظهور على من يتنشقه.

عوارض الهواء الفاسد

تشير مصادر «الجمعية الأمريكية لأمراض الرئة» أن فساد الهواء داخل الأماكن المغلقة يتسبب بحوالي 50 في المئة من المتاعب الصحية أو يزيد من خطورتها عند مختلف الشرائح العمرية. فإضافة إلى التسمم حتى الموت بأحادي أكسيد الكربون من دون أي شعور مسبق، يمكننا أن نذكر من آثار استنشاق الهواء الفاسد داخل البيوت المغلقة ما يأتي:

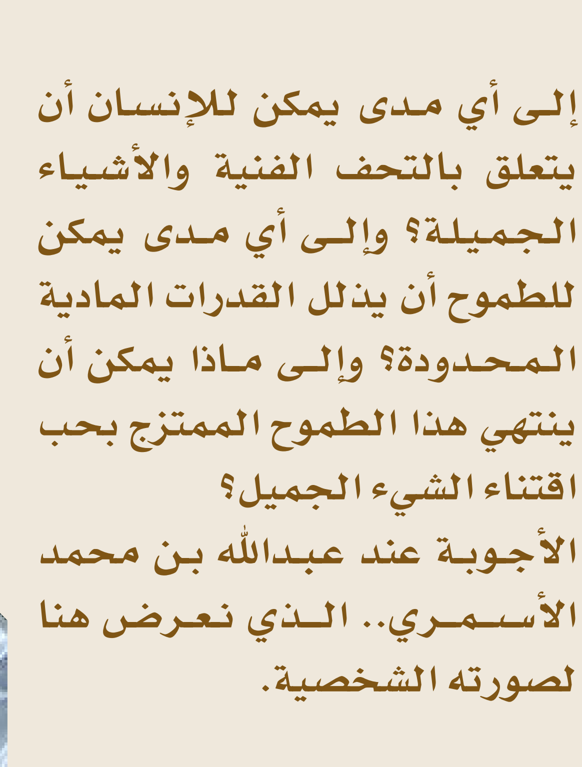
- ضيق تنفس وسعال وسرعة نبضات القلب عند الحساسين أكثر من غيرهم مثل المصابين بداء الربو.
- الشعور بالخمول والتعب.
- الشعور بالغثيان وفقدان الشهية للطعام.
- سرعة إيقاع التنفس وارتفاع نبضات القلب عند الأصماء.
- التقيؤ والإغماء.. وأخيراً الموت إذا لم يتدارك الأمر بتهوئة البيت كما يجب، أو نقل المصاب إلى الخارج إذا كانت العوارض قد وصلت إلى مستوى حرج.

التهوئة الشاملة حسب الحاجة

بشكل عام ينصح الأطباء بوجوب تهوئة البيت بالكامل مرتين خلال اليوم، تشرّع فيها الأبواب والنوافذ تماماً لبضعة دقائق. مرة في الصباح بعدما يكون الكثير من الهواء قد فسد خلال الليل بفعل التنفس، ومرة عند المساء قبل النوم، توفيراً للهواء النظيف اللازم طوال الليل. أما خلال النهار، فإيقاع التهوئة مرتبط بنوع التدفئة، وبمستوى انعزال هواء البيت عن الخارج. المهم أن إحكام إغلاق النوافذ حرصاً على دفء الداخل وتوفيراً للطاقة، يجب أن يتم بوعي وبحذر لطول المدة التي يجب أن تبقى فيها مغلقة.

فتوفير الطاقة يجب أن يبقى في الحسبان، ولكنه لا يمكن أن يتم على حساب الصحة. فالمسألة كلها كما أشرنا سابقاً، مسألة توازن. وللحفاظ على هذا التوازن يجب أن نعرف بيوتنا جيداً.

صورة شخصية

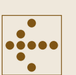


إلى أي مدى يمكن للإنسان أن يتعلق بالتحف الفنية والأشياء الجميلة؟ وإلى أي مدى يمكن للطموح أن يذلل القدرات المادية المحدودة؟ وإلى ماذا يمكن أن ينتهي هذا الطموح الممتزج بحب اقتناء الشيء الجميل؟ الأجوبة عند عبدالله بن محمد الأسمري.. الذي نعرض هنا لصورته الشخصية.



عبدالله الأسمري..

القدرة والطموح والحب و.. المتحف



ولد عبدالله الأسمري في مدينة أبها، عام 1371هـ، والتحق في العام 1390هـ بالقوات الجوية الملكية السعودية بالظهران، حيث وصل إلى رتبة ضابط صف، ومن ثم تقاعد قبل سنتين (1424هـ).

وإضافة إلى عمله العسكري، انهمك الأسمري طوال هذه السنين بشراء واقتناء كل الأشياء التراثية والفنية والأثرية التي كان يستطيع الوصول إليها. يقول عن ذلك: «اقتبست حب التراث من الوالد -رحمه الله- عندما كنت طفلاً وأنا أرى أدواته الشخصية من خناجر وسيوف وأدوات عمله الزراعي. وعندما توفي كنت أتذكره لدى رؤية هذه الأدوات فأعتني بها وأنظفها وأرتبها. كنت آنذاك في العاشرة، وعندما أصبحت في العشرين بدأت باقتناء كل ما هو أثري وقديم، من دون أن أتخصص في أي صنف محدد..».. والنتيجة؟

مجموعة.. وأية مجموعة؟

على مدى ثلاثين عاماً وأكثر من جمع التحف والأشياء الجميلة والأدوات التراثية، تضخمت مجموعة الأسمري إلى أن ضاقت بها كل الأماكن. ودعماً له في الحفاظ عليها، وضعت قيادة القاعدة الجوية في الظهران في تصرفه مبنى المطار القديم لإيواء مجموعته.

فما الذي يمكن للزائر أن يجده في هذا المتحف الذي يشغل بالكامل مبنى ضخماً؟

مجموعة من الأسلحة والسيوف والخناجر، مخطوطات، عملات، طوابع، آنية طعام خشبية ونحاسية، لُقى أثرية حجرية عليها نصوص بالخط الحميري، متحجرات، ساعات يد، آلات طباعة وتصوير وخياطة، أدوات الفروسية، أوسمة، صور فوتوغرافية.. وأيضاً الأدوات الطبية القديمة والمعدات العلمية وعشر سيارات تعود إلى النصف الأول من القرن العشرين، منها الكاديلاك والكرايزلر والفورد والرولزرويس وصولاً إلى كوب الكرتون الذي يحمل شعار أرامكو السعودية!!

المبنى ممتلىء بالكامل، بقاعته الرئيسة والقاعات الجانبية العديدة.. وباستثناء قاعة المدخل حيث رتبت بعض القطع بشكل يليق بها، تبدو آلاف وآلاف القطع في القاعات الأخرى مكدسة فوق بعضها البعض.. وقبل أن يستيقظ الزائر من دهشته، يغرقه الأسمري في مزيد من الدهشة بقوله: «الموجود في هذا المبنى يشكل نحو أربعين بالمئة فقط من مجموعتين. الباقي يحتل مبنى آخر في الجهة الأخرى من المنطقة، إضافة إلى كمية أخرى في الأحساء وأبها..»!! والمجموع؟ يقول: «عدة ملايين.. لا أعرف».

الثروة في الطموح

نسأله: «كيف تمكنت من شراء كل هذا؟ هل ترك لك الوالد ثروة ساعدتك على ذلك؟».

فيجيب: «أبداً، فالوالد -رحمه الله- كان مزارعاً. بدأت بالاقتناء من راتبي كعسكري. ولكن الحظ ساعدني في أنني بدأت مجموعتي باكراً، قبل أن ينتبه الناس إلى قيمة الأشياء القديمة. ولا تزال هذه المجموعة تستهلك حتى اليوم القسم الأكبر من مدخولي».

ويضيف: «واجهتني صعاب كبيرة، ولكن بفضل من الله، ومن ثم مساعدة أبنائي سيف ومحمد وسلطان وتشجيعهم المتواصل لي، تمكنت من تذليل الكثير من هذه الصعاب».

وما هي القيمة المادية لهذه المجموعة؟

لا أعرف.. لقد عرض عليّ أحد أبناء المنطقة الشرقية الذين لهم باع طويل في هذا المجال ثلاثين مليون ريال لشرائها. ولكني رفضت. وسأرفض حتى لو عرض عليّ مائة مليون.

ثمة ما هو نبيل وغامض

في شخصية عبدالله الأسمري ملامح عميقة لا يستطيع المرء قراءتها إلا بعد التفكير فيه وبالزخارف الصغيرة المختبئة في حنايا حديثه وتصرفه بمجموعته.

فالثوب الأبيض والحديث عن التحف الأثرية لا يخفيان تماماً شخصية صاغتها الحياة العسكرية على مدى أكثر من ثلاثة عقود. فالرجل مباشر وصريح وواضح. لا يبدو عليه أي تذمر أو تبجح بما بذله في سبيل تشكيل مجموعته، بقدر ما يبدو عليه السرور الرصين بالنتيجة.

قد يستغرب المرء وهو يزور متحفه وجود بعض التحف الحقيقية التي تليق بأرقى المتاحف مثل مخطوطات القرآن الكريم، أو ساعة جيب جلالة الملك فيصل، يرحمه الله، أو درع فارس مغولي من القرن السابع عشر، أو سيف قديم مُطعّم بالفضة والذهب بجوار أشياء حرفية جديدة يمكن العثور عليها في أسواق اليوم.. ولكن التغلغل إلى أعماق الرجل قليلاً يؤكد أنه مهتم بقيمة الشيء وليس بثمنه.. بدلالاته الثقافية والحضارية، وليس بالقدرة على الإبهار التجاري. وبموجب مثل هذه النظرية العميقة إلى الأمور يصبح الشيء البسيط الذي يحمل شعار أرامكو السعودية القديم أو الجديد، على سبيل المثال، قطعة يجب الحفاظ عليها من وجهة نظره.

ويتعدى سخاء الرجل ما هو ظاهر في فتح أبواب متحفه أمام الزائرين مجاناً. إذ يتجلى أيضاً في دعوته غير المباشرة للآخرين إلى مشاركته الاستمتاع بهذه المجموعة. ولذلك يوزع بعض الطاولات في أرجاء المبنى واضعاً عليها كتالوجات الطوابع والنقود ومجلات الفنون والآثار، توفيراً للجو الملائم لمن يريد أن يقرأ أو يبحث. كما بدأ بتشكيل مكتبة خاصة حباً بإطلاع الناس على الماضي وفنونه.. ويقول إنه يقبل بإعارة الكتب لهذه الغاية.

وبخلاف أحاديث هواة جمع التحف، يكاد الحديث مع الأسمري أن يخلو تماماً من الإشارة إلى ثمن أية قطعة اشتراها. حتى عندما يسأله المرء عن ثمن هذا السيف أو ذاك الحجر، يجيب فوراً: «لا أعرف، لا أذكر». ويبدو عليه فعلاً أنه غير مهتم بهذه الناحية.. ولكن بالمقابل، تكثر في حديثه مفردات مثل: «تاريخنا، تراثنا، وطننا، ماضينا..» ولا يبدو عليه التجهم أو الحسرة، إلا عندما يفكر في القطع الأثرية والفنية المحلية التي انتقلت إلى الخارج تصديراً أو تهريباً.

ويتأكد عمق اهتمام الأسمري بالتراث الوطني من كون أكثر من نصف مجموعته ينتمي إلى التراث المحلي. أما النصف الثاني فمعظمه يعود إلى البلدان الإسلامية في عصور مختلفة: الهندي والعثماني والفارسي والمغربي وغيره، في حين أن قلة قليلة (نسبياً) تعود إلى تراث الحضارات الغربية.

الأغلى على قلبه

ومتى ستتوقف عن شراء التحف؟ أليس عندك ما يكفي؟

«هذا شيء لا أستطيع التوقف عنه. ولكني أصبحت الآن أقتني بانتقائية أكبر من السابق. وعندما أجد قطعة ملائمة، فسأبذل جهدي لاقتنائها».

وقبل أن نغادر متحف الأسمري، خطر ببالنا سؤال: لو افترضنا أن حريقاً اندلع في هذا المتحف، لا قدّر الله، وأُعطيت إمكانية إنقاذ قطعة واحدة فقط من ملايين القطع هذه، فأية قطعة تختار؟

فأجاب فوراً: «جنبية الوالد». ومشى بنا صوب إحدى الخزائن الزجاجية، ليشير إلى خنجر طويل قديم ومُطعّم بالفضة، مضيفاً: «هذه هي القطعة التي أنقذها، لأنها كانت الأولى التي أشعلت في نفسي حب التراث.. علّني أبدأ بها مجموعة جديدة».



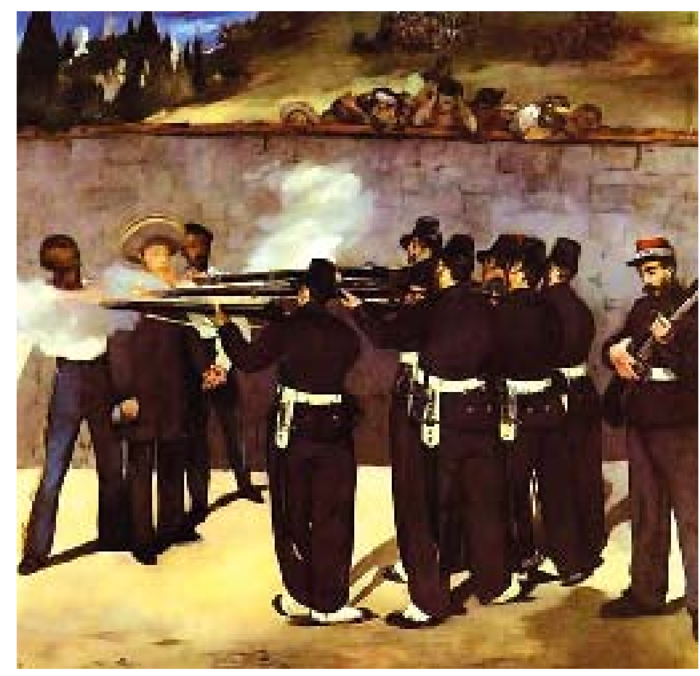
شكّلت الحرب كاهتمام أو كهم إنساني، موضوعاً حاضراً وحياً في تاريخ الفن. وكما لكل حرب خصوصيتها تاريخاً وأهدافاً، وجنداً ونتائج، فلكل فنان قراءته الخاصة للحرب، ولغته في تصويرها والتعبير عنها. إبراهيم العريس يحدثنا عن الأشكال التاريخية لهذه العلاقة ما بين الطرفين.

الفنان شاهد عيان ومعبّر عن الذات..

ألوان الحرب بالألوان!

معركة «سان رومانو» لفنان النهضة الإيطالية باولو أوتشيلو





إعدام الإمبراطور ماكسيميليان لغويا



«الإعدام يوم 3 مايو 1808» لغويا أيضاً

«.. صراخ أطفال.. صراخ نساء. صراخ عصافير، صراخ أزهار، صراخ ألواح خشبية، حجارة وقطع قرميد، صراخ أثاث، أسرة، كراسي، ستائر، أوان معدنية، قطط، أوراق. صراخ روائح تنتشر في المكان، دخان يغرز في الأعناق، صراخ يتسلل إلى المدخنة، صراخ أمطار طيور تتدفق نحو البحر..».

رؤية كابوسية أو رؤية شاعرية؟ في الأحوال كافة هي عبارات أراد فنان إسبانيا الكبير بابلو بيكاسو أن يصف بها رؤيته الخاصة لحلقة من حلقات الحرب الأهلية في موطنه الأصلي إسبانيا. كتبها عند بداية العام 1937م يوم كانت تلك الحرب على أشدها. لكنه بعد شهور قليلة، وكأنما في نوع من الرد البصري على هذه الصورة القلمية، عاد بيكاسو ليرسم نظرته إلى الحرب مرة أخرى. ولكن هذه المرة على لوحة عملاقة تُعرف اليوم باسم «غويرنيكا»، على اسم المدينة التي دمرتها طائرات فاشيي فرانكو عن بكرة أبيها، محولة عبارات بيكاسو إلى واقع حي.

وما فعله بيكاسو حين أراد تخليد تلك المأساة الكبرى من مآسي القرن العشرين، إنما كان ترجمة نصه نفسه إلى خطوط وألوان. «غويرنيكا» هي اليوم الأشهر بين أعمال بيكاسو، وربما كانت الأشهر، أيضاً، بين كل الأعمال الفنية التي رسمت في القرن العشرين. ومن المرجح أن هذه الشهرة تعود إلى كون هذه اللوحة قد عرفت كيف تكون مرآة حقيقية للإنسان إذ يصبح وحشاً إزاء أخيه الإنسان.

فهنا، في هذه اللوحة المدهشة، لا يعود المرء واقفاً يتأمل الحدث المرسوم نفسه (تدمير الحرب لبلدة إسبانية وديعة – كما تروي لنا كتب التاريخ)، بل يجد نفسه أمام تفسير يقدمه الفنان، بلغته الخاصة، لما يعتبره «حدث العصر»: الفنان يصور هنا ما يرى أنه «بروفة» نهائية، على الطريقة الفاشية، لنهاية العالم.. ما يعني أن الراهن التاريخي ليس هو ما تصوّره اللوحة كحدث ملموس عابر يعطي قيمته للمدى المرسوم، بل أبدية الألم التي لا نهاية لها.

مثالية الفاجعة

ومن هنا ما يمكن أن نقوله من أن «غويرنيكا» بيكاسو هي أنموذج الرسم التاريخي، الذي يسمح به تاريخ الفن بين الحين والآخر، ممكناً إياه من أن يكون مستقلاً عن الواقع الخارجي، مرتبطاً مباشرة بوعي الفنان وأحاسيسه وضروب غضبه: الفنان هنا، بوصفه شاهد عيان يمحى تماماً أمام الفنان وقد شاء أن يعبر كلياً عن ذاتيته إزاء ما يحدث.

وفي النتيجة، لا تعود هذه اللوحة وصفاً لحدث تاريخي، بل تعبيراً عن أثر ذلك الحدث على روح الفنان وعواطفه.

وفي يقيننا أن كل لوحات الفن العظيم التي ما فتئت تعبر عن الحرب، منذ وجد الفن واكتشف في الحرب موضوعاً أثيراً له، إنما هي – بشكل أو بآخر – تعبير عن ذات الفنان وقد تجابهت مع الحرب. غير أن هذا لا يعني، بالطبع، أن كل الأعمال الفنية التي تناولت الحرب كانت من هذا النوع، أو على مثل الغضب والصراخ اللذين يطبعان لوحة بيكاسو.

إننا نعرف، بالتأكيد، أن الحرب – إلى جانب الحب وبالتعارض معه – كانت دائماً واحداً من المواضيع الأثيرة للتعبير الفني، وليس في مجال الرسم وحده. بل إن وعي الفن نفسه إنما تأسس على وعي الصراع، طالما أننا

نعرف أنه، ومنذ فجر البشرية، كانت نادرة تلك الحقب التي عاش فيها الإنسان من دون حرب.

فهو يعيش الصراع منذ وعي وجوده في الدنيا: صراع ضد الطبيعة، ضد أخيه الإنسان، ضد العناصر العادية، ضد القبائل والأمم الأخرى.. ومع تطور الأزمان صارت الحروب حروباً بين الأمم، حروب أديان، حروباً اقتصادية، حروباً سياسية.. وأخيراً حروباً اجتماعية. وإذ راحت الحضارات تتوالى، بدأ عرق يحل محل آخر في امتلاك الإمبراطوريات، وخاصة مع توالي الحقب: حقبة زراعية فحقبة صناعية فحقبة تجارية.

كل لوحات الفن العظيم التي ما فتئت تعبر عن الحرب إنما هي تعبير عن ذات الفنان وقد تجابهت مع الحرب

والفنان كان يراقب ذلك كله. أولاً لحساب أمته وقادته، فيرسم كمدوّن التاريخ، لوحات وأحفورات تمجد الغزوات، وأعمال تصور الانتصارات، ثم بعد ذلك كفنان تتأثر ذاته بما يحدث. ذلك أن الفنان، منذ بداية الفن كنشاط ذهني خلاّق ومستقل، أدرك كما أدرك الفيلسوف والمفكر وكاتب المسرح من قبله أن الحرب إنما هي التعبير المثالي عن «الفاجعة».

فظروف الحرب ومادتها وإطارها ونتائجها هي بالضرورة مفجعة. الحرب تحمل فجيعتها منذ قتيلها الأول. غير أن هذا الإدراك لم يكن ممكناً إلا بعد التحوّل من عمومية التاريخ الجماعي، إلى خصوصية المغامرة الفردية.. إذ حين وعى الإنسان وجوده الفردي، وجد نفسه مواجهاً لمصيره، لحياته، لموته ولذاته. وبدت له الحرب – إذ يقتصر على الحرب حديثنا هنا – مكاناً تسقط فيه الأقنعة وتتفكك الشخصية مخلية المكان أمام ما هو جوهري. والفنان بوصفه إنساناً بامتياز .. كان هو أول من التقط هذا الجوهري.

من الوعظ إلى التعبير

من المؤكد هنا أن ليس في وسعنا تحديد بداية حقيقية لتحوّل الحرب إلى موضوع تراجيدي ذاتي في اللوحات الفنية. ولكن يمكن القول إن عصر النهضة الأوروبية – في إيطاليا خاصة، كما في هولندا – كان العصر الذي بدأ فيه الفنان يعبر عن الحرب كمأساة فردية تصيبه هو شخصياً في الصميم، إذ اكتشف التعبير الإنساني في العمل الفني كما في الحياة نفسها، وبدأ ينظر إلى الفرد بكونه أساساً في الوجود، وليس فقط وقوداً للجماعة.

غير أن نظرة الفنان هذه، لم تبرز إلا في شكل خجول، مثلاً في لوحات هيرونيموس بوش التي تطابق فيها الموت والحرب والجحيم في بوتقة واحدة، وبدا واضحاً لديه أن الحرب مدانة بقوة.. حتى وإن كان من الصعب تلمس فردية الوعي بقسوة الحرب في أعماله الضخمة.

فهذه الفردية بشكلها الواعي تماماً، كان عليها أن تنتظر القرنين التاسع عشر والعشرين قبل أن تظهر على الساحة بوضوح. فقبل ذلك صُورت قسوة الحرب وتدميرها من منطلقات عمومية.

كان على الفن إذن أن ينتظر مثلاً، أعمال غويا ولا سيما منها تلك التي رسمها أواخر حياته وأطلق عليها اسم «الرسوم السوداء»، قبل أن يربط الحرب ومأساويتها نهائياً بفردية ضحيتها الأولى والأخيرة: الإنسان. ولسوف يسير على خطى غويا في هذا عدد لا بأس به من الفنانين الفرنسيين والإسبان، من مانيه إلى بيكاسو، مروراً بديلاكروا وهونوريه دومييه .. وصولاً إلى كبار الفنانين الذين عبروا عن الحرب طوال القرن العشرين. ولم يكن هذا التوقيت صدفة أو مجرد وعي فني طارئ.

فالحال أن الحروب حتى ولو كانت مدمرة طوال تاريخها للجماعات كما للأفراد، ظلت في وعي الفنانين حالة استثنائية، يمكن مقاومتها بالتعبير عن السلام والصفاء، إذ كان الفنان لا يزال يعتبر أن رسالته قادرة على التأثير. لكنه – أي هذا الفنان – إذ انتقل من التأثير إلى التعبير،

من «رباعية الحرب» (العالمية الأولى) للفنان الألماني أوتوديكس



«الغويرنيكا» لبيكاسو (1936) أشهر لوحة تمثل الحرب في تاريخ الفن

أدرك أن الحرب جزء عضوي من كينونة البشر، وأن على فنه أن يكف عن التطلع إلى أن يكون رسالة وعظ ليتحول إلى تعبير يضع الحقيقة - وقد مرت عبر مرشح وعيه الخاص - أمام بصر وبصيرة الناس، تاركاً لهم الخيار والقرار.

للقرن العشرين خصوصيته بعدما تحولت الحروب من محلية الى عالمية، ولذا ماكان بإمكان التعبير إلا أن يختلف تماماً

ومن هنا راحت اللوحات تحمل صوراً لأهوال الحرب وفظائعها، من دون أن تتوخّى من خلال ذلك أن تحمل عظة معينة. ولقد كان من شأن هذا أن حرر الفنان تماماً في عالمه التعبيري. ولولا هذا التحرر لما كان في وسع رسوم غويا السوداء أن يكون لها كل ذلك التأثير الذي وصل لاحقاً إلى بيكاسو.. ولكن ليس إلى بيكاسو وحده، وإن كانت لوحة بيكاسو «غويرنيكا» قد تمكنت من أن تكون العمل الأبرز.

قسوة حروب الأمم

فالحال أننا إذا استعرضنا كل الحروب، بين الأمم والشعوب، ثم الحروب الأهلية والثورات والانتفاضات التي اندلعت خلال القرنين الفائتين سوف يدهشنا كم أن الفن تصدى دائماً للتعبير عنها. وغالباً من منطلق الإدانة، ومن منطلق تصوير الحرب كفعل قتل وتدمير لا أكثر. ومن هنا بدا البون شاسعاً بين جداريات الأزمان القديمة التي كانت - لدى الفراعنة وغيرهم من الشعوب - تصوّر الجيوش المظفرة تجر الرقيق الأسرى المسبيين دون أن يرف للفنان جفن غضب أو انتقاد -، وبين اللوحات المعاصرة التي تقف مع الضحية ضد الجلاد.

ومع هذا كان ثمة دائماً فنانون يصورون أمجاد الحروب، وحسبنا أن نذكر هنا أن نابليون كان يصطحب في غزواته فنانين كثراً يعودون بلوحات تمجد فتوحاته. ومثله فعل الكثيرون من القادة والزعماء.. مما خلف للبشرية أعمالاً فنية كافية، في حد ذاتها لحكاية تاريخ العالم. غير أن الذي يعنينا هنا ليس هذا النوع من الفن، على أهميته «وجماله» ما يعنينا هنا هو الفن الآخر: التراجيدي الغاضب، الذي لم ير في الحروب سوى القتل والتدمير، ولم ير للفن من دور سوى فضح ذلك كله.

فللقرن العشرين خصوصياته، وقد تحولت الحروب من حروب محلية - ظلت محصورة مهما كانت ضخامتها - إلى حروب عالمية تفتك بعدد كبير من الشعوب وتلقي أطنان وأطنان القنابل وصولاً إلى القنابل النووية، ولذا ما كان في إمكانه إلا أن يختلف في التعبير تماماً: ارتبط مرة أخرى بالجنون الذي لطالما عبر عنه هيرونيموس بوش ومواطنه بروغل، لينتج أعمالاً تصف أول ما تصف جنون الحرب. ولقد كان هذا، بشكل خاص، من دأب الفنانين الألمان خلال النصف الأول من القرن العشرين، ولا سيما منهم أولئك الذين جابهوا كارثة الحرب العالمية الأولى بشجاعة. ثم - وبشجاعة أكبر - جابهوا الطغيان النازي.

وعلى هذا النحو يمكننا اليوم أن نتأمل في دهشة مطلقة لوحات جورج غروش، وأوتو ديكس وماكس بيكمان.. ولاسيما أعمال هذا الأخير الذي لطالما صور الحرب وفاجعة الإنسان فيها، خاصة في لوحته «الليل» التي صور فيها «إنسان الحرب العالمية الأولى».

وما نقوله هنا عن بيكمان يمكن قوله، مثلاً، عن أوتوديكس، الذي كان من أكثر الفنانين الألمان تصويراً للحرب وجنونها، ولاسيما خلال الحرب العالمية الأولى، منذ أن رسم «صورة ذاتية كجندي» ثم «المدفع» بين سلسلة لوحات «حربية» مدهشة في قوتها وجنونها. غير أن ما كان مجرد انطباعات ذاتية قاسية خلال الحرب العالمية الأولى، تحول

لاحقاً لدى أوتوديكس، إلى أعمال أكثر تعبيرية وقسوة، مع مرور السنوات وتطور الأحداث. وهكذا رأيناه يرسم في العام 1927م «الانتفاضة»، على غرار أعمال مشابهة لغويا ومانيه، ثم يرسم في العام 1929 - 1932م. رباعيته الشهيرة «الحرب» التي يكاد جزؤها الأوسط والأهم يختصر كل ما كان يمكن لفنان أن يقوله حول الحرب.

صراخ أم استعراض

والحقيقة أن الصراخ ضد الحرب وجنونها بلغ ذروته على أيدي فنانين من طبقة بيكاسو وأوتوديكس. لكنه في طريقه إلى تلك الذروة، عرف كيف يمر بفنانين آخرين كثر، في معنى أن الفن - الرسم كما السينما وأكثر بكثير من ضروب الأدب - كان ويظل الأقوى والأعنف في مجال التعبير عن رفض الحرب ورفض جنونها.

> **في التعبير عن الحرب يتحول المشهد على فجائعيته وجنونه إلى مشهد استعراضي جذّاب**

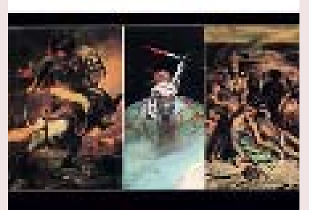
غير أن هذا كله يجب ألا يمنعنا من ملاحظة تناقض مرعب في هذا السياق كله: حيث إن الفنان، من خلال تعبيره عن الحرب، وفي لوحات، بدت دائماً أنها الأبرز والأكثر أهمية في سياق نتاجه الفني الخاص (سواء أكان هذا الفنان بوش أو بروغل، غويا أو ديلاكروا أو مانيه، بيكاسو أو بيكمان أو أوتوديكس)، حوّل المشهد الحربي، على فجائعيته وجنونه إلى مشهد استعراضي جذاب. بحيث أن المتفرج لا يعود يعرف ما إذا كان هنا أمام مشهد يندد بالحرب ويفعل القتل والتدمير الذي تعبر عنه، أم أمام مشاهد تمجد الموت وتعطيه بعده الجمالي.

وهذا التناقض هو الذي يعيدنا مرة أخرى إلى ما كنا ذكرناه عرضاً في هذا السياق: أين هو الفنان نفسه من هذا كله؟ هل هو هنا، في لوحته وعبرها، صاحب رسالة أو صاحب صورة؟

من المستحيل طبعاً الإجابة عن مثل هذا السؤال. وهذا الأمر يرتبط بطبيعة الفن نفسه، هذه الطبيعة التي لم يتمكن التاريخ من حسم أمرها. ولكن، في انتظار مثل هذا الحسم، يبقى لنا أن نشاهد الأعمال الفنية هذه، في المتاحف أو في المجموعات الخاصة، كما في الكتب الفخمة واللوحات المستنسخة ونقول في سرنا: حتى ولو كان الفنان يحول مشهد القتل والدمار إلى مشهد جدير بأن يشاهد بإعجاب، فإنه ليس هو من صنع المشهد. القتل به وبدونه دائر. أما الفنان فإنه شاهد على ما يحدث، متأثر به، مؤيّد لمشاهده على مسطح اللوحة، مسجل للحظات الجنون... الجنون الذي يتسبب به الأقوياء ويقع ضحيته الضعفاء. ويتأرجح الفنان وفنه بينهما.

اقرأ للفن





«الفن والحرب»

وضع الباحثون ومؤرخو الفن عشرات الكتب التي تناولت موضوع الحرب في الأعمال الفنية. وكتاب جمال قطب «الفن والحرب» هو واحد منها، نشير إليه هنا لتوافره في المكتبات السعودية.

يقع هذا الكتاب في 144 صفحة وقد صدر عن مكتبة مصر (من دون تاريخ). ويتناول عدداً كبيراً من اللوحات التي تمثل المعارك والحروب، وبشكل شبه شامل. إذ تضمن، على سبيل المثال، بعض الأعمال المجهولة من قبل الكثيرين مثل لوحة للرسام محمد راسم الجزائري أو أعمال الفنان الإيطالي والترمورينو. كما أن المؤلف وسّع دائرة الموضوع لتشمل أيضاً اللوحات المعبرة عن العنف والبطولة والفروسية.

وللدلالة على هذه الشمولية التي يتناول بها المؤلف موضوع كتابه نشير إلى أنه أفرز فصلاً كاملاً للمرحلة البونابرتية وصولاً إلى اللوحات التي تمثل العديد من شخصيات ذلك الزمن بمن فيهم الأميرات من عائلة نابليون، كما أنه لم يتهرب من تناول رسوم الحرب في قصص الخيال العلمي الأقل شأناً علي الصعيد الفني من غيرها.

المأخذ الوحيد على الكتاب هو الطباعة السيئة للوحات الملونة، إذ فقدت الكثير من جمالها وتأثيراتها، وباتت أشبه بمجرد إشارات أو تذكير باللوحات الأصلية لمن يعرفها.



لكل معركة تكتيكها الفني

حتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت كل اللوحات التي تمثل مشاهد معارك وحروب تنجز بناءً على طلبات محددة. ولم تصلنا أية لوحة مهمة في تاريخ الفن تمثل مشهداً حربياً أنجزها فنان ما من تلقاء نفسه، أو أملاً في أن يجد من يقتنيها لاحقاً.

وعندما كان يُطلب من فنان ما أن يرسم لوحة تمثل معركة محددة، لم تكن مهمته أبداً بسط عواطفه على اللوحة، بل تنفيذ الخطاب الذي يريد الزبون أن يقوله ويحفظه من خلال هذه اللوحة، وغالباً ما كان هذا الخطاب يقتصر على توثيق النصر العسكري، أو تمجيد نصر تاريخي قديم لاعتبارات ثقافية وحضارية غير فردية على الإطلاق. أما تركيب اللوحة واختيار عناصرها الشكلية واللونية فقد كان متروكاً لعبقرية الرسام ضمن الالتزام بقيد واحد: وضوح القراءة المباشرة. ولهذا تنوعت اللوحات في هذا المجال من الناحية الفنية تنوعاً يستحيل حصره.

فلوحات «معركة سان رومانو» الثلاث التي رسمها في القرن الخامس عشر فنان النهضة، باولو أوتشيلو، تخليداً لنصر الفلورنسيين، تستمد قيمتها الكبرى من كونها من اللوحات الطليعية (إن لم تكن الأولى) التي يتجلى فيها تطور معالجة البعد الثالث في فن الرسم. أما سير المعركة فلا يترك في النفس أي أثر عاطفي. والفرسان القلائل جداً المرسومين بأحجام كبيرة يبدون وكأنهم يلعبون البولو أكثر مما هم يتحاربون.

أما «معركة أربيل» التي تمثل انتصار الإسكندر المقدوني على داريوس الفارسي، ورسمها الألماني البريخت التدورفر، فتستمد قوتها من تركيبها الفني، ومن العدد المذهل في ضخامته للجنود المرسومين فيها حتى أنهم يبدون وكأنهم صفوف نمل. والقليل من الإشعاع الرمزي، أكثر مما هو عاطفي، يتمثل في مشهد الغيوم السوداء (رمز الشر) التي تحاصر ضوء الشمس وتهدد بخنقه. ولأن للحجم دوره، وكما نتأثر برؤية حصان ميت أكثر مما نتأثر برؤية نملة ميتة، فإن هذه اللوحة تخلو بدورها من أي أثر يمكن للحرب أن تحركه في النفس.

وحتى في القرن التاسع عشر، عندما رسم جان أنطوان غرو «معركة إيلو»، تخليداً لأحد انتصارات نابليون، فإن الجثث الكثيرة التي تحتل مقدمة اللوحة، رغم واقعيتها الشديدة وكبر حجمها، لا تبدو أنها محور الموضوع، بل مجرد «أشياء يجب أن تكون هنا».

والواقع أن القرن التاسع عشر كان قرن اللوحات التي تمثل مشاهد المعارك والحروب بامتياز، وذلك بسبب الحروب البونابرتية الكثيرة.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، كانت معركة الطرف الأغر التي انتصر فيها الأسطول البريطاني بقيادة الأدميرال نيلسون على الأسطول الفرنسي-الإسباني المشترك عام 1805م سبباً في نشوء تيار فني مستقل في بريطانيا قائم على رسم جوانب هذه المعركة البحرية. وعدد اللوحات التي أنجزت تخليداً لهذا النصر هو بالآلاف. ففي كل قصر أرستقراطي أو بيت برجوازي كان يجب أن تكون هناك لوحة تمثل هذه المعركة.

ولكن معظمها اقتصر على التسجيل بشكل مقروء للسفن الحربية وأسمائها ومواقعها خلال الاشتباك، أما الجوانب الفنية والإبداعية والتجديدية فبقيت أقل شأناً، فلم ترتفع أي منها إلى مستوى معركة سان رومانو على سبيل المثال، حتى أن الكثير منها سقط في الابتذال.

أما في العصر الحديث، ومع انتصار فردية الفنان، وتحرره من قيد الزبون، باتت اللوحة فعلاً ميداناً للتعبير عن الذات والموقف، وفي حين أن بعض الفنانين حافظ في لوحته على دلالات تربطها بمعركة معينة في ظرف ومكان محددين فإن بعضهم تحرر من الدلالات تماماً.

فلوحة «الغويرنيكا» لبيكاسو مثلاً تخلو من أية دلالات تربطها بالحرب الأهلية الإسبانية، وتبدو وكأنها صرخة

معركة «إيلو» واحدة من اللوحات العملاقة التي خلّدت انتصارات نابليون للفنان الألماني أوتوديكس

ضد الحرب أي حرب، وضد الظلم الذي يتعرض له الضعفاء أينما كان في العالم. البعض يرى الأمر نقطة قوة، ولكن هناك من يراه نقطة ضعف. فالحرب الأهلية الإسبانية نفسها كانت مصدر تحفة فنية أخرى رسمها المكسيكي دافد سيكويروس. ولكن هذا الأخير ربط لوحته بهذه الحرب المحددة أكثر من بيكاسو، إذ نرى فيها بقايا الآلات والمعدات المستعملة في الحرب الحديثة إلى جانب وجه الطفل الباقي.

وبتطور المذاهب الفنية والتيارات المختلفة على مدى القرن العشرين، كان تغييب الدلالات يكتسح المزيد من المساحات الفنية، وصولاً إلى الكسوف الكامل لأي شكل من أشكال القراءة المباشرة الممكنة.

فخلال انتفاضة المثقفين أينما كان في العالم خلال الستينيات، ضد العنف والحروب، وخاصة حرب فيتنام، لجأ بعض كبار الفنانين للتعبير عن مواقفهم إلى إنجاز أعمال يصعب على المشاهد ربطها بأي حدث حربي من دون إبلاغه سلفاً بذلك. وعلى سبيل المثال، نذكر الإيطالي لوتشيو فونتانا الذي اكتفى بطلاء القماش بلون معين، اقتصره لاحقاً على الأبيض، ومن ثم تمزيق اللوحة بالسكين.. وأيضاً الفرنسي أرمان الذي كان يشتري الآلات الموسيقية، ويحرق أجزاءً منها، ليعرض ما تبقى منها على أنها منحوتة. وفي مثل هذه الأعمال، فإن المشاهد مدعو إلى الوقوف أمامها بعد إبلاغه بخطابها، والمتعة التي توفرها لم تعد على الإطلاق متعة بصرية، كما كان الحال في الأعمال القديمة، بل مجرد هزة وجدانية تولدت عن تخطيط و «تفكير» بارد، وليس عن حساسية الريشة المغمسة بالألوان.

طارق قلعجي - بيروت 

ديوان الأمس ديوان اليوم

أعطِ القوس باريها

د . خديجة عبدالله سرور الصبَّان

قال شاعرهم:

يابـاريَ القوس بريـاً لسـتَ تُحكِمُـهُ
لا تَظلِـم القوسَ، أعطِ القوسَ باريها

وضع الشخص المناسب في المكان المناسب من أكثر المبادئ ارتباطاً بمفهوم إدارة الجودة، ولذا نجد المؤسسات التي تسعى إلى تحقيق أعلى مستويات النجاح والتقدُّم تحرص كل الحرص على تطبيقه باعتباره إحدى أهم الوسائل التي تقود إلى تحقيق الأهداف. والسؤال الذي قد يتبادر إلى الأذهان بعد قراءة هذه المقدمة هو: ما علاقة ما جاء بها من حديث عن مبادئ الجودة وتحقيق الغايات..بديوان الأمس، وهل يمكن أن يكون أولئك البُداة الحفاة قد تفتَّقتْ أذهانهم عن مثل هذه المفاهيم التي يُظنُّ ظنّاً يُوشك أن يبلغ درجة اليقين أنها ناتج من نواتج حضارة القرن العشرين؟! ويأتي الجواب: نعم لقد عرف أولئك البُداة ومنذ ذلك الزمان مفاهيم الجودة وحُسْن الأداء، بل حضُّوا على التمسُّك بها، وذلك ما يكشف عنه ديوانهم وأمثالهم، فمن تلك الأمثال قولهم: أعطِ القوس باريها، أي استعن على العمل بمن يُحسنه. وقد

فنحن أمام بيت يكشف -صياغةً وانتقاءً للألفاظ- عن حرص شديد على ترسيخ مفهوم الإتقان، وأنَّه لازم من لوازم التصدي للأداء على كلِّ المستويات، ومع مختلف أنواع الأعمال. فهل هناك ما هو أقسى من الوصف بالظلم -وأصله في اللغة وضع الشيء في غير موضعه-: لا تظلم القوسَ بأن تتصدى لبريها وأنت لم تبلغ بعدُ مرحلة الأهليَّة لتعاطي ذلك الفعل، والحلُّ المطروح ينحصر في خيار أَوْحد: التنحِّي والاستقالة التي تَعقبُ تسليم المهمة إلى من يُحسن القيام بها.

وقد جاء الإسلام فزاد ذلك المفهوم ترسيخاً؛ إذ عدَّ التنازل عنه وتضييعه من صور تضييع الأمانة، وتضييعها من علامات الساعة. فها هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُعلنُ محذِّراً من ترك العمل بهذا المبدأ: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر السَّاعة». ومثل آخر من أمثالهم يُؤكِّد تمكُّن ذلك المفهوم من عقولهم ونفوسهم، وهو قولهم: «قَتَلَ أرضاً

عالمُها»، ويَعنونَ به: ضَبَطَ الأمرَ مَنْ يَعلمه وحَذِقَ به. يُقال: قتلتُ الشيءَ علماً، إذا علمته من وجوهه. فالفيصل بين أن يَقْتُلَ وأنْ يُقْتَلَ هو التزوُّد بخبرات ومهارات قطع المفازات. فالعلْمُ هنا علم ممارسة وتجريب، كما أنَّ بري القوس كذلك. وتلخيص المسألة وما شابهها نجده في قول شاعرهم:

وَمـا هَـداكَ إلـى أرْضٍ كَعالِمها
ومـا أعـانَـكَ فـي عَـزْمٍ كَـعَـزَّامِ
ولا استَعْنتَ على قَـوْمٍ إذا ظَلَمُوا
مِـثلَ ابـنِ عَـمٍّ أبـيِّ الظُّلْمِ ظَلاَّمِ

وصورة أخرى لهذا المبدأ لها تعلُّق خاصٌ بأمر الممثّلين والمُفَوَّضِينَ المفاوضين، والتمثيل: -سواءً كان على مستوى الدول، أو على مستوى المؤسسات والشركات والإدارات نزولاً إلى مستوى علاقات الأفراد بعضهم ببعض: أُسراً وأقارب وأصدقاء وزملاء- يتطلَّبُ مواصفات خاصة، فمن يُعقد العزم على انتدابه للتمثيل على أيِّ من المستويات المذكورة فلا بُدَّ من أن يكون مزوَّداً بنوعين من الزاد، الأوَّل: سمات ذاتية تتحلَّى بها شخصيته، والنوع الآخر: تعليمات واستراتيجيات وأهداف واضحة ومحدَّدة من قِبل المرسل. وفقدُ أيٍّ من النوعين ينتج عنه فشل مَهَمَّة المرْسَل التي انْتُدِبَ لأجل إنجازها. هذا ما يضع أيدينا عليه شاعر من مُخضْرمي الدولتين (الأمويَّة والعباسيَّة)، هو أبو عطاء السِّندي حيث يقول:

إذا أرسـلـتَ فـي أمـرٍ رسـولاً
فـأفـهِـمْـهُ وأرسـلـه أديـبـا
فـإنْ ضـيَّـعـتَ ذاك فـلا تَـلُمْـهُ
عـلى أنْ لـم يـكُـنْ عَـلِـمَ الغُـيوبا

الأديب: هو الإنسان الظريف، ذو الرأي الحَصيف الذي يُحسن تناول الأمور وتقليبها على وجوهها، وإفهامه تزويده بمرادك وأهدافك وما ترمي إليه وتتطلع إلى تحقيقه. قال المتنبي مبيناً أهمية هذه السِّمات في إنجاح المهمات وتحقيق الغايات:

الـرأيُ قبـلَ شـجاعةِ الشُّجعانِ
هـو أوَّلٌ وهـي المحـلُّ الثاني
فـإذا همـا اجتمعا لنفسٍ مـرَّةً
بَـلَـغَـتْ مـن العلياءِ كـلَّ مكانِ
ولـرُبَّـما طعـنَ الفتـى أقرانَـهُ
بـالـرأيِ قَبْلَ تَطاعُنِ الأقْـرانِ

ويؤكدُ ماذهب إليه المتنبِّي شاعرٌ آخر من شعراء الدولة العباسيَّة -هو إبراهيم بن العباس الذي كان كاتبًا للمعتصم والواثق والمتوكل- حيث يقول:

وإذا الحـروبُ غَـلَـتْ بَعَـثْـتَ لها
رأيـاً تَـفُـلُّ بـه كـتائـبَـهَـا
رأيـاً إذا نَـبَـت السُّيوفُ مضى
قُـدُماً بها فَشَفى مَضارِبَها
يُمْضِي الأُمُـورَ على بَديهَتِه
وتُـريـه فِـكـرتُـهُ عـواقِـبَـهـا
فَـيَـظَـلُّ يُـورِدُهـا ويُـصْـدِرُهـا
وَيَـعُـمُّ حـاضِـرَهـا وغـائِـبَـهـا

وهناك جانب آخر ذو أهميَّة بالغة في ضمان توفير النجاح لتنفيذ المهمات -في أيِّ مجال وعلى أيِّ مستوى- وهو جانب وضع الخطط ورسم الاستراتيجيات. وقد أدرك قدماؤنا -كما يكشف عنه ديوان الأمس- خطورة دور المخططين وواضعي الاستراتيجيات، فنصُّوا على حضورهم القوي في مرحلة التنفيذ -على الرغم من غياب ذواتهم- من خلال ما رسموا وما هندسوا؛ فبصماتهم شديدة الوضوح، وقسماتهم قويَّة السطوع في كلِّ خطوة من خطوات تلك المرحلة. وها هوَ الشاعر الكبير، ابن الرومي يتغنَّى -في إحدى قصائده- بدور واحدٍ منهم (صاعد بن مُخلِّد)، حيث يقول:

تَـراهُ عَـنِ الحَـربِ العَـوَانِ بِمَعْزِلٍ
وآراؤهُ فيها، وإنْ غابَ شُهَّدُ[1]
كما احتجبَ المِقْدارُ[2] والحكمُ حُكمُهُ
على الخَلْقِ طُرّاً[3]، ليس عنه مُعَرَّدُ[4]

والهاء في «تراه» تعودُ على الممدوح، فهو غائبٌ جسداً، حاضرٌ رأياً وأثراً يفعلُ الأفاعيل ويُبطل الأباطيل، يُنزلُ الجميعَ على حكم رسمه وتخطيطه دون أن يترك لأية شاردةٍ أوْ واردة منفذاً للفرار.

---

(1) شُهَّدُ: حاضرات. (2) المِقْدارُ: القَدَر.
(3) طُرّاً: جميعاً. (4) مُعَرَّدُ: فرار.

أمام المرآة



بدأ اللقاء بنظرة تتملق ... وجرى الحوار، وصمتنا متألقُ

رحل العبوس بنظرة، فتبسمت ... لكنّ باب شعورها، لا يطرقُ.

فسألتها: ما بال لونك شاحب ... والعين من طرفٍ غضيض ترمقُ؟

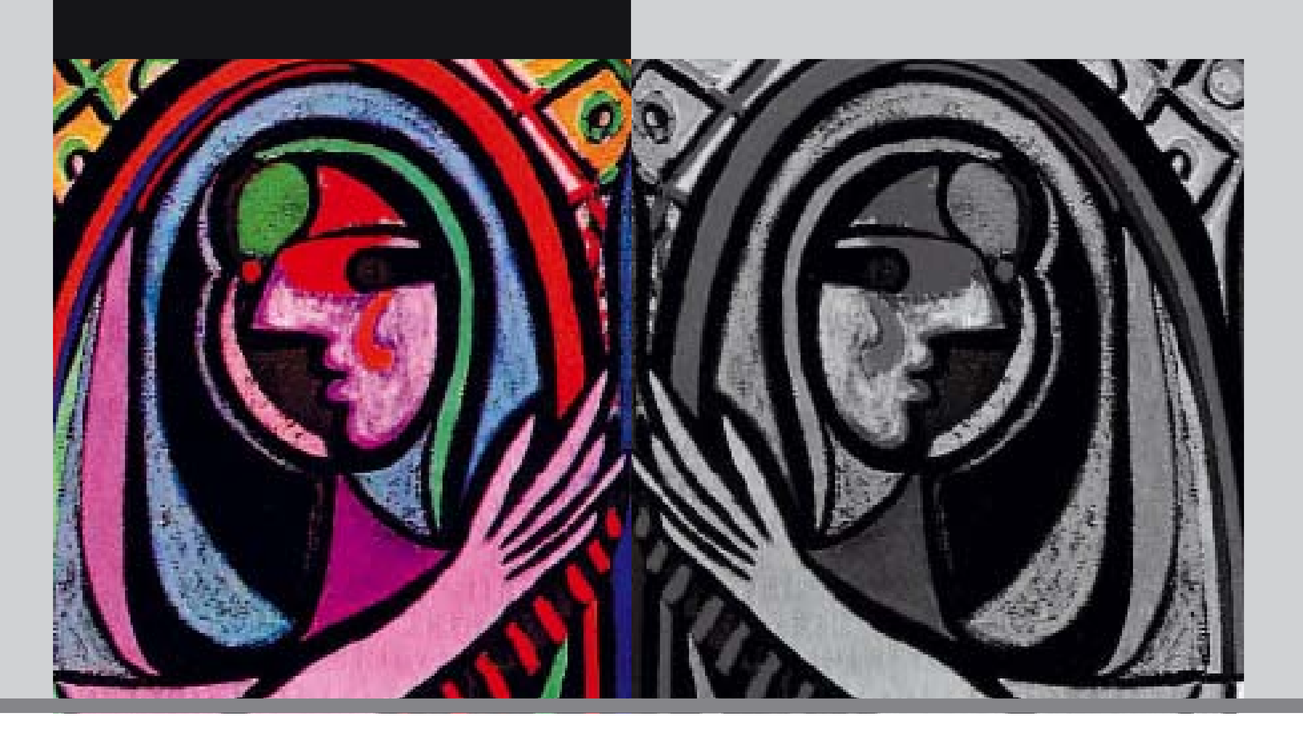
وسألتها عن رعشة في كفها ... وسألتها عن شفة لا تنطقُ.

وظللت أسأل، والردود بعيدةٌ... ... وظللت أنظر، والوجوم محدقُ

وتحدر الدمع الغزير فما لها ... لا تشتكي.. أم أنها لا تنطقُ؟

غصّ الشعور بفكرها فتشتت ... كسرت مجادفها وضاع الزورقُ

[أبحرت في لجّ الحياة، وعشتها ... حيناً أصيب وألف حينٍ أخفقُ



ديوان الأمس ديوان اليوم

أين الطريق إلى موانئ رغبتي ؟   أنا لست أعرفه، ولست أصدّقُ.

أيطير في أفق السعادة مثقل   ويصير في كل الدروب يحلقُ ؟

عذراً، فتلك حقيقةٌ، تئد الهوى   والنفس تأوي للخيال، وتعشقُ.]

مهلاً! فزاوية القنوط وفيؤها   حقًّا إذا قيست، أشدُّ وأضيقُ.

إن غلّقت، فلسوف يفتح بعضها   فتقدمي، وذري البقية تغلقُ

لا تقصدي السور المنيع وتطرقي..   تزهو السفاهة حين يطوى المنطقُ!

لم تستجب، فأشحت وجهي علّها..   تأتي بعهد، في الضمير يوثقُ.

ولعلّها تقضي به لكنها،   كانت إلى الإعراض دوماً تسبقُ.

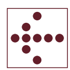
دنياي مسرحها يثير مشاهداً   ولي البطولة، والفصول ستلحقُ



من لوحة «المرأة أمام المرآة» لبيكاسو

الظـــاهـر..
رواية كويلو الجديدة
الطابع السيري في مغامرة بين باريس وكازاخستان

هل من الممكن أن تحتل رواية قائمة الكتب الأكثر مبيعاً قبل شهر من صدورها؟ هذا ما حدث فعلاً في البرازيل عشية الإعلان عن الصدور الوشيك لرواية الكاتب البرازيلي باولو كويلو الجديدة وهي التاسعة في سياق أعماله الروائية. فالرواية التي تحمل عنواناً ملتبساً في ترجمته العربية هو "الظاهر" أو "الزهير" احتلت المرتبة الأولى عبر نظام "الحجز المسبق" الذي بات رائجاً في عالم النشر الغربي وقد بيعت حقوق الترجمة فوراً في نحو ثلاث وأربعين لغة في ثلاثة وثمانين بلداً. واللافت هو صدور بعض الترجمات العالمية متوازية مع الطبعة البرازيلية الأم في دول عدّة مثل: إيران وتشيكيا وكازاخستان وإيطاليا والنمسا وسويسرا وألمانيا والبرتغال والمجر وفرنسا وروسيا والأرجنتين. وصدرت الرواية لاحقاً مترجمة إلى الهندية والتركية والكورية والعربية. الناقد عبده وازن يعرض لهذه الرواية، ويختار بعض المقاطع منها.



خلال ما يقارب السنوات العشر، أي منذ صدور رواية «الخيميائي» عام 1994م استطاع باولو كويلو أن يكون الكاتب الأكثر شعبية في العالم، وبلغت مبيعات رواياته خمساً وستين مليون نسخة في مئة وخمسين بلداً وعبر ستين لغة عالمية.

وبات صدور أية رواية له بمثابة الحدث في حركة النشر العالمي وأضحت الدور الكبيرة في العالم تتسارع إلى توقيع العقود معه وإلى ترجمة أعماله وتسويقها. وفي فرنسا عمدت دار «فلاماريون» الشهيرة إلى الفوز بالرواية الجديدة «سارقة» باولو كويلو من ناشره الفرنسي السابق والوحيد (دار آن كاريير)، وخصصت مبلغ مليون يورو بغية تسويق الرواية. وهذا مبلغ مذهل في عالم النشر نادراً ما يخصص لرواية من نحو ثلاثمئة صفحة.

نجاح يكاد يكون لغزاً

في الثامنة والخمسين من عمره أصبح باولو كويلو من أغنى الكتّاب في العالم، وثروته جمعها من مردود كتبه ومن العقود الهائلة التي يدأب على توقيعها. ولعل شهرته الكبيرة جعلته «نجماً» عالمياً يسافر باستمرار ويوقع كتبه للقراء حيثما حلّ، ومن يحصل على توقيع كويلو هو أشبه بـ «المحظوظ» نظراً إلى تدفق القرّاء بالآلاف على حفلات التوقيع. إلا أن هذه الشهرة الكبيرة صنعت منه «ظاهرة» في عالم النشر فقط ولم تدفع به إلى مرتبة روّاد الرواية الأمريكية اللاتينية الذين أنجزوا أجمل الأعمال الروائية في القرن العشرين من أمثال: غبريال غارثيا ماركيز وخوليو كورثازار وخورخيه بورخيس وماريو فارغاس يوسا.. لكن هؤلاء مجموعين لم يُبع من رواياتهم جزء يسير مما يباع من أعمال طويلة، وقد ظلّت رواياتهم وقفاً على فئة معينة نخبوية وغير نخبوية ربما ولكن غير «شعبية» حتماً.

ما سرّ هذا النجاح الهائل لأعمال باولو كويلو؟ هذا السؤال تصعب الإجابة عنه لأنه مثار سجال بين النقاد الأدبيين والقرّاء. فالفن الروائي لدى هذا الكاتب ينتمي إلى عالم الحكاية المتخيلة، الحكاية شبه الخرافية وشبه الميتافيزيقية وشبه الأسطورية، الحكاية التي تخاطب مخيلة القارئ وتحرك أحاسيسه الدفينة وتجعله أمام أسئلة قدرية، ترتبط بالماوراء والصدفة والأسرار التي تكتنف الحياة، ولكن عبر نسيج سرديّ بسيط (ولكن غير ممتنع) وعقدة روائية سهلة وشخصيات غير معقدة.

ويتقن كويلو حرفة «الحكواتي» أيّما إتقان حتى لتغدو أعماله كأنها تُروى على لسان «راوٍ» يختفي وراء المؤلف نفسه. ويستعين كويلو بسائر الأساطير والميتولوجيات


Corbis

وبعض الحكايات الغرائبية (الفانتاستيك)، وبعض القصص الدينية، ويرتكز في أحيان كثيرة على «ألف ليلة وليلة» في حبك المرويّات واستيحاء أجواء الشرق الباهرة. ولعل هذا ما أشار إليه في روايته الجديدة «الظاهر» أو «الزهير».

لا بدّ، قبل قراءة الرواية، من العودة إلى العنوان الإشكالي الذي لم يختره كويلو صدفة بل اختاره عمداً. وقد عاد في مقدمة روايته إلى قول للكاتب خورخيه لويس بورخيس يوضح فيه التباس العنوان وهو يعني برأي الأخير «الظاهر أو الحاضر، الذي لا يمرّ مرّاً سريعاً». ويضيف بورخيس قائلاً: «إنه شيء أو شخص، ما إن يحدث لقاء بينه وبين الإنسان حتى يستحوذ شيئاً فشيئاً على فكره حتى يتملكه، ويمكن أن يعني القدسية أو الجنون».

«الظاهر» ام «الزهير»؟ الكاتب يعود في المقدمة إلى قول لبورخيس يوضح الالتباس

ويشير بورخيس إلى أن هذه الفكرة ظهرت في العالم العربي في القرن الثامن عشر. لكن «محيط المحيط» يوضح أن كلمة «الظاهر» هي الأنسب لترجمة هذه المفردة Le Zahir بالفرنسية أو The Zahir بالإنجليزية. فكلمة «الزَّهير» (بفتح الزاي) غير موجودة، فيما الزُّهير (بضم الزاي) هي تصغير «الأزهر» وهو «القمر ويوم الجمعة والثور الوحشي والأسد الأبيض اللون والنيّر والمشرق الوجه وزهر السراج والوجه والقمر تلألأ...».

أما مفردة «الظاهر» فهي الأقرب إلى المعنى الذي افترضه بورخيس وهو «اسم فاعل وخلاف الباطن» بحسب «محيط المحيط» و «الظاهر» هو «إشارة إلى معرفتنا البديهية، فإنّ الفطرة تقضي في كل ما نظر إليه الإنسان أنه تعالى موجود». ويضيف «محيط المحيط»: «الظاهر هو اسم لكلام ظهر المراد منه للسامع بالصيغة نفسها ويكون محتملاً للتأويل والتخصيص». إلا أن ترجمة العنوان إلى العربية تظل مشرعة على احتمالات عدة: الزُّهير، الزَّهير، الظاهر، الظهير (كما اقترح بعض المصريين)... وقد تعبر كل مفردة عن أحد المعاني المتعددة للكلمة الفرنسية أو الإنجليزية.

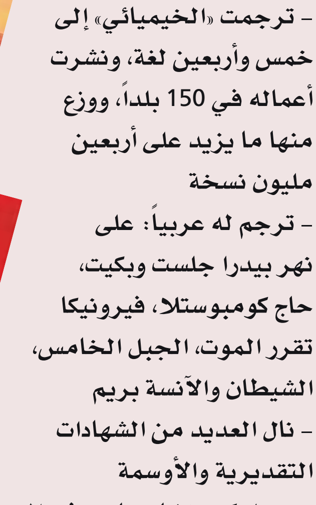
عوليس و «إيثاكا»

يختار باولو كويلو قصيدة «إيثاكا» للشاعر اليوناني قسطنطين كفافيس مدخلاً إلى روايته، والقصيدة هذه تستعيد حكاية عودة عوليس في الميتولوجيا الإغريقية

باولو كويلو



- ولد في ريودي جانيرو سنة 1947م
- قضى سنوات ثلاث في مصح نفسي عندما كان في السابعة عشرة من عمره
- عمل كاتباً دراميا وصحفياً ومديراً مسرحياً، كما ألف بعض الأغاني الشعبية
- يعتبر ظاهرة روائية بالنظر إلى الإقبال على رواياته والتي ترجمت إلى مختلف اللغات
- ترجمت «الخيميائي» إلى خمس وأربعين لغة، ونشرت أعماله في 150 بلداً، ووزع منها ما يزيد على أربعين مليون نسخة
- ترجم له عربياً: على نهر بيدرا جلست وبكيت، حاج كومبوستلا، فيرونيكا تقرر الموت، الجبل الخامس، الشيطان والآنسة بريم
- نال العديد من الشهادات التقديرية والأوسمة
- يعمل كمستشار خاص في اليونسكو ضمن برنامج «تقاربات الفكر وحوار الحضارات»
- يشرف على معهد باولو كويلو، وهو مؤسسة خيرية مصدر تمويلها هو حقوق التأليف العائدة له من أعماله



إلى مدينته «إيثاكا» بعدما طوّف في أنحاء الأرض مواجهاً المشقات والأخطار والمآسي.

فبطل الرواية وهو الراوي الذي يرتدي «وجه» أو ربما «قناع» المؤلف هو أشبه بـ «عوليس»، لكن تطوافه يجري في أفق ماضيه الشخصي وحياته التي أضحت وراءه، علاوة على مضيّه في البحث عن زوجته أستير التي اختفت في ظروف غامضة. أما الزوجة أستير فهي تحمل بدورها بعض الملامح «العويسية» كونها سافرت إلى أقصى آسيا بالغة بلاد كازاخستان بحثاً عن مغامرات تساعدها على تخطي رتابة حياتها الزوجية في باريس.

بداية شبه بوليسية لرواية تجري بين عالمين: أوروبا ممثلة بباريس، وآسيا ممثلة بكازخستان

هكذا تجري أحداث الرواية بين قطبين: أوروبا التي تمثلها باريس وآسيا التي تمثلها كازاخستان. لكن الكاتب – الراوي سيعمد إلى استعادة سيرته بين هذين القطبين، بين إقامته في باريس ورحلته إلى كازاخستان بحثاً عن زوجته. والسيرة هنا ستكون ذاتية وأدبية في الحين نفسه، مما يؤكد أن باولو كويلو يصر على كتابة سيرته في طريقة «مواربة»، جاعلاً من نفسه البطل – الراوي. لكن السيرة الذاتية لن تكون حقيقية تماماً بل سيعتريها الكثير من التخييل والتحريف والحذف والإضافة.

تبدأ الرواية بداية شبه بوليسية: اختفاء أستير الزوجة الشابة (في الثلاثين من عمرها) بعد عودتها من العراق عشية الاجتياح الأمريكي يحمل الشرطة الفرنسية على توقيف زوجها (الراوي – الكاتب) لاستجوابه والتحقيق معه.

أستير صحافية في ميدان «تغطية الحروب» كما سنعلم لاحقاً وقد غطّت حروباً عدة في الشرقين الأوسط والأقصى. إلا أن اختفاءها يثير حفيظة زوجها: هل خطفت من أجل فدية ما؟ هل قتلت لأجل معلومات تملكها؟ أم أنها شاءت أن تهجر زوجها وحياتها الزوجية هرباً مع رجل آخر؟ كان الزوج يعلم أن زوجته ارتبطت ببعض الخلايا الإرهابية، كصحافية طبعاً، كانت اتخذت مرافقاً لها ومترجماً في مقتبل عمره يكنّى بـ «ميخائيل»، شاب داكن البشرة، منغولي الملامح يستتر تحت هذا الاسم غير الحقيقي. وعندما يطلق شرطي السجن الزوج – الراوي من الأسر يقول له: «أنت حر الآن»، لكن الزوج سيقول في نفسه: «في السجن كنت حراً أيضاً، لأن الحرية هي كنزي الأثمن في العالم».

هكذا يعود الراوي إلى عالمه وإلى «ذاته» ولكن من غير أن يهجره لحظة هاجس اختفاء الزوجة. إنه الآن في باريس وحيداً، يستعيد تفاصيل ماضيه القريب مع أستير التي اختارت أصعب المهن وأخطرها، وفي يقينه أن الرجل لا يكتشف حبّه لزوجته إلا عندما يفقدها. هكذا تحضر باريس في الجزء الأول من الرواية، مثلما ستحضر كازاخستان في الجزء الثاني. باريس «قوس النصر» و «الشانزليزيه» و «برج إيفل»، باريس الأحياء والمارة، باريس المترو، باريس المدينة «الكوسموبوليتية»...

وبعدما يقول له محاميه أنه اتصل بدائرة المستشفيات وأمكنة حفظ الجثث ولم يجد اسم أستير يبدأ في وضع خطة للبحث عنها قائلاً لنفسه إن عليه أن يكون عملياً وأن يدرس الخيارات ويدع مشاعره جانباً.

أما الخطة فارتآها في ثلاثة احتمالات: التوقف عند احتمال أن أستير خطفت فعلاً، مما يعني أن حياتها في خطر، وأن عليه بالتالي، بصفته زوجها ورفيقها، أن يجوب الدنيا بحثاً عنها. إلا أن أمراً ساوره هنا: الزوجة تحمل جواز سفرها وقد اختارت حاجات شخصية عدة وسحبت مالاً من حسابها المصرفي. ويستنتج أنها كانت تتهيأ للرحيل.

ويتخوف من الاحتمال الثاني من أن تكون صدّقت وعداً قطعه لها أحد ما وتبين أنه فخ نصب لها. لكن أستير اعتادت مثل هذه الأوضاع الخطرة.

أما الاحتمال الثالث فهو التقاؤها رجلاً آخر، وهذا الاحتمال في نظره منطقي، لكنه يصعب عليه أن يتقبله. ويقول: «لا أقبل أن تكون قد رحلت هكذا، من غير سبب. فكلانا، أنا وأستير، اعتددنا بأنفسنا دائماً في مواجهة مصاعب الحياة معاً، تعذبنا ولكن لم يكذب واحدنا على الآخر يوماً». ويضيف: «كنت مدركاً أنها تغيرت كثيراً منذ أن التقت الشاب الذي يدعى ميخائيل. ولكن هل يبرّر ذلك نهاية زواج دام سنين عشر؟».

وعلى رغم الشك الذي يساوره، لم يستطع أن يتخلص من هاجس أستير. فها هو يحاول تبرير ما حصل. يقضي أياماً وليالي يسترجع كل لحظة عاشها في قربها، ويستنتج أنها كانت امرأة صعبة. ويقول: «من الأفضل أن ألعق جروحي ببساطة كما لعقتها في الماضي. سأذوق المرّ وسيمل مني أصدقائي لأن كل ما أتحدث عنه هو هجر زوجتي لي. وعندما سأمشي في الشارع، سأظل أرى طيفها في نسوة أخريات. سأعاني ليل نهار ونهار ليل. وقد يستغرق هذا أسابيع، أشهراً وربما سنة وأكثر». ويبلغ به هاجس أستير مبلغاً حتى أنه ليتخيلها على وشك الدخول من باب منزله تخطو نحوه وهي تطأ السجاد العجمي وتجلس إلى جانبه من دون أن تنبس بأية كلمة، تدخن سيجارة...

كان لا بد للراوي في هذه الفترة من الحيرة والعزلة والهجس من أن يستعيد سيرته المزدوجة، سيرته كشخص تمرّد باكراً على سلطة العائلة وراح يعيش حياته بحرية، وسيرته ككاتب لن يلبث أن يصبح مشهوراً وثرياً. ومن يدرك بعض النواحي في حياة كويلو يعلم على الفور أن الراوي هو وجهه الآخر أو لنقل «قرينه» الذي يشبهه بمقدار ما يختلف عنه. وقد أجاد كويلو في لعبة «المرآة» هنا جاعلاً من سيرته الذاتية سيرة روائية لبطل هو نفسه وسواه في آنٍ واحد.

واضح أن الأديب اختلق قصة اختفاء أستير ليكتب سيرته الشخصية والأدبية بقلمه

يستعيد كويلو إذاً صورة ذلك الشاب الذي حلم بأن يصبح كاتباً مشهوراً، وأدرك فجأة أن الحقيقة مختلفة تماماً. إنه يكتب بلغة يكاد لا يقرأها أحد في بلد يقال فيه ليس للمطالعة جمهور تقريباً. «شاب تجبره عائلته على ارتياد الجامعة» ويقول له والده: «أية جامعة ستفي بالمطلوب يا بنيّ، ما دمت ستحصل على شهادة وإلا فأنت نكرة...». لكن الشاب يثور، ويجول العالم خلال الحقبة التي صعدت فيها موجة الهبّيين، يلتقي مغنياً ويكتب له أغنيات، وإذا به فجأة يجني مالاً يفوق ما تجنيه أخته التي عملت بنصيحة الوالدين وقرّرت أن تصبح مهندسة كيميائية...

ولا تخلو كتابة السيرة من بعض «الاعتراف» الهادئ الذي يسترجع بعض فصول ماضيه ومراهقته كأن يقول: «منذ صغري كافحت لأجعل الحرية أثمن مقتنياتي. خضت صراعاً مع والديّ، اللذين أرادا أن أكون مهندساً وليس كاتباً». وقد صارع هذا الشاب كي يحصل على وظيفة يدعم بها نفسه. فعمل في مهنٍ صغيرة لم يخجل منها. ويعترف أيضاً بأنه خاض صراعاً مع عالم الصحافة «العدائي». وأنه صارع بشجاعة ليترك الصحافة ويخوض مغامرة تأليف كتاب وهو على يقين بأن لا أحد في بلاده يمكنه كسب عيشه من مهنة الأدب.

أما سيرته الأدبية فتدل عليه «وتفضح» بعض أسراره و «المتاعب» التي واجهها، لا سيّما في بدء مسيرته. فالكتاب الأول الذي أصدره (وهو ليس «الخيميائي») لم تُكتب عنه كلمة في الصحافة ولم يبع إلا القليل في البداية، لكن الذين قرأوه أوصوا آخرين بقراءته وإذا الطبعة الأولى تنفد بعد ستة أشهر.

وبعد سنة صدرت من الكتاب نفسه (لا يبوح بعنوانه) ثلاث طبعات وراح يكسب المال وكأنه لا يصدّق أن الأدب يدر مالاً. ويقول هنا: «لا أدري كم من الوقت سيدوم الحلم، لكنني أقرر أن أعيش كل لحظة كما لو كانت الأخيرة. أرى أن هذا النجاح يفتح الباب الذي لطالما سعيت إلى فتحه، وها هم ناشرون آخرون يبغون نشر كتابي التالي».

ويعترف بالأثر الذي تركه فيه وفي أدبه كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي وقع ذات مساء على إحدى قصصه المشوقة وقد وجد فيها «رمز» سبيله الخاص وشيئاً يساعده على فهم كيانه. وإذا به يستخدم تلك القصة أساساً لقصة أخرى عن راعٍ ينطلق سعياً وراء حلمه وهو عبارة عن كنز مخبأ في أهرامات مصر. وما يعنيه هنا هو رواية «الخيميائي» التي كانت فاتحة نجاحه الكبير وشهرته الواسعة. يقول: «لم أبق شخصاً يحلم في أن يصبح شيئاً، أنا كيان. أنا الراعي الذي يجتاز الصحراء ولكن أين «الخيميائي» الذي يعينه على المضيّ؟». ويعترف: «عندما انتهيت من هذه الرواية، لم أفهم تماماً ما كتبت: إنها بمثابة قصة خيالية للراشدين... ومع ذلك قبلها الناشر. نشر الكتاب وإذا بقرّائي يدرجونه على لوائح الكتب الأكثر مبيعاً».

إلا أنه لا يخفي أنه فيما أحبه القرّاء كثيراً كرهه النقاد، هؤلاء الذين ظلوا يرحبون به إلى أن بلغت مبيعات كتابه المئة ألف الأولى، فإذا به يكف عن «أن يكون عبقرياً يساء فهمه». ومشكلة باولو كويلو مع النقد الأدبي ما زالت قائمة وما برح النقاد يمعنون في نقده على رغم شهرته الكبيرة، آخذين عليه تنازله عن العمق والمضمون الإنساني والبعد الفلسفي الحقيقي، وجعله الأدب مادة للإغراء الشعبي والرواج والكسب المالي. ويرفض معظم النقاد العالميين إدراج اسمه ضمن روائيي أمريكا اللاتينية الذين أحدثوا ثورة في رواية القرن العشرين.

يبدو من الواضح أن باولو كويلو اختلق قصة اختفاء «أستير» ليعيد قراءة نفسه وماضيه ولكتابة سيرته الشخصية والأدبية بقلمه. وقد نجح فعلاً في كتابة هذه السيرة المزدوجة مثلما نجح الراوي في إيجاد الزوجة الشابة أستير في كازاخستان وكانت مستسلمة لنوع من الحياة الطبيعية والعفوية، وقد امتهنت حرفة حياكة السجاد، علاوة على تعليمها اللغة الفرنسية في بعض المدارس الفقيرة. إنها الحياة التي أغرتها فاكتشفت صورة أخرى للعالم لا تشبه أبداً صورته المعممة في العالم الحديث. أخيراً التقى الراوي والزوجة وسرعان ما استعادا حياتهما السابقة.

لعل الجديد الذي حملته رواية «الظاهر» أو «الزهير» هو الطابع السيريّ الذي استطاع باولو كويلو من خلاله أن يماهي بينه وبين الراوي في لعبة «مرآوية» تختلط فيها الملامح الحقيقية للكاتب بالملامح المتخيلة للراوي.

مقتطفات

«الظاهر»

مقطع من الرواية..

إنها أستير، صحافية تغطي الحروب، عادت للتو من العراق لأن اجتياح هذه البلاد سيتم بين حين وآخر، في الثلاثين من عمرها، متزوجة ولم ترزق أولاداً. أما هو، فرجل مجهول الهوية، في الثالثة أو الخامسة والعشرين من عمره، أسمر اللون وذو ملامح مونغولية. شوهد الاثنان للمرة الأخيرة في مقهى، في شارع فوبور – سانت اونوريه.

أُعلِمت الشرطة أنهما التقيا قبلاً ولكن لم يتمكن أحد من أن يحدد كم مرة التقيا: لطالما أكدت أستير أن الرجل – الذي كان يخفي هويته تحت اسم ميخائيل - كان شخصاً مهماً جداً، علماً بأنها لم توضح البتة إن كان مهماً لمهنتها كصحافية، أم لها كامرأة.

باشرت الشرطة في تحقيق رسمي. وطرحت استخلاصات عدة: خطف، ابتزاز، خطف تبعته جريمة قتل – الأمر الذي لا يمكن افتراضه، نظراً إلى أن عمل أستير كان يجعلها على اتصال دائم مع أشخاص مرتبطين بخلايا إرهابية، بحثاً عن المعلومات. واكتشفت الشرطة أن حسابها المصرفي شهد سحباً مالياً منتظماً في الأسابيع التي سبقت اختفاءها: اعتبر المحققون أن هذا الأمر يمكنه أن يرتبط بدفعات مالية في مقابل معلومات. لم تأخذ معها أي ثوب، ولكن، يا للغرابة، لم يُعثر على جواز سفرها. أما هو، فشخص مجهول، شاب فتي، لم يرد اسمه في سجلات الشرطة، وما من أثر يدل على هويته.

على أن أستير، التي فازت بجائزتين دوليتين في الصحافة، في الثلاثين من عمرها ومتزوجة. إنها زوجتي.

أصبحت على الفور شخصاً مشتبهاً به، وتم توقيفي، لأنني رفضت الاعتراف أين كنت يوم اختفائها. لكن شرطي السجن فتح باب زنزانتي قائلاً لي إنني بت رجلاً حراً.

لمَ أكون رجلاً حراً؟ لأن الجميع، في أيامنا هذه، يعلم كل شيء عن الجميع، ويكفي أن يسأل المرء حتى تصله المعلومات للحين: أين استخدمنا بطاقتنا المصرفية، الأماكن التي زرناها، الناس الذين عرفناهم. ولكن في حالتي كان الأمر سهلاً أيضاً: تقدّمت امرأة، هي صحافية أيضاً وصديقة زوجتي لكنها مطلقة، لتشهد لمصلحتي حينما علمت بأنني موقوف. وقدمت أدلة حسية على وجودي معها يوم اختفاء أستير.

تكلمت إلى كبير المفتشين الذي أعاد إليّ أغراضي، واعتذر مني مؤكداً أن توقيفي لفترة قصيرة أمر قانوني وأن ليس في استطاعتي أن أتهم الحكومة أو أقيم دعوى ضدها. وشرحت له أن لا نية لدي البتة بالاتهام والدعوى، وأنني أعلم جيداً أن أي شخص إنما يعتبر مشتبهاً به، ومراقباً على مدار الساعة، حتى وإن لم يرتكب أي جرم.

"أنت حر"، قال، مستعيداً كلمات شرطي السجن.

سألته: أليس من الممكن أن تكون زوجتي قد واجهت مكروهاً ما؟ لقد سبق أن أعلمتني أنها تشعر بأنها ملاحقة، تبعاً لشبكة صلاتها الهائلة في الوسط الإرهابي.

بدا المفتش غير ميّال للكلام. أصررت عليه، لكنه لم يقل لي شيئاً.

سألته إن كان في إمكانها السفر بجواز سفرها، فقال: نعم، لأنها لم ترتكب جرماً. لماذا لا تستطيع أن تغادر البلاد بحرية وأن تعود إليها؟

"إذاً من الممكن أنها ليست في فرنسا؟".

– هل تعتقد أنها هجرتك بسبب المرأة التي تحبها؟

– "هذا ليس من شأنك"، أجبته. توقف المفتش عن الكلام ثانية، وأصبح جدياً، وقال إنني أوقفت وفق الإجراءات الروتينية، وأعرب عن أسفه لاختفاء زوجتي. هو متزوج أيضاً، ومع أنه لا يحب كتبي (إذاً هو يعلم من أكون، وليس جاهلاً بقدر ما يبدو عليه) فهو يستطيع أن يضع نفسه مكاني، مدركاً أن ما أواجهه صعب حقاً.

أسأله ما عليّ أن أقوم به فيما بعد. يقدم لي بطاقته ويعهد إلي أن أطلعه على أي جديد – هذا مشهد أراه في الأفلام، إنني غير مقتنع، فالمفتشون يعلمون دوماً أكثر مما يقرّون به.

يسألني إذا كنت التقيت الشخص الآخر الذي كان مع أستير في المرة الأخيرة التي شوهدت فيها. أجبته انني أعرف اسمه الأول ولكنني لم ألتق به شخصياً.

يسألني إن كنا نواجه مشكلات زوجية. فأقول له إننا متزوجان منذ أكثر من عشر سنوات وإننا كنا نواجه المشكلات التي يواجهها عادة الزوجان، لا أكثر ولا أقل.

وسألني بلطف إن كنا تحدثنا في موضوع الطلاق، أو إن كانت زوجتي تفكر في هجري. أجبته إن هذا الافتراض لم يرد البتة في أي يوم، حتى وإن قام بيننا،
– أكرر، "مثل كل المتزوجين"، بعض النقاشات حيناً تلو حين. دوماً أو حيناً تلو آخر؟

حيناً تلو حين، قلت له (...).

إنني حر. خرجت من المخفر، امرأتي اختفت في ظروف غامضة، لا أعمل في وقت محدد، ولا مشكلة لدي في علاقاتي، إنني رجل ثري ومشهور. إنني رجل حر ومستقل.

ولكن ماذا تعني الحرية؟ 

قول آخر

الملكية الفكرية في الإسلام

صفية الجفري

جوجل أمام القضاء !

هذا الصديق القريب إلى قلوبنا كما عقولنا، قد بات موضع مساءلة، لأجل تودده لنا، وعطاءاته الكثيرة، وموضوع المساءلة يتعلق بحقوق نشر بعض ما ينشر. فهل من زاوية يُلجأ إليها في رحاب الفكر الإسلامي المنبثق من النصوص الدينية؟

في أفق واسع المدى، يسير المتأمل لحقوق الملكية الفكرية في الإسلام، فالنصوص تقدم للعقل مساحات مفتوحة تستوعب اختلاف نمط الحياة، وأحوال الناس. لكن، هناك قدراً مشتركاً يجمع بين مختلف الرؤى في هذه المساحات، وهو حق المؤلف في نسبة مؤلفه إليه، وما عدا ذلك فتتقاطع وجهات النظر وتتباين في صورة متألقة، جمالها في فيض ألوانها!

السؤال البسيط الحتمي في عصرٍ ينادى فيه بمجتمع المعرفة هو: أيحق لأيٍ كان، أن يحرم أخاه الإنسان من شغفٍ لا ترويه إلا المعرفة ؟

في ظلال الإسلام نجد تواصلاً يتجاوب مع هذا الشغف، إذ يذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن المؤلف ليس له أن يأخذ مقابلاً مادياً على تأليفه، فضلاً عن أن يكون له حقاً خاصاً في النشر يمتنع معه حق غيره في الاستفادة من إنتاجه الفكري إلا بإذنه. إذ أن في منع الاستفادة من المصنف إلا بأجر أو إذن، كتمان للعلم، وهو منهي عنه في القرآن والسنة.

أما عامة علماء الشريعة فلا يقرون الرأي السابق. فالسؤال أغفل حتمية نصفه الآخر فإن كنا نتحدث عن حقوقٍ إنسانية فالأمر إذن يحمل زاوية تبادلية. إذ ماذا عن حق المؤلف في أخذ مقابل مادي عن ابتكاره؟

وإذا كان المؤلِّف يعرض تصنيفه مقابل عوض مالي، فإنه لا يكون كاتماً للعلم الذي يتضمنه بل باذلاً له بعوض، هو سبيل ليتفرغ لمزيد من البحث، والتصنيف، ونفع الناس.

حق النشر، بين الاستقلال والتبعية

في المساحة الواسعة التي تثبت الحق المالي للتأليف أو الابتكار نجد نهجين:

النهج الأول: يعتمد كون حق النشر حقاً معنوياً مستقلاً عن حق التأليف، وأنه لا يقابل بمال.

النهج الثاني: حق النشر ثابت للمؤلف، فلا يجوز الاستفادة من المصنَف إلا بإذن مؤلفه.

والنهج الثاني هو الذي استقر عليه قرار مجلس المجمع الفقهي الإسلامي في دورته التاسعة المنعقدة بمبنى رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة في رجب 1406هـ. وتضمن قرار المجلس إثبات الوراثة في هذا الحق، وأنه يتقيد بما تقيده به المعاهدات الدولية والنظم والأعراف التي لا تخالف الشريعة، والتي تنظم هذا الحق وتحدده بعد وفاة صاحبه تنظيماً وجمعاً بين حقه الخاص والحق العام، لأن كل مؤلف أو مخترع يستعين بأفكار ونتاج من سبقوه.

نقطة تقاطع!

نقطة التقاطع بين الإثبات والنفي لحق النشر تتضمن ثلاثة اجتهادات لا يكون حق النشر فيها محفوظا للمؤلف:

أحدها: ما ذهب إليه الدكتور يوسف القرضاوي من أن حق النشر إنما يثبت للمؤلف إذا ما أريد الاستفادة من مصنفه مادياً أما إذا كان هناك جمعية خيرية أو إنسان يريد أن يتبرع بطبع كتاب ونشره، فلا يجوز لإنسان أن يأخذ حقاً عليه في هذه الحالة. وكلام الدكتور القرضاوي جاء في سياق الحديث عن الكتب التي تتضمن العلوم الشرعية.

الثانية: حال انقطاع النسخ المعدة للبيع من الأسواق.

الثالثة: عند مطالبة دور النشر بأثمان باهظة للمصنف، وبغبن كبير إذ يُحرّم على المؤلف استغلال حاجة الناس إلى المصنف بزيادة ثمن الكتاب زيادة كبيرة عوضاً عن التأليف مراعاة لمبدأ مقاربة التساوي بين منفعة التأليف وحق المؤلف المالي في مصنفه.

وهذه الاجتهادات الثلاثة قد تقابل باعتراضات من حيث التأصيل والتكييف، وليست هذه السطور في معرض الانتصار لهذا الرأي أو ذاك، بل هي إطلالة على تنوع الآراء وتشعبها كشاهد على عمق النصوص ودلالاتها.

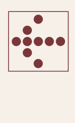


الخبز
رغيف الحياة

إنه مرادف للحياة في كل حضارات العالم. قد يختلف شكله ولونه ومذاقه من مكان إلى آخر، أو حتى في المكان الواحد، إلا أن رمزه يبقى موحداً في التراث والتاريخ والتقاليد الاجتماعية اليوم كما هو عبر آلاف السنين.

جوسلين الدبس وماجد نعمة ونجاح طلعت وأمينة خيري يفتحون هنا ملف الخبز انطلاقاً من تاريخ الرغيف الشرقي والغربي، ويعرضون لعلاقته بتطور المجتمعات والمكانة التي يحتلها في ثقافات الشعوب وأدبها ووجدانها الشعبي.

المحترف السعودي



للخبز قصة تعود إلى عشرة آلاف سنة خلت. فآنذاك أكل الإنسان القديم أول خبز شبيه بالذي نعرفه اليوم، بعدما طحن حبّات القمح ومزج دقيقها بالماء وحمصه على النار.

صحيح أنه يُصنع في كل بقاع الأرض، إلا أن لكل منه شكله الخاص ونوع الحبوب المصنوع منها وطريقة مميزة في تحضيره. وهو مهما اختلف شكلاً ومضموناً يبقى الغذاء الأساس للإنسان وشأناً حياتياً حاضراً أبداً، وقد ينقلب هذا الشأن هماً في ظروف كثيرة، الأمر الذي يرسِّخ مكانته أكثر فأكثر في وجدان الإنسان واهتماماته.

وعلاقة الخبز بالحياة على درجة من المتانة والعمق جعلت الشعوب البدائية تنسج منها أسطورة خرافية تُشبّه العجين برحم المرأة الحامل الذي يكبر شيئاً فشيئاً إلى أن «ينضج» فيقدم الحياة.. تماماً كما العجين الذي يرتفع بالخميرة إلى أن يصبح جاهزاً ليُخبز ويؤكل. وتتجسد هذه الأسطورة في بعض التقاليد القديمة عند النساء الإيطاليات، على سبيل المثال، اللواتي كنّ يقفن أمام المعجن، ويقلدن أوجاع الولادة وانقباضات الرحم المؤلمة أملاً في أن يرتفع العجين ويتخمر.

أما في البلاد العربية فحمل الخبز اسم «عيش» دلالة على أن الحياة تتمحور حوله وتتعلق به. وقد جاء بأصناف عديدة وأسماء مختلفة وفق المناطق التي يصنع فيها مثل: العيش البلدي، والرحالي، والتنور، والصاج، والطباقي، والخبز الحَمَر، وغيرها.. ناهيك عن الأنواع الأجنبية التي راج تصنيفها في كل مكان مثل: التوست، الباغيت، البريوش.. الخ.

السنبلة.. مادة الخبز الأولى ورمز الخير والثروة.

تاريخه..بدءاً من مصر الفرعونية

يعود تاريخ الرغيف الذي نعرفه اليوم وبشكل تؤكده الوثائق إلى مصر الفرعونية. فاعتباراً من عصر ما قبل الأسرات، كان رغيف الخبز المصنوع من حبوب الغلال هو الطعام الأساس للمصريين. فكان الدقيق يُخلط بالخميرة والحليب والتوابل والملح، ثم يعجن المزيج بالأيدي، ويقطَّع ويطهى في مقلاة.

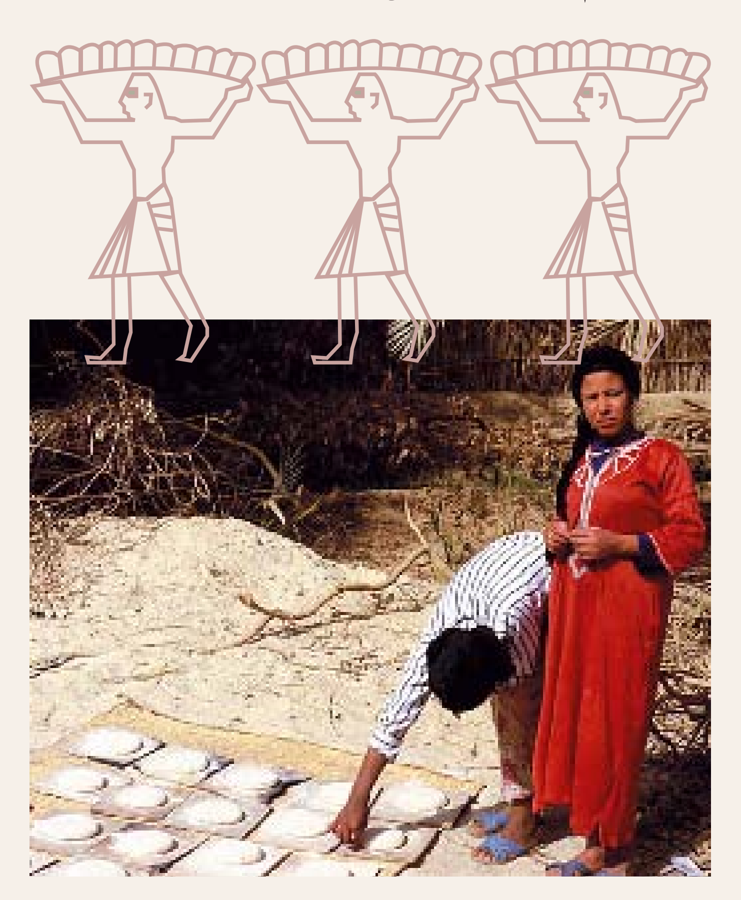
والمؤكد أيضاً أن المصريين كانوا أول من اكتشف خميرة الخبز في العام 4000 ق.م. وأيضاً أول من انتصر لدقيق القمح على غيره من الحبوب في تحضير الخبز بدءاً من الألف الثالث ق.م.

أما الحضارتان اليونانية والرومانية فقد أسهمتا إسهاماً كبيراً في تطور هذه الصناعة. ففي العام 168 ق.م. وضعت روما دليلاً خاصاً للخبَّازين، شكل قاعدة تحويل صناعة الخبز إلى اختصاص مستقل عن باقي الأعمال. وتم افتتاح «معهد للخبَّازين» كان تلامذته يمنعون من الانسحاب منه والتحول إلى مهنة أخرى. فهم الحرفيون الأحرار الوحيدون في روما، فيما كان عمال الحرف الأخرى كلهم عبيداً.

إلى ذلك، كان أعضاء المعهد وتلامذته يمنعون من الاختلاط مع الممثلين ومؤدي الألعاب البهلوانية تفادياً لالتقاط أية عدوى من عامة الشعب.

أما الفيلسوف اليوناني أفلاطون فقد أشار منذ العام 400 ق.م. إلى أن الدولة النموذجية هي تلك التي تجعل الإنسان يعيش حياة صحية ضمن بيئة نظيفة، فيأكل خبزه المصنوع من القمح الكامل والمزروع محلياً.

ولكن دولاً عديدة لم تأخذ قديماً بهذه الحكمة، وأدى العمل بعكسها إلى أحداث جسام غيّرت مجرى التاريخ.



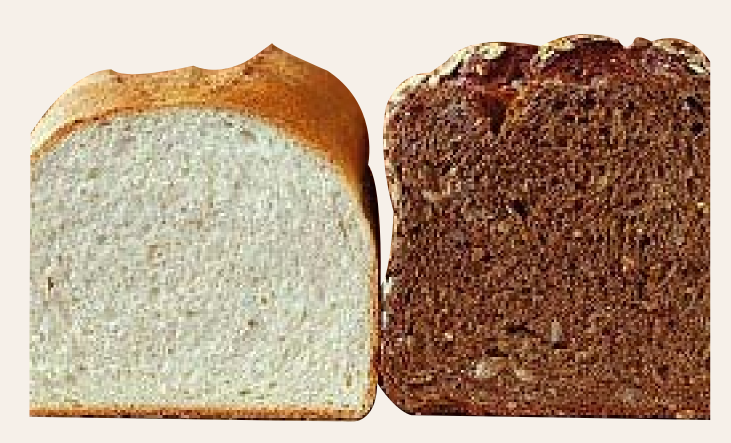








صناعة الخبز من مصر الفرعونية إلى اليوم تكاد تكون نفسها



الخبز الأبيض والخبز الأسمر

منذ عصر الفراعنة دخل الخبز في صميم التمييز الطبقي والاجتماعي. إذ كان الخبز في مصر الفرعونية ثلاثة أصناف: من دقيق القمح للأغنياء، ومن دقيق الشعير للطبقة المتوسطة، أما الفقراء فكان لهم خبز أسمر من دقيق نوع من الحبوب البرية. واستمر الخبز معلماً من معالم الانقسامات الطبقية في معظم المجتمعات حتى القرن التاسع عشر الميلادي تقريباً.

وفي الحضارتين اليونانية والرومانية كان الخبز الأبيض خاصاً بالطبقات الأرستقراطية والنبيلة. وقد أصدر أحد قياصرة روما قراراً يقضي بسجن كل من يقدم خبزاً أسمر اللون إلى نبيل روماني. أما امتلاك الفقراء للخبز الأبيض فكان جريمة قد تؤدي إلى الإعدام. وخلال القرون الوسطى ظل الخبز موضع انقسام وتقسيم في أوروبا. والطريف أن الاعتقاد ساد آنذاك بأن أمعاء الفلاحين كانت وحدها قادرة على تحمل الخبز الأسمر القاسي، أما أمعاء النبلاء فمرهفة ولا تهضم سوى الخبز الأبيض الخفيف والطري. وعليه، لم يسمح باستهلاك الخبز الأبيض إلا للنبلاء.

وطوال القرنين السابع عشر والثامن عشر، عاشت فرنسا سلسلة من الاضطرابات العنيفة محورها الخبز. فالخميرة التي كان يصنع منها خبز النبلاء كانت تُستورد من بلجيكا، بخلاف خميرة خبز الشعب التي كانت عبارة عن قطعة من عجين سابق. من هنا نشأت بذور صراع أهلي حول «الخميرة الغريبة» التي تحوّل النبلاء إلى كسولين، قد يكون ولاؤهم السياسي لبلجيكا وليس لوطنهم كما اتهمهم البعض. واحتدم الخلاف في العام 1660م، إلى أن منع معهد باريس للطب إنتاج خبز الخميرة المستوردة، ثم عاد عن قراره بعد سنة مانعاً فقط استعمال الخميرة الأجنبية.

وبقيت الاضطرابات حول الخبز مستمرة لأكثر من 150 سنة بعدها. ففي العام 1775م، أثار خبّاز باع الخبز الأسمر بسعر الخبز الأبيض غضب ربّات المنازل اللواتي هجمن عليه ورمينه في النهر. وانتقلت النسوة في فورة غضبهن إلى قرية مجاورة وهاجمن أحد أفران الخبز، وانفجر الوضع في كل الاتجاهات، وخلال أقل من عشرة أيام تم نهب وتدمير نحو ثلاثمئة فرن في البلاد. وتأزم حال الرغيف في السنوات اللاحقة حتى شكل الشرارة التي أشعلت الثورة الفرنسية الكبرى.

ومن أشهر الحكايات التي تروى في هذا المجال هو أن الملكة ماري أنطوانيت سألت عن سبب تظاهر الشعب غضباً فقيل لها إن الشعب يريد أن يأكل ولا يوجد خبز. فقالت: «إذا لم يكن هناك خبز فليأكلوا البسكويت». وعلى الرغم من أن المؤرخين يشككون في صحة هذه الرواية، ويعتبرونها مجرد «شائعة شعبية»، إذ لا يعقل أن تكون زوجة لويس السادس عشر على هذا القدر من السذاجة.. فإن هذه الحكاية تلخص تاريخ طبقية الخبز المغمس دائماً بالسياسة.

وإذا كان الخبز الأسمرقد بقي تاريخياً دون الخبز الأبيض من حيث القيمة، فإن الدراسات الحديثة والتحاليل المخبرية ردت إليه اعتباره في العصر الحديث وكشفت عن مزايا فيه تجعله أفضل من الخبز الأبيض فبات يحتل في بعض الموائد اليوم المكانة نفسها، لا بل بات الكثيرون يفضلونه على الأبيض.

رسم يبين هجوماً شعبياً على أحد الأفران



نوعية الخبز قضية وطنية بامتياز



معاقبة الفران الغشّاش


«الخبز أو الموت» شعار انتفاضة فرنسية



الرغيف والقانون والسياسة

وليس انقسام الخبز إلى أبيض وأسمر وحده كان محور اضطرابات. فحال الرغيف أياً كان لونه كان ولا يزال شأناً سياسياً بالغ الحساسية وسريع الاشتعال.

فالتاريخ الإسلامي يؤكد أن السلاطين كانوا يحرصون دائماً على تحديد سعر الخبز، خصوصاً في فترات الحروب والجفاف والكوارث الطبيعية. وبلغ هذا الحرص شأناً عظيماً في دولة المماليك، وخاصة في عصر السلطان بيبرس البندقواري الذي وضع قوانين تحدد نوعية الخبز وأوزانه وأسعاره.. وكانت عقوبة الخباز الذي يتلاعب بالأوزان أو بنوعية الخبز صلبه بالمسامير على باب دكانه.

وفي بريطانيا حرص الملك جون في عام 1202م على تحديد أسعار المواد الأولية للخبز، ومقدار أرباح الخبَّاز. وأجبر قانون في العام 1266م الخبَّاز على وضع توقيعه الخاص على كل قطعة خبز يبيعها كي يمكن التعرف فوراً إلى من تعود إذا لم تكن مطابقة للقانون.

ومن الحوادث التي تروى في هذا المجال أنه في العام 1327م في بريطانيا اكتشف أن أصحاب فرن عمومي استحدثوا فتحة صغيرة في أسفل المعجن لسرقة كمية من عجين النساء اللواتي يقصدنه لطهو خبزهن فيه. فهاجمت النسوة الفرن. وانتهى الشغب بتوقيف أصحابه في الساحة العامة ليُرجموا، فيما أُرسلت النسوة إلى السجن المركزي.

ولم تتغير الأمور كثيراً في عصرنا عمّا كانت عليه في العصور الغابرة. وفي البلاد العربية هناك أكثر من اضطراب وقع في القرن العشرين بسبب الرغيف.

ففي الأربعينيات من القرن الماضي، أدى وزن الرغيف إلى إسقاط حكومة الشيخ تاج في سورية. فيومها كان الرغيف يباع بالوزن ومحدد المواصفات والمعايير. واكتشف أحد المواطنين في حلب أن أصحاب الأفران يزيدون من كمية الماء في العجين ويحرصون على وزن الخبز قبل أن يجف ماؤه تماماً. فانتشر الخبر وعم الغضب واعتبرت الحكومة مسؤولة عن ذلك وسقطت. وفي مصر، لم ينس الكثيرون «انتفاضة الخبز» التي حصلت عام 1977م حين حاولت الحكومة تقليص دعم الخبز وسلع أخرى. فهاج المواطنون وخرجوا إلى الشوارع في غضبة حقيقية.



اللقمة العربية للمشاركة

أخذ الرغيف العربي حقه من الاهتمام الرسمي في أول مؤتمر عربي للرغيف والحبوب، الذي عقد في عمان عام 1984م، ودرس حماية تصنيع الخبز العربي، وتأمين نوعية مواده الأولية وحمايته من المنافسة.

فاللقمة العربية في الرغيف العربي ليست مجرد تسمية فقط، إنما ترمز إلى مجموعة من التقاليد الاجتماعية تبدأ بمفهوم المشاركة في مأدبة الطعام، إذ أن التقاليد كانت تقضي بأن يجلس أفراد العائلة والمدعوون حول طبق طعام رئيس يتوسطهم ويأكل كل منهم من جهته حاجته منه، على أن يتم الأكل بواسطة قطعة الخبز العربي أو «اللقمة» التي تغَمس في الطبق وتنوب بالتالي عن السكين والشوكة.


يستحق الابتسامة على وجه صاحبه

مكوّنات الخبز وصناعته

مهما تبدل اسم الخبز من بلد إلى آخر، فإن مكوناته الأربعة تبقى هي نفسها: دقيق القمح (وفي أحيان قليلة الذرة، أو الشعير)، الماء، الخميرة، والملح.

القمح

ولو بدأنا بمادته الأساس أي دقيق القمح لأشرنا إلى أنه يتكون من حبات القمح المطحونة من دون قشرها، ومن دون رشيم بحيث أن حبة واحدة من القمح تعطي عشري ألف جزء من الدقيق. ويتم التخلص من القشرة والرشيم بواسطة المناخل المصنوعة إما من القماش أو المعدن دقيق الثقوب.

يزرع القمح في كل مناطق العالم. وتتفاوت أصنافه وفق مناخ مناطق زراعته. ففي كندا، مثلاً، يفرض الشتاء القاسي زراعة أصناف قمح تنمو بسرعة، وتصبح ناضجة في تسعين يوماً فقط. أما في بلاد الشام فيزرع القمح في سبتمبر ويحصد في يونيو أو يوليو. ولكي يصبح القمح دقيقاً، فلا بد من مطحنة. وإضافة إلى دقيق القمح متنوع المواصفات، هناك أنواع أخرى من الدقيق المستخرج من أنواع مختلفة من الحبوب مثل الذرة، الأرز الأسمر، الفاصولياء، الفول، الشعير، الصويا، الحبوب التسعة، البطاطس... الخ.



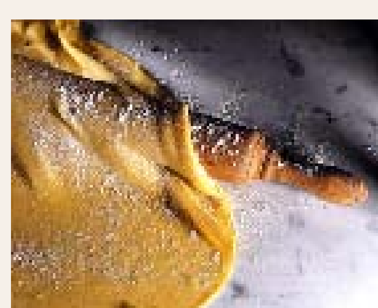
مطاحن الحبوب

يعود أقدم حجر لطحن الحبوب إلى 7500 عام ق.م. ومنذ تلك الفترة وحتى اليوم بقي المبدأ هو نفسه: وضع حبات القمح بين حجرين مستديرين، الأول سفلي وثابت، والثاني متحرك ويتولى سحق القمح بدورانه فوقه. ويتم الحصول على دقيق أبيض بفضل نخل الحبوب المطحونة مرات عديدة للتخلص من الشوائب الموجودة فيها، وفي المرحلة الأخيرة من الطحن تستعمل المناخل المصنوعة من قماش الحرير القوي.

وفي مرحلة لاحقة من تاريخ الخبز، تم ابتكار طواحين الماء، ومن ثم طواحين الهواء في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي غير أن هذه الأخيرة كانت أقل فاعلية من طواحين الماء، ولكنها تمتاز عنها بإمكانية إنشائها أينما كان بعيداً عن الأنهر.

بقيت طواحين الهواء طوال 700 سنة شبه مخصصة لطحن الذرة والحبوب للحيوانات إلى أن تم ابتكار أول آلة بخارية لطحن الحبوب على يد مهندس سويسري في منتصف القرن التاسع عشر، وراج استعمالها في أوروبا بدءاً من العام 1880م.





لكل خبز خلطته الخاصة من الدقيق





مطاحن الحبوب: من طواحين الهواء إلى حجر الرحى

وتزامن تطوير المطاحن مع انتشار زراعة حقول القمح الشاسعة في سهول أمريكا الشمالية خلال القرن التاسع عشر، فكثر إنتاجه، وبدأت أسعاره بالانخفاض عالمياً، فانخفض بالتالي سعر الدقيق، ومن ثم الخبز الذي بات في متناول كل الطبقات الاجتماعية لأول مرة في التاريخ.

الخميرة

الخميرة التي عرفها الفراعنة طبيعية وبرية لم تعلن عنصراً مستقلاً في تحضير الخبز إلا عام 1800م.

يقول العلماء إن الخميرة نبتة حية مكونة من خلايا صغيرة جداً جدرانها من السيلولوز وفي داخلها عنصر حي هو «البروتوبلازم». وهي تتغذى من سائل سكري يجعلها تنمو وتتكاثر، أو تُقتل بدرجة حرارة قوية. لذا يجب إضافة الماء الفاتر إلى الخميرة كي تنشط. ولكن الماء الساخن جداً يقتلها ويفقدها دورها.

قديماً، وحيثما كان تحضير الخبز عملية روتينية تتكرر أسبوعياً في المنازل، كانت الخميرة هي قطعة من العجين السابق المحفوظ ضمن وعاء من الدقيق، تذوَّب في الماء عند تحضير العجين وتستعمل. أما اليوم، فتباع الخميرة المصنعة في المتاجر في شكل حبيبات صفراء.

العجين

لا تمزج مكونات الخبز الأربعة كيفما كان مع بعضها، بل تتبع مراحل محددة ودقيقة تختلف من مكان إلى آخر. وتقضي إحدى الطرق بتحضير «اسفنجة» عبر مزج نصف كمية الدقيق مع 4/7 من الماء وكل كمية الخميرة. وتمزج مع بعضها وتترك جانباً في مكان دافئ لتنتفخ. وعندما

يتضاعف حجمها، تظهر فقاقيع على سطحها. تضاف حينها كمية الماء المتبقية بعد تذويب الملح فيها. وتمزج المقادير جيداً قبل إضافة الدقيق المتبقي والعجن جيداً للحصول على عجين مطاطي.

وفوق مساحة نظيفة مدهونة بالزيت. تقطع أقسام من العجين وتمدد عليها وتترك لتنتفخ مجدداً مرتين، بحرارة 80 درجة فهرنهايت، على أن «يسقط» العجين مرتين ويعجن بينهما. حينها، يكون العجين حاضراً، فتستحدث منه الأشكال المطلوبة التي تترك أيضاً ما بين 15 و20 دقيقة ليرتاح العجين قبل أن يدخل أخيراً إلى الفرن.

وهناك طريقة أخرى تقضي بمزج المقادير الأربعة معاً مرة واحدة حتى يصبح المزيج عجيناً مطاطاً. يترك ليرتاح 5 ساعات قبل أن يعجن مرة ثانية. يوضع جانباً 40 دقيقة لينتفخ مرة أخرى قبل أن يعجن ويترك جانباً 20 دقيقة، يصبح بعدها حاضراً ليأخذ الشكل المطلوب قبل أن يترك مرة أخيرة ليتضاعف حجمه، ويدخل الفرن. ويجب بعدها ترك الخبز ليبرد تدريجياً، وإلا يفسد كلياً، قبل أن يعلب ويباع.

حيثما تفوح رائحته الزكية

بقيت أفران الخبز طويلاً مصنوعة من أحجار القرميد التي تحفظ الحرارة جيداً. ولم تتحول هذه الأفران إلى آلية إلا في منتصف القرن الماضي بعدما دخلت الآلة على مختلف الصناعات. ومن القرميد، تحول الفرن إلى العمل على البخار بفضل قساطل من الفولاذ تحتوي على الماء وتسخن بواسطة الفحم أو الغاز أو النفط، إلى أن يتصاعد البخار فيها ويصل إلى درجة 500 درجة فهرنهايت، مما يسمح بخبز العجين بالشكل المناسب.

وقد كان بنجامين فرانكلين أول من ابتكر الفرن الحديدي الذي عرف باسم فرن فرانكلين نحو العام 1728م. وتبعه السويدي فرانز ويلهيم ليندكفيست الذي ابتكر أول فرن يعمل على الكيروزين ولا ينتج دخاناً أسود. أما أول فرن على الفحم الحجري فرأى النور العام 1833م مع جوردان موت الذي اخترع فرناً يتضمن نظام تهوئة ليحترق الفحم بشكل مناسب.



رسم من داخل أحد الأفران التقليدية في أوروبا

وشهد العام 1826م ولادة أول فرن غاز بفضل البريطاني جيمس شارب، فالعام 1891م الذي شهد أول فرن كهربائي بفضل شركة «كاربنتر إلكتريك هيتينغ» إلا أن مبتكره ويليام هاداوي لم يحز براءة اختراع عليه إلا في العام 1896م. كما أن المبتكر نفسه اخترع عام 1910م أول «توستر» صنعته شركة «وستنغهاوس» لتحميص قطع الخبز الصغيرة. ولم ير المايكروويف النور إلا العام 1946م بعدما اكتشف المهندس الدكتور بيرسي سبنسر بالصدفة تقنية الموجات القصيرة. وبشكل عام، بقيت الأفران الآلية والحديثة شبه منحصرة في المدن والتجمعات السكانية الكبيرة، حيث يوجد عدد كافٍ من الزبائن لاستهلاك كل إنتاجها. أما في المناطق الريفية فلا تزال وسائل صناعة الخبز كما كانت منذ مئات، وربما آلاف السنين. ولعل أشهر وسائلها في بلادنا التنور والصاج.

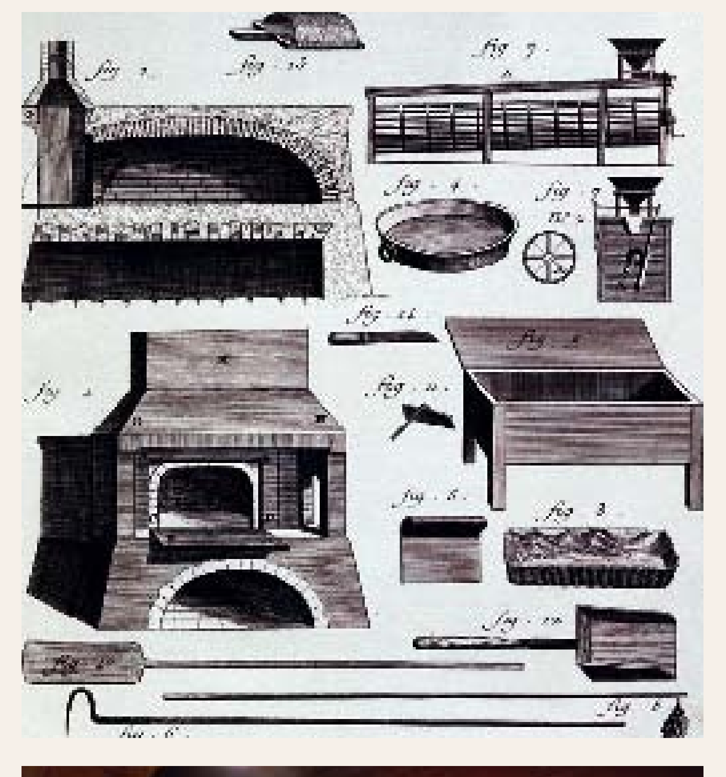
والتنور كما يعرفه الجميع هو عبارة عن حفرة مستديرة بعمق يبلغ نحو المتر، وجدارها من الطين الصلب. ويحرق الحطب في قاع هذه الحفرة، وفي وقت محدد بعد تحول الحطب إلى جمر مغطى بالرماد، وقبل أن ينطفئ، تلصق أرغفة الخبز على الجدار الداخلي الذي يكون قد أصبح ساخناً حتى الدرجة اللازمة. وينضج الخبز في التنور خلال دقيقة أو دقيقة ونصف، أي نحو نصف الوقت الذي يتطلبه في الميكروويف. أما الصاج، فهو قبة معدنية يبلغ قطرها نحو 70 سم، وتوضع فوق النار مباشرة، ويوضع الرغيف العجين فوق الصاج بعد أن يمسح هذا الأخير لمرة واحدة بقليل جداً من الزيت. وفي حين أن التنور يمكنه أن يستقبل أربعة أرغفة دفعة واحدة قطر الواحد منها نحو نصف متر، فإن الصاج لا يستقبل إلا رغيفاً واحداً تلو الآخر.

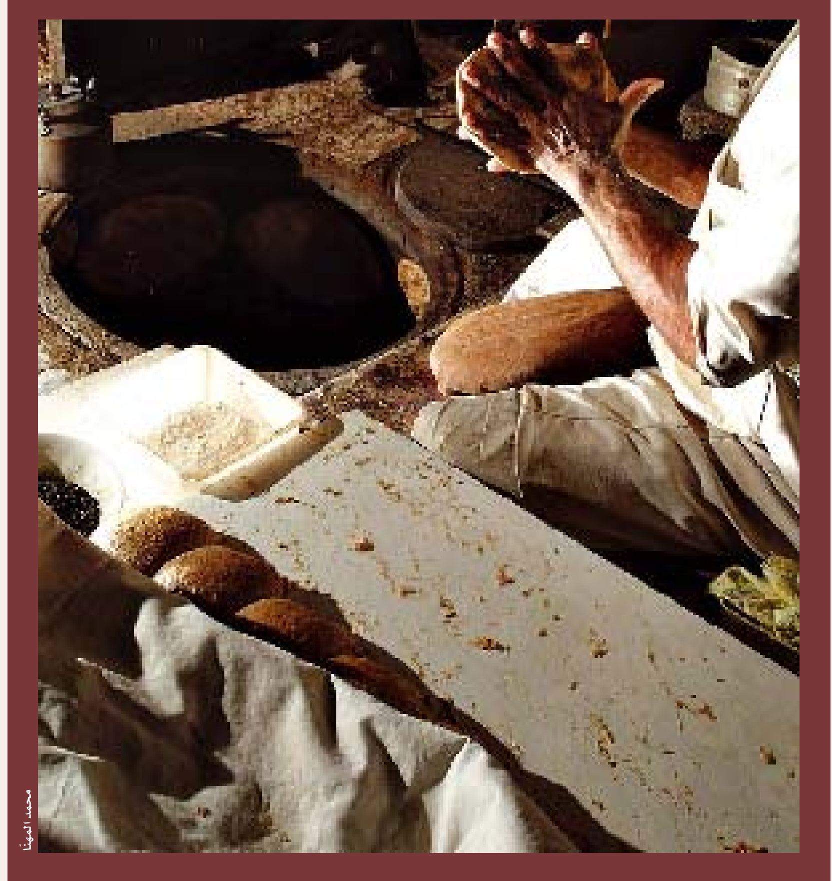
المحسنات المسيئة

إضافة إلى المكونات الأربعة الأساسية تستعمل بعض الأفران الحديثة «محسنات» للخبز لإضفاء المزيد من الجاذبية على شكله أو طعمه. بعض هذه المحسنات غير مضر للصحة مثل القليل من الحليب أو السكر، أو حتى البطاطس المسلوقة التي تطيل الوقت الذي يبقى فيه الرغيف طرياً.. ولكن هناك بعض المحسنات المثيرة للشكوك والجدل. فمادة برومات البوتاسيوم التي شاع استعمالها كمحسن للعجين تشكل خطراً على الصحة. فهي تجعل حجم العجين يتضاعف أربع مرات تقريباً، وتُحسِّن شكل الخبز الذي يصبح منتفخاً جداً عند طهوه. لكن استعمال هذه المادة يجب أن يخضع لمعايير دقيقة في استعمالها، لأن تخطي النسبة المطلوبة يعرض الصحة مباشرة لمخاطر كبيرة، إذ تتحول مادة برومات البوتاسيوم إلى مادة البروميد التي قد يتراكم الفائض منها في الكليتين مسبباً على المدى الطويل السرطان.

وعلى الرغم من أن عدداً من الدول سمح باستخدام هذه المادة وفق شروط صارمة ومحددة، إلا أن وزارة التجارة في المملكة العربية السعودية منعت استعمالها قطعاً.

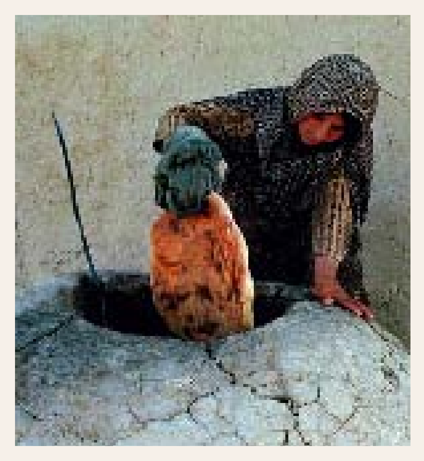


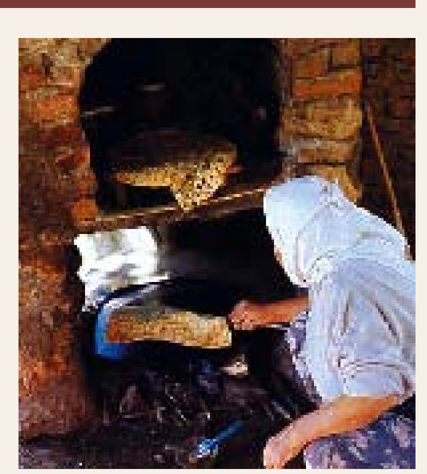




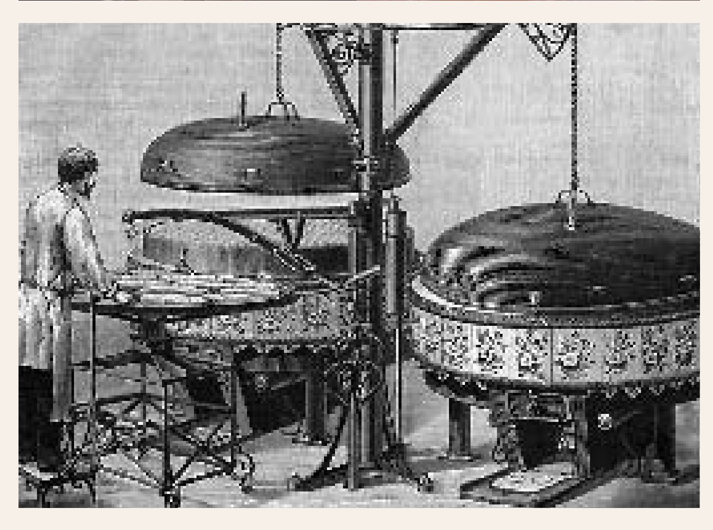
محمد المهنا















تطورت الأدوات والخبز واحد.. من التنور والصاج إلى الأفران الكهربائية



فوائد الخبز

يتهافت الناس دوماً على شراء الخبز الأبيض الذي يبدو شكله أشهى على الرغم من أن بياضه الناصع ناجم عن إضافة مواد كيميائية إليه. أما الخبز الأسمر فيحتوي على كميات كبيرة من الألياف نظراً إلى أن حبات القمح المستعملة في دقيقه تطحن مع قشرتها الخارجية. وقد أثبتت الدراسات العلمية أن استهلاك نسبة كبيرة من الألياف يسهم في الحماية من سرطان القولون كما يخفض نسبة الكولسترول والسكر في الدم.

كما يحتوي نوعا الخبز على كمية كبيرة من النشويات ونسبة ضئيلة من الدهون وقليل من البروتين. ويفتقد الخبز إلى الفيتامينات (أ) و(ج) و(ب 12). وينصح الأطباء المرضى الذين يعانون من اضطراب في عملية الأيض والذين مُنع عنهم استهلاك الغلوتين بتجنب استهلاك الخبز بصنفيه. أما من يعاني قصوراً كلوياً، فيفضل أن يستهلك الخبز الأبيض بدلاً من الأسمر الذي يحتوي على كمية كبيرة من الفوسفور.

أما توزيع الفيتامينات في أصناف الخبز المختلفة فهي على الشكل الآتي:

- **الخبز الأبيض:**
يحتوي على 75 في المئة من حبة القمح. كل أربع قطع منه تقدم سدس كمية الكالسيوم التي يحتاج إليها الجسم يومياً إضافة إلى الفيتامين بي 1 الضروري للعضلات والجهاز العصبي.

- **الخبز الأسمر:**
يتشابه مع الخبز الأبيض في توزيع الفيتامينات ويحتوي على 85 في المئة من أصل حبة القمح، إلا أنه يتضمن سدس كمية الألياف التي يحتوي عليها الخبز المصنوع من القمح الكامل.

- **الخبز الكامل:**
أي من القمح الكامل بحيث لم يضف إليه ولم يسحب منه أي عنصر. يحتوي على ثلث ما يحتاج إليه الجسم من الألياف اليومية كما على الفيتامين E والحديد والزنك.

- **الخبز المتعدد الحبوب** (Multigrain):
يحتوي على كمية عالية من الألياف وهو خال من الدهون والسكر ويحتوي على كمية عالية من حامض الفوليك.

- **كما أن هناك أصنافاً أخرى من الخبز العصري دخلت عليها مكونات مالحة وحلوة وفق الغرض من استهلاكها:**
فهناك تارة خبز بالزيتون وتارةً بالجبن والأعشاب وما شابه.. إضافة إلى الخبز بالزبيب والشوكولاته والمربيات على أنواعها.

رغيف وفرن عملاقان

الرغيف العملاق أتى من بولندا حيث تولت مجموعة من الخبازين البولنديين العام 2002م صناعة رغيف عملاق دخل كتاب غينيس للأرقام القياسية. وشهدت مدينة بلسفيو البولندية ولادة الرغيف الساخن الذي يبلغ طوله 14 متراً ووزنه 1168 كيلوغراماً.

أما أعرض فرن في العالم فرأى النور في مدينة شيكاغو الأمريكية العام 1893م بفضل شركة ميشيغان للأفران وارتفاعه 25 قدماً وطوله 30 قدماً وعمقه 20 قدماً.

وفي الصين، بنى سكان شينجيانغ في أحد المتنزهات المشهورة في مدينة توروفان في مقاطعة شينجيانغ العام 2004م، أكبر فرن لإعداد الخبز في العالم، إذ بلغ قطره عشرة أمتار وعلوه ثمانية أمتار بحيث لا يقتصر استعماله على صناعة الخبز الخاص بالمقاطعة، بل يتسع لشيّ جمل واحد وبقرتين وعشرة خراف في آن.



رغيف عملاق في حملة ترويجية لاستهلاك المزيد من الخبز

الخبز في المتاحف

تملك ألمانيا أقدم متحف في العالم للخبز، نظراً لأن افتقاد الخبز كان يرادف دوماً المجاعة. أسسه الدكتور دابليو إيسلين العام 1955م ولا تزال إلى اليوم تشرف عليه مؤسسة إيسلين الألمانية. يتضمن أكثر من 14 ألف قطعة تاريخية تعود إلى الخبز وتقنية صناعته في العالم، ناهيك عن تاريخه الثقافي والاجتماعي.

وفي مصر أيضاً وجد الخبز طريقه إلى المتحف الزراعي الذي افتتح العام 1938م في القاهرة، مع العلم أن متحف الخبز ما زال قيد الإنشاء، وفق ما ذكرت مصادر مصرية عدة. فمتحف الزراعة المصرية القديمة يضم ثلاثة آلاف قطعة أثرية نادرة، منها صومعة صغيرة لتخزين الحبوب تعود إلى 8 آلاف سنة، وقمح في سنبله يرجع تاريخه إلى أكثر من ألف سنة قبل الميلاد، إضافة إلى خبز وفطائر، ومنها كعكة محشوة بالتين من دقيق القمح يعود تاريخها إلى 1500 عام قبل الميلاد.

أما متحف المملكة النباتية في المتحف الزراعي نفسه، فيضم بهواً للرغيف وحجرة الذرة والأرز.



الخبز لقمة عيش البائع مثل المشتري

الخبز في الأمثال الشعبية

ودخل الخبز أيضاً الأمثال الشعبية العربية. إذ كان يعتقد أنه يشكل الرابط القوي الذي لا يمحى بين اثنين: فيقال مثلاً: «بيننا خبز وملح» في إشارة إلى أن الوفاء والثقة واجبان بين الاثنين. والبحث عن «لقمة العيش» أي عن عمل. كما أن بعض التقاليد تفترض لمّ قطعة الخبز عن أرض الطريق، وتقبيلها ووضعها جانباً خوفاً من أن يدوسها أحد.

وكانت الأم المصرية تقول لابنها لدى اختياره عروساً له: «ما تخدش أم كحلة ولبانة، وقت العجن تعمل عيانة. ما يعجبكش قصتها ولا كحلتها وقت الخبيز يا لخمتها».

كما أن هناك أمثلة كثيرة تتعلق بالخبز: «كل لقمة حبيبك تسره، كل لقمة عدوك تضره». و «يا واكل قوتي يا ناوي على موتي»، إضافة إلى ارتباط مفهوم الخبز بالولاء لمن يقدمه. وخير دليل المثل الذي يقول «مين ياكل خبز السلطان يضرب بسيفه»، و «اللي ياكل لقمتي يسمع كلمتي».

وتبرز أهمية مكانة الخبز شعبياً ووجوب عدم إهداره في المثل: «لمّ النعمة تلمك»، و «البطران زولان نعمة» في إشارة إلى احترام نعمة وجود الخبز إلى المائدة وعدم التعالي على أكله، إضافة إلى: «الجوعان يحلم بسوق العيش»، «اللي يستكتر غموسه ياكل عيش حاف»، «شحات وعايز عيش قمح»، «فلان لا يضحك للرغيف السخن»، «الخميرة أميرة»، وجه فلان «يقطع الخميرة من البيت» في إشارة إلى التشاؤم منه.. «اللقم تحوش النقم»، في إشارة إلى أن الإنسان يتحاشى النقمة من الحاسدين بإطعامهم البعض من خبزه.



وتردد نساء الريف المصري عبارات يتوارثها عن أمهاتهن مثل: «حلاوتك تجيلك...وتطرح البركة فيك... من أكل منك شبع ومن شافك... قنع» ، و «يا عجين اشرب شرابك، ما عذاب إلا عذابك».

الرغيف في الرواية العربية

رواية «الرغيف»

كيف لنا أن ننسى موضوع الرغيف في الأدب العربي، ولدينا رواية مِنْ شوامخ الروايات العربية عنوانها هو موضوعنا ذاته. إنها رواية «الرغيف» للقاصّ اللبناني توفيق يوسف عوّاد.

أمّا إذا علمنا أنّ أحداث الرواية تدور خلال الحرب العالمية الأولى حين أطبقتِ المجاعة على سكان لبنان ندرك سبب اختيار عوّاد «الرغيف» عنواناً لروايته، ونجزم، حتى قبل قراءة الرواية، بوجود حديثٍ مطوَّل عن السعي وراء الرغيف، والكدِّ للحصول عليه خبزاً أو طحيناً ...

ونلتفت إلى الإهداء فنقرأ الكلمات المعبّرة التالية:

« إليك، يا أبي أقدّم هذا «الرغيف».

... فقد قدّمْت أنت إليّ في أيام الحرب الكبرى، وإلى إخوتي وأخواتي، أرغفةً سكبْتَ لها عَرَق جبينك ودمَ قلبك، ...».

ولا عَجب، والعنوان هو «الرغيف»، أن تكون الرواية مقسّمة إلى أقسام خمسة تحمل العناوين التالية: التربة، البِذار، الغيث، السنابل، ثم الحصاد. غير أنَّ رَوْعة السرد، التي يمتاز بها توفيق عوّاد تأبى علينا ترك الرواية دون أن نُقدِّم للقارئ فقرة من الرواية فيها وصف لولدٍ جائع أمام أرغفةٍ شهيّة. يقول عوّاد:

«وقف أمام واجهة فيها صفّ من الخبز. ثم خطا يدفع أنفه حتى لامس زجاجها. كانت الأرغفة كثيرة يستلقي بعضها على بعض من طرف الواجهة إلى الطرف الآخر في عرض جميل. بيضاء لها أُطُر موشّاة، وخدود محمّرة عليها شامات سوداء. رغيف رافع إلى جانب رغيف ضامر إلى جانب آخر قد اعوجّت يد الخبّاز به وفاتته النار فهو عجين جامد لا لون له ولا شكل. تجيء عينا الصغير وتروحان على الأرغفة ثم تستقرّان على هذا المِسخ من بينها جميعاً، فيثني عنقه إليه ويسيل لعابه عليه، ويتشمّمه من وراء الحاجز، وأصابعه تتفرّك على جبينه من هنا ومن هنا، ثم تلتقي على فمه فيعضّ عليها ... حتى تنبّه له الخبّاز فقام وطرده».



ويقول أيضاً:

«انطلق طام في الأسواق المغطّاة بالجباع يهمس في الآذان:

- إبراهيم بك فاخر يوزّع الطحين! إبراهيم بك فاخر يوزّع الطحين!

..فيتناقل السامعون البشرى، ويستأثر بها بعضهم طمعاً. يهبّ الشيخ المتهدّم ململماً قواه، ويرفع الشاب الذليل رأسه، وتنتفض المرأة في أسمالها، ويخفّ الولد طائراً.. جماعات وفرادى يتراكضون، الأمّ تجرّ طفلها، والأخ يترك أخاه. هذا يدلح بورمه، وذاك يقع على وجهه، حفاة



.. الرغيف الحاضر دائماً في الحياة العربية وأدبها أيضاً

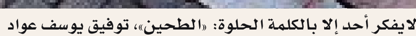


لايفكر أحد إلا بالكلمة الحلوة: «الطحين»، توفيق يوسف عواد





قال التنور وقال الرغيف... من اجمل ماكتب القاص احمد يوسف عقلية



نصف عراة، بأقدام مشقّقة وسخة، ووجوه بارزة العظام، وشعور منفّشة طويلة، وعيون فارغة مخيفة. موكب متّصل الحلقات هنا، منفصلها هناك، يثب ويعثر ويزحف، ولكنه يتقدّم دائماً. لا يفكّر أحد إلا بالكلمة الحلوة «الطحين»، ولا يرى إلا الصورة الشهية «الطحين» تشدّد عزيمة مَن ارتخت عزيمته، وتضاعف قوة مَن عنده قوة، تُمسك الأرماق في الحلوق، وتجدّد دفقات الحياة في الصدور».

إنسانية الرغيف عند معلوف وتامر

أما رياض معلوف، فيتحدّث عن الرغيف في معانٍ رائعة، ثم ينتقل إلى مناجاته ويدعوه لأن يكون إنساناً أكثر من الإنسان كي يتكرَّم على الذين حَرَمهم الدَهر من اللقمة الطيِّبة:

«رَغيفُنا المُسْتَديرُ والقمريُّ الوجهِ، كوجهِ المحبوبِ، وهو الذي يَقْتَتِلُ الملايينُ في سبيل الحصول عليهِ يومياً. ومنهم من يطاله سهولةٍ – إذا حالفه الحظّ – ومنهم من يسعى ويركض وراءه، والرغيف راكضٌ أمامه هارباً منه. فرغيفنا الأسمر البلديُّ الشَهيُّ، رائحتُه تُشبعُ النَفس، وهو مُطلٌّ من الفُرنِ، أو الصّاج، أو التنّور، وهو معجونٌ بعرقِ الجبين، ودم القلب... وهكذا ترى في احمرار خدّه، دماً هدر في سبيلِه، وماء وجهٍ بذلَ من أجْله، واللّقمة منهُ دونها أهوالٌ ومصاعب.

يا رغيفنا، يا أب الّلقمة الطّيّبة، لولاك ما طابت المائدة، يا خبزنا اليوميَ الكريم، كُن إنساناً أكثر من الإنسان، وتكرّم على من حرمهم الدّهرُ من لُقمتك، وعلى من اشتاقوا كثيراً إلى طلعتِك وإطلالتِك».

ورغيف زكريا تامر

في كتابه «نمور في اليوم العاشر»، يتوجّه زكريا تامر إلى الصغار والأحداث بقصص قصيرة فيها من العفوية والبساطة والرمز ما يجعلها محبّبة ومؤثّرة. منها هذه الأقصوصة المتعلّقة بموضوع بحثنا:

« سمعت رندا جرس الباب يرن بإلحاح، فصاحت أمها التي كانت تكنس إحدى الغرف: «يا رندا اذهبي بسرعة وافتحي الباب».
فأطاعت رندا، وفتحت الباب، فأبصرت شحَاذاً عجوزاً يرتدي ثياباً بالية، وما إنْ رآها حتى مدَّ كفّه نحوها قائلاً بصوت مرتعش: «أعطوني مما أعطاكم الله».
وجاء صوت الأم من داخل البيت: «من جاء يا رندا؟».
قالت رندا بصوت رفيع حادّ عالٍ: «شحاذ».
قالت الأم: «ماذا يريد؟»
قالت رندا للشحاذ: «أمي تقول ماذا تريد».
قال الشحاذ: «أريد رغيف خبز. أنا جائع».
صاحت رندا: «ماما .. الشحاذ يقول أنه جائع ويريد رغيف خبز».
وظلّت رندا متجمّدة تحدّق إلى الشحّاذ مرتجفة مذعورة حتى جاءت أمها وهي تحمل رغيف خبز، وقدّمته للشحاذ الذي تناوله باحترام، ورفعه بحركة خاشعة إلى فمه، وقبّله، ثم تمتم بكلمات مبهمة شاكراً، وابتعد عن باب البيت وهو يمشي بخُطى متثاقلة.
وأغلقت الأم الباب، فقالت رندا لها: «ماما .. لماذَا باسَ الشحّاذ الرغيف؟».
قالت الأم: «باسه لأنه يحبه كثيراً».
قالت رندا: «ولماذا يحبه إلى هذا الحد؟»
أجابت قائلة وهي تبتسم: «لولا الخبز لمات الناس جوعاً».
ولما عادت الأم إلى الغرفة التي كانت تكنسها، قصدت رندا المطبخ، وهناك أمسكت رغيف الخبز، وقبّلته، وعندئذ ارتجفت وكأنَّ قلبها جناحا عصفور سجين في غرفة صغيرة من إسمنت لا باب لها ولا نوافذ».

يدُ الإنسان أم الآلة؟

وفي سيرته الذاتية «سبعون» يتحدّث ميخائيل نعيمة، عن مروره





بسهل قمح من سهول أمريكا، خلال موسم الحصاد. فوقف، متأملاً ومتذكراً حصاد القمح في بلاده: تراءى له محراث والده بين أصابعه الدامية، وقامته المنحنية فوق السنابل .. ومن ثم يقول:

«سألت نفسي، وأنا أرقب تلك الحصّادة العجيبة تفري السنابل، ثمّ تلتهمها، ثم تنفث تِبْنها وأحساكها في الهواء، ثم تبصق حبّها في أكياس سمينة، مختومة: ترى أيهما أطيب وأجلب للعافية: حبّة تبذرها كفّ إنسان، وتحصدها كفّ إنسان، وتذريها كفّ إنسان، ثم تغربلها وتطحنها وتعجنها وتخبزها كفّ إنسان؟ أم حبّة تزرعها وتحصدها وتذريها وتغربلها وتطحنها وتعجنها وتخبزها ماكينة مفاصلها وأضلاعها من الحديد، أما روحها فالبنزين؟ وإلى أين تمشي بنا الماكينة؟»

بُخلٌ أم كَرَم؟

ومن المفارقات في الأدب حول موضوع الرغيف أنه استخدم كرمزٍ للكَرَم كما استخدم كَرَمزٍ للبُخل. فإنَّ جبران، ذي النزعة الإنسانية المعروفة يقول الآتي في كتابِهِ «رَمل وزبد»:

«إنّك لا تستطيع أن تأكل أكثر من حاجتك. فإنَّ نصف الرغيف الذي لا تأكله يخصّ الشخص الآخر، ويجب أن تحفظ غيره قليلاً من الخبز لضيفٍ ربما يمرّ بك على غير انتظار».

ويقول الجاحظ عن أحد بخلائه أنه جَلَدَ الخبّاز لأنه أنْضج الخبز ووضَعَه أمام الضيف وكان قد أوصاه بعدم إنضاجِهِ لئلاً يؤكل:

«أنضج خبزي الذي يوضع بين يدي واجعل خبز من يأكل معي على مِقدارٍ بين المقدارين. وأما خبز العِيال والضيف فلا تقربّنه من النار إلا بقدر ما يصير العجين رغيفاً وبقدر ما يتماسك فقط». ولما أعجز ذلك الخبّاز نال نصيبه من الجلد الأليم.

الرغيف والتنّور

ومن القصص القصيرة، قصة «الرغيف» للقاص الليبي أحمد يوسف عقلية، وهي بمثابة حوار بين الرغيف والتنّور، وعلى قدر من الإبداع والطرافة إلى جانب عمق المعاني والبساطة. وهنا بعض السطور الأولى من هذه القصة:

أحسَّ الرغيف بأن أطرافه بدأت تشتد.. وأخذ اليباس يعلو وجهه.. لكنه ظلَّ مُعتصماً بصمته.

قال التنُّور.. بعد أن نفخ نفخةً طويلة بفعل الصهد:

- لماذا هذا الصمت..؟ حدِّثْني ما دمنا ملتصقَين إلى هذا الحَدّ.. أم تنتظر حتى تنضج فتصبح طعاماً..؟

- هذه مسألة لا فكاك منها.. لكنَّ ما يشغلني هو أنني لا أعرف من نصيب أي الأفواه سأكون..؟

- المسألة سهلة.. إذا كنتَ أحمر مقرمِشاً فستكون من نصيب الحسناوات.. وإذا كنتَ رطِباً فستلوكك العجائز.. أما إذا احترقتَ وعلاك السواد فستأكلك الكلاب.. أو الراعي في أحسن الأحوال..!

احتجَّ الرغيف:

- هذا مَيْز عنصري.. أنا رغيف سواء كنتُ أحمر أو أسود.

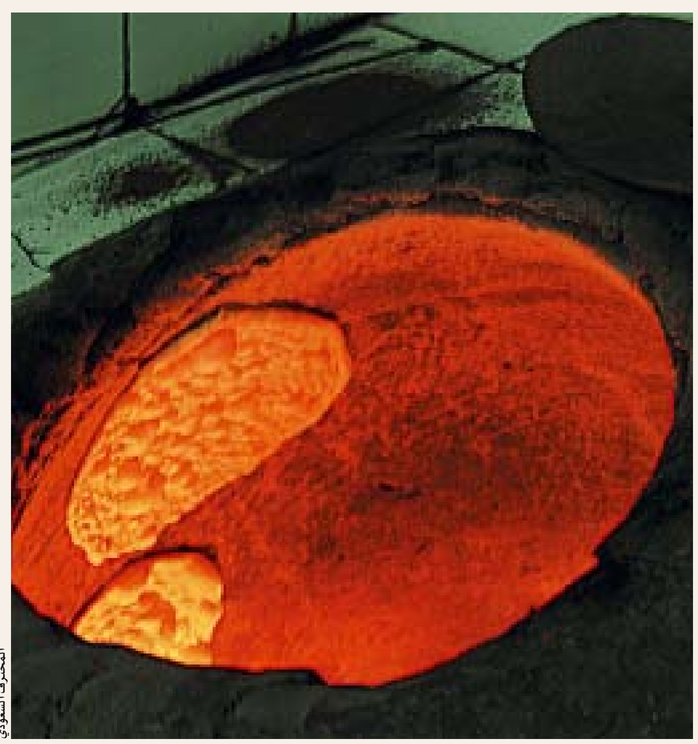
- رغم أنني كتنُّور ضد المَيْز العنصري.. إلا أنَّ هذه هي الحقيقة الموجعة للأسف.

- مَن يدري.. قد أقع في فم أحد الجنرالات.. تُرى هل معدة الجنرال تختلف..؟

- دعْنا من هذا.. وقل لي: لماذا تلتصق فيّ بقفاك..؟!

- المصادفة وحدها هي التي جعلت من هذا وجهي وذاك قفاي.

- يا لها من رحلة ستقطعها بين الفم والقفا..!



هكذا هي حياة الأرغفة.. قصيرة

- أتسخرُ منّي يا قُبو النار..؟
- أنا لا أسخر أيها اللصيق.
- مَن تظنّ نفسك..؟ أنت مجرد فم أسود لابتلاع الحطب.
- وأنت لستَ أكثر من (قَنَّان) لزج كالحلزون.. يبدو أنهم قد عجنوك بخميرة النكد..!

غضب الرغيف.. ازداد تكوُّراً.. وتحصَّن بصمته.. فيما كان التنور يتساءل عن الحُمرة التي بدأت تغزو أطراف الرغيف: هل هي بفعل النار..؟ أم بسبب الغضب..؟

قال التنور محاولاً ترطيب الأجواء:
- نحن نشترك في أمر مهم.. أنت قُرص .. وأنا مجموعة من الدوائر من الفم إلى القاع.. ألاحِظ أنك بدأتَ تفقد بياضك.. ومع أن سمائي ليست زرقاء.. بل هي أقرب إلى السواد.. إلاّ أنك أصبحت كالبدر..!
- إنني أحسُّ بالنضج.
- هذه نهاية الطريق.
- ماذا تعني ..؟
- هكذا هي حياة الأرغفة.. قصيرة.. تمام الأشياء يعني بدايتها في النقص.
- أهذه حكمة التنانير..؟!
- انتظار النهاية لا يُغيِّر من الأمور شيئاً.
- وماذا بوسع رغيفٍ مثلي أن يفعل ..؟
- هناك طريقة واحدة لتأخير النهايات.. تخلَّ عن صمتك.. ما دمتَ قادراً على الحَكي فإنك لن تموت.
- لكنَّ حكايتي قصيرة.. محدودة.. منذ أن دفنوني حبَّة في التراب.. إلى أن وصلتُ إليك.
- أنا أيضاً حكايتي قصيرة.. منذ أن كنتُ في الوادي حجراً من المرمر.. لكنَّ هذا لا يدعوني إلى الصمت.. ثم إن حكايتك أزلية.. منذ تلك الحَبَّة التي أنبتت سبع سنابل.

خبَت الجمرات.. دفنها الرماد الأبيض.. أخذ الرغيف يروي حكايته.. ويروي:

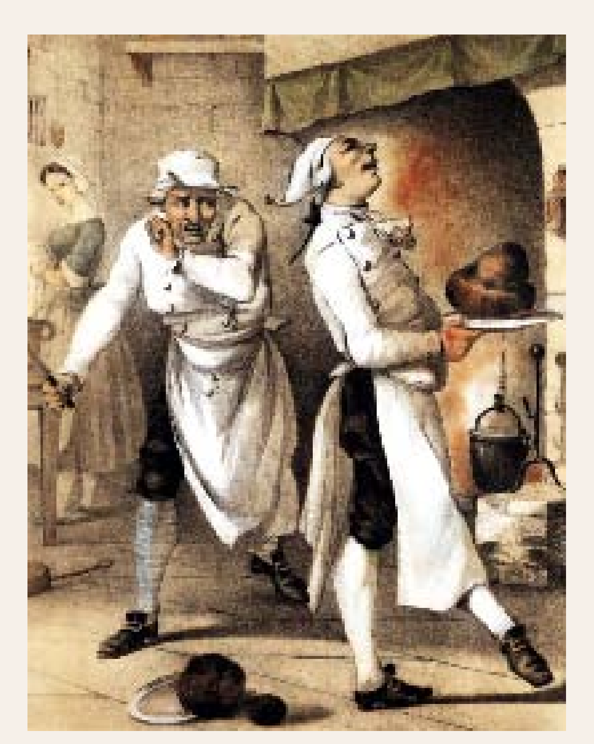
«تهطل الشآبيب.. أصابع سماوية تمسح يَبَاس الحقول الحاسرة التي خدَّدتها المحاريث.. ينتشر فَوح التراب المُبلَّل.. تتموج السنابل.. تصفّر.. تصدح قُبَّرات وجنادِب.. أغمار.. أجران.. صهيل.. غِلال.. مطاحن..»

أحسَّ بأن العمر مهما طال وامتد.. فلن يتسع لحكاياته.
تعاقب الليل والنهار.. بدت السماء كحقلٍ أزرق يومض بألف زهرة.. تناسلت حكَايا الرغيف.
هطل المطر.. أعشب التنور.. ومن تحت الرماد نهضت سبع سنابل.

وفي الرواية الأجنبية

ونظراً إلى الرموز الحياتية التي يحملها، ظهر الخبز في معظم الروايات الأجنبية التي تناولت الفقراء والأزمات الاجتماعية. ومن أبرز المسرحيات الأجنبية التي تمحورت حول الخبز هناك «خبز العائلة» للكاتب الفرنسي ج. رونار عام 1898م. كما أن القاص بول كلوديل كتب مسرحية في العام 1918م بعنوان الخبز القاسي. أما الأديب الروسي الشهير مكسيم غوركي فقد كتب سيرته الذاتية بعنوان «كاسباً لقمة عيشي».





رسوم زينت روايات أجنبية تناولت حياة الفقراء والأزمات الاجتماعية

وفي الفنون

في فن الرسم، ظهر الخبز في الفنون أينما كان الفن واقعياً أو سعى إلى أن يكون كذلك. ففي الرسوم الجدارية في المقابر الفرعونية ظهر الخدم وهم يطحنون غلال الحبوب ويخبزون. ولا عجب في ذلك، إذ أن إحدى البعثات الأثرية عثرت في منطقة الجيزة على مخبز مجهز بالكامل يعود إلى القرن الثالث ق.م. ومنه تم التأكد أن خبز هذا المخبز الفرعوني يتطابق وأسلوب خبز «العيش الشمسي» الذي لا يزال ينتج في صعيد مصر حالياً.

والتيار الفني المعروف باسم «الطبيعة الصامتة» الذي تفرع عن المدرسة الفلامنكية في القرن السادس، غالباً ما رسم الخبز إلى جانب أساسيات المائدة المثالية. ومن أشهر هؤلاء الفنانين بيتر كلايتز وفيلام كالف. كما ظهر الخبز في أعمال عشرات الفنانين الواقعيين في القرن التاسع عشر وصولاً إلى مدارس القرن العشرين.

أما في الموسيقى والغناء، فهناك الأغاني الشعبية الخاصة بالخبز، ومنها واحدة، على سبيل المثال، تقول: «ياعجين ما تعتب عليّه دي المروّة اللي فيّه، يا عجين الكسلانة قب وإملي اللقانة...» أو واحدة تقول: «عيشي مشمش يطلع ينفش، عيشي تفاح يطلع مرتاح، ياكلوه شبان ملاح..».

وفي العام 1969م، تشكل في أمريكا فريق موسيقي سمى نفسه «Bread»، أي خبز. وقد ذاع صيت هذا الفريق عالمياً بسبب الموسيقى الهادئة الحالمة التي أطلقوها. وفي وقت لاحق ظهر فريق آخر سمى نفسه «Cake»، أي «كعك»، كرّم الفريق الأول بإنتاج أسطوانة تضم 14 أغنية من أغانيه القديمة اعترافاً بما أضفاه على الموسيقى في تلك الحقبة.







الخبز كما ظهر في لوحات الطبيعة الصامتةالأوروبية



اعضاء الفريق الموسيقي «خبز»

الخبز الفرنسي.. مَعلَم السياحي

ينتج الفرنسيون أكثر من مئتي نوع مختلف من أنواع الخبز، أما الأنواع التي يستهلكونها يومياً فلا تزيد على العشرة، وعلى رأسها «الباغيت».

و «الباغيت» كلمة تعني «العصا»، لأن هذا الرغيف يشبه العصا. فهو طويل، ذو قشرة محمصة صلبة، ولب طري، لذيذ المذاق، وتفوح منه رائحة زكية عندما يكون طازجاً.

ولم ينجح شعب في العالم في رفع خبزه إلى مقام المعالم الوطنية والسياحية كما نجح الفرنسيون. فرغيف «الباغيت» مذكور في كل الكتيبات السياحية إلى جانب برج إيفل وقصر فرساي ومتحف اللوفر. ولا بد للسائح من أن يتذوقه كي تكون سياحته كاملة. كما أن الصورة النموذجية للمواطن الفرنسي تمثل في وجدان الكثيرين رجلاً يعتمر قبعة البيريه على رأسه ويتأبط رغيفاً من «الباغيت».

وقد حاولت الباحثة ماغالي مارغان في رسالة دكتوراه بعنوان «صورة فرنسا في الخارج من خلال باغيت الخبز» أن تجيب عن بعض التساؤلات التي تحيط بهذا الرمز.

وتقول هذه الباحثة إن أصل الباغيت نمساوي وليس فرنسياً. وقد وصل إلى فرنسا في العام 1830م. وكان خبزاً أرستقراطياً يعجن بالحليب وليس بالماء.

وتروي الباحثة أيضاً المراحل التي مرت بها هذه الصناعة، واستبدال الحليب بالماء مما خفض كلفته، ولكنه من جهة ثانية قلّص مدة استهلاكه، بحيث بات من الضروري شراؤه يومياً وتناوله طازجاً. وهكذا صار الخبز النمساوي الأرستقراطي خبزاً شعبياً.

والواقع أن رغيف الباغيت هذا تعرض لتقلبات عديدة في تاريخه. فخلال الحربين العالميتين تراجع إنتاجه بسبب الأزمة الاقتصادية التي جعلت الخبز الأسمر أكثر رواجاً.

وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين، كادت الآلة وتطور صناعة الخبز وإدخال المواد الحافظة على الرغيف الفرنسي أن تدمر رغيف الباغيت التقليدي. إلا أن جهود آلاف الخبازين على مدى سنوات عشر حملت الحكومة على إصدار قرار بمنحهم لقب «خباز حِرفي». ويصل اليوم عدد هؤلاء الذي يخبزون وفق الطرق التقليدية من دون أي دور للآلة إلى نحو 35 ألف خباز.



الخبز الفرنسي وخبازه. لايقلان شهرة عن متحف اللوفر أو برج إيفل

صور موضوع «الخبز.. رغيف الحياة»: Corbis

القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يناير - فبراير 2006
المجلد 55 العدد 1

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com